المستفاد من السفر إلى تشاد

بقلم

محمد بن ناصر العبودي


بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) -في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) -رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) -مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) -جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) -رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦) -صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - الرياض - دار العلوم ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) -مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - بريدة - نادي القصيم الأدبي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) -إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) -زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - الرياض - المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) - شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) - في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) - رحلات في أمريكا الوسطى - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) - إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض المؤلف ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) - على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) - على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) - في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) - في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) - بقية الحديث عن إفريقية – مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) - جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) - جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) - داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) - بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) - الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) - مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) - جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) - في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) - بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) - بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) - مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) - ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) - كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) - في جنوب الصين - طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) - كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) - ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) - أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) - على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) - نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) - بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) - من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) - سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) - يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) - نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) - بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) - قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) - حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) - المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) - في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) - رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) - إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) - أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) - في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) - إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) - حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) - زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) - سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

(٥٦) - راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) - في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية – طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) -العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية – طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) - في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية – طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) - هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) - من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) - بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) - بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) - مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥) - تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦) -المستفاد من السفر إلى شاد. وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٦٧) - معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٦٨) - أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٦٩) - الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٧٠) - كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧١) - نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٧٢) - مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٣) - سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٤) - صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٥) - العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٧٦) - نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء – مطابع التقنية في بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٧) - المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٨) - مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة – بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

– نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(٧٩) - كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(٨٠) - المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) – ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(٨١) - مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(٨٢) - رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لحمد لله، وأما بعد.

فقد ابتليت شاد بالاستعمار الفرنسي مثلما ابتليت به أقطار مسلمة كثيرة وإن كان استعمارها يكاد يكون استثناء في قصره بالنسبة إلى طول مدة الاستعمار الفرنسي للأقطار المسلمة في إفريقية؛ سواء أكان ذلك في شمال القارة أم في وسطها، فقد بدأ في عام ١٩٠٠م، وانتهى في عام ١٩٦١م، أي أنه استمر ستين سنة فقط.

ولكنها ابتليت بعده ببليتين عظيمتين:

إحداهما: بلية الحكام من الكفار الذين أعقبوا خروج الاستعمار، فأرادوا أن يسيروا على منهجه بلسان وطني شادي، وعمل استعماري هادئ، فجمعوا بين النفاق في القول، والفساد في العمل، ومن أعظم الفساد في العمل أن يحكموا البلاد بأقلية من أهلها غير المسلمين، وأن يبقوا المسلمين خارج الحكم محكومين، وهم الأكثرية، ويظلون مبعدين وهم أهل البلاد العريقة في اعتناق الديانة السماوية، وفي العراقة الإسلامية العلمية.

وثانية البليتين: جاءت بعد ذهاب الحكام الكافرين، وهو اختلاف الحكام المسلمين حتى بلغت الحرب بين الفريقين في مكانين من العاصمة تسعة شهور، أصبحت المدينة بينهما ساحة حرب، وأضحى من سلم من أهلها فيها من القتل أو الإصابة أهدافاً للقصف والعنف.

ثم انتهت تلك الشهور العجاف، وتنفس الناس الصعداء إلى أن تجددت الاضطرابات بعد ذلك بين قيادات المسلمين، أو لنقل: إنها بين أبناء المسلمين.

وفي هذا الوقت الحاضر استقرت الأحوال، وانتعشت الآمال، بأن يقوم في البلاد حكم وطني بطريقة مجمع عليها بين أهلها، بعد أن انعقد المؤتمر

الديمقراطي، وتألفت الحكومة الوطنية بقيادة الأخ الكريم (إدريس ديبي) رئيس الجمهورية.

إن شاد الآن تشهد ميلاد شعب عربي مسلم بأكثريته، ذلك بأن الشعب يتفاهم الآن كما كان منذ سنين طويلة باللغة العربية وحدها، وإن كانت لبعض طوائفه وقبائله لغات محلية أو قبلية لا يفهمها إلا أهلها، فلا يكون بين أهل البلاد إلا أن يتفاهموا بلغة عامة واحدة هي اللغة العربية العامة، حتى بالنسبة إلى غير المسلمين من الشاديين فإنهم إنما يتفاهمون مع الشاديين الآخرين بالعربية العامية، لأنه لا وسيلة لهم للتفاهم إلا هذه.

فاللغة العامة الأخرى في البلاد هي الفرنسية، وهي لغة الدواوين والمثقفين بثقافة الأوروبيين، وليست لغة عامة الشعب، فضلاً عن أن تكون لغة مفهومة للرعاة والفلاحين، بله الأعراب البادين.

ولئن كانت اللغة العربية قديمة في هذه البلاد الشادية قدم الإسلام، أو قريباً من قدم الإسلام فيها، فإنها صارت الآن تترسخ وتتوطد، وصار المتعلمون يتكلمون بها بصفة لا تختلف بحال من الأحوال عن اللغة التي يتكلم بها عامة المتعلمين المثقفين في البلدان العربية من عمان في الشرق إلى موريتانيا في الغرب، وهي اللغة المنبثقة من الفصحى وهي الفصيحة لا ينقص منها إلا إعراب الكلمة في الرفع والجر والنصب، حتى إذا كان المتعلم الشادي يتكلم بحيث تسمعه ولا ترى شخصه على سبيل المثال فإنك لن تدري أهو سعودي -مثلاً- من أهل نجد، أم شادي من أهل إنجمينا. أما إذا سمعت العامي من أهل شاد يتحدث بحيث تسمع صوته ولا ترى شخصه فإنك سوف تحكم لأول وهلة بأنه من إخواننا السودانيين لكونك لا تعرف لهجة الإخوة الشاديين وإلا لحكمت أنهم أقرب الناس خارج الجزيرة العربية إلى لغة أهل نجد.

وهذا أمر بحثته وتحققت منه بنفسي، وربما يأتي شيء عنه فيما بعد أثناء الكلام في الكتاب.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

سبب الرحلة:

ظلت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي أعمل فيها أميناً عاماً مساعداً ردحاً من الزمن لا تتصل مباشرة بشاد ، فلا يذهب إليها أحد من الرابطة ، ولا يأتي إلى الرابطة منها أحد بسبب هذه الحروب الداخلية والفتن التي حصلت فيها بين أهلها ، وإنما كانت الرابطة تعتمد في الاتصال بشاد على هيئة الإغاثة الإسلامية المنبثقة عن الرابطة؛ لأن حاجتها كانت -في تقدير الرابطة - هي حاجة البلدان التي في أمس الحاجة إلى مواد الإغاثة حتى تألف في (شاد) مجلس أعلى للشؤون الإسلامية ، واختير الشيخ حسين حسن أبكر الذي هو داعية من دعاة رابطة العالم الإسلامي تدفع له الرابطة راتباً شهرياً نظير تفرغه لعمل الدعوة إلى الله ، وهو أيضاً متخرج من كلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، فاتصل بالرابطة كتابة يطلب المعونة لهذا المجلس ، ولم يكن لدى الرابطة معلومات كافية عن كيفية عمل هذا المجلس ، ولا عن الخدمات التي يؤديها ، وبالتالي عما يستحق أن يساعد به على وجه التحديد.

ثم جاء وفد شادي رسمي إلى المملكة ، وزار الرابطة ، ويضم السيد الطاهر قاسي مستشار رئيس الجمهورية ، والشيخ حسين حسن أبكر رئيس المجلس الإسلامي هذا ، وهو يحمل رسالة رئيس جمهورية شاد العقيد إدريس ديبي إلى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي تضمنت دعوة الأمين العام للرابطة لزيارة شاد ، والاطلاع على حاجة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية إلى المساعدة ، وإجراء محادثات مع المسؤولين عن الشؤون الإسلامية فيه ، وفي هذه الرسالة أيضاً بيان بالحاجات الملحة لهذا المجلس.

فتقررت الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة ، وأن أسافر أنا إلى شاد ، وأن أحمل بعض المعونة للمجلس الإسلامي ، وأن أقابل رئيس الجمهورية ، وأسلمه

رسالة من الأمين العام للرابطة، وأطلع على المشروعات الإسلامية خاصة، وعلى أحوال البلاد بصفة عامة.

وقد قمت بالفعل بذلك، وهذا ما كتبته عن هذه الرحلة إلى شاد، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

مكة المكرمة　　　　　　　　　　　　المؤلف

محمد بن ناصر العبودي


الجماهيرية العربية الليبية
زوار
(بوركو - انيدى - تبستى)
فايالارجو
فادا
كانم
البطحاء
وداى
السودان
آتى
انجمينا
شارى باقرمى
سلامات
شارى ميونن
لوجون
مايوكيبى
الكاميرون
إفريقية الوسطى

خريطة شاد

بين يدي الحديث:

اعتدنا في الكتب السالفة أن نقدم أو نؤخر معلومات عامة عن البلد الذي نتحدث عنه من أجل أن يستحضر القارئ الكريم ما يتعلق بذلك البلد من المعلومات عند قراءة ما كتبناه إذا أراد ذلك.

وفي حالة (شاد) سلمتنا جهة رسمية شادية معلومات لخصت بعضها هنا، فأغناني ذلك عن جمع المعلومات من مصادر عديدة، و(السعيد من كفي).

الموقع والمساحة

تقع جمهورية شاد في قلب إفريقية، وتبلغ مساحتها ١,٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مربع، ما بين خطي عرض ٨ و٢٢ درجة شمال خط الاستواء وخطي الطول ١٦، ٢٤ درجة شرق خط قرينتش.

الموقع الجغرافي:

تحدها ست دول: من الشمال ليبيا، ومن الشرق السودان، ومن الغرب النيجر ونيجيريا، ومن الجنوب الغربي الكمرون، ومن الجنوب جمهورية إفريقيا الوسطى.

تعتبر شاد دولة داخلية ليس لها منفذ على البحر، فإن العاصمة الشادية تبعد عن أقرب ميناء بحري مسافة ١٥٠٠ كلم، وهو ميناء دوالا (الكمروني)، أو ميناء هارتكورت في نيجيريا.

السكان:

تعداد سكان شاد إلى الآن غير معروف بالتحديد، وفي السجل المدني (الدفتر الذي تسجل فيه المواليد والوفيات والزواج وإحصاء السكان) في شاد المعلومات التي تدون فيه بالنسبة للأشخاص غير دقيقة، وفعالية السجل المدني غير معمول بها خارج المدن الكبرى، ومن الناحية الأخرى الأشخاص المكلفون بالإحصاء لم تتوفر لديهم الأعداد بالضبط ذلك لأن بعض السكان في القرى والبوادي يعتقدون أن الإحصاء لديهم ما هو إلا وسيلة لفرض الضرائب على الأشخاص.

التزايد السكاني في شاد:

شعب شاد كان يقدر عدده بمليون نسمة، وذلك عام ١٩٠٠م.

و٢,٢٨٠,٠٠٠ نسمة في ١٩٥٠م، و٤,٣٠٠,٠٠٠ نسمة وذلك عام ١٩٧٥م، ٥,٢١٢,٠٠٠ وذلك عام ١٩٨٦م.

قبل عام ١٩٠٠م لم يكن هناك تزايد لأعداد السكان في شاد، وذلك

يرجع للأسباب الآتية:

الحروب، الرق، الأمراض.

لقد ازدادت الأحوال سوءاً في فترة الاستعمار الفرنسي لأنها فترة عرفت فيها البلاد العنف والمذابح الجماعية، وكثير من شباب شاد أجبرهم المستعمر على الأعمال الشاقة أو التجنيد، وإرسالهم إلى أوروبا لمحاربة ألمانيا التي كانت تقاتل فرنسا مما خفف نسبة ازدياد السكان في شاد.

وفي عام ١٩٥٠م بدأ التزايد السكاني بسرعة، وذلك بسبب إحلال السلام، وبناء عيادات ومستشفيات، وبعد الاستقلال رغم الأحداث التي مرت بها البلاد في الآونة الأخيرة (الكوارث الطبيعية، والمجاعة والحروب ...إلخ) لم يتوقف ازدياد السكان، وذلك بسبب انخفاض الوفيات.

وفي عام ١٩٨٦م وصلت الكثافة السكانية إلى أربعة أشخاص في الكيلو متر الواحد.

إذاً عدد السكان ضئيل، وتوزيعهم غير متساو.

وتصل الكثافة السكانية إلى ٤٠ شخص في الكيلومتر المربع في منطقة مايوكبي، وكذلك تصل ما بين ١١ – ٢٠ شخصاً للكيلومتر المربع في كل من تنجلى وشاري الأوسط واللوقون الشرقي، وتصل ما بين ٣ –١ للكيلومتر المربع في كل من شاري باقرمى، وبحيرة شاد، ووداّدي والبطحا وبلتين وقيرا، وتصل إلى أقل من شخصين في الكيلو متر المربع في كل من سلامات، وكان.

بذلك نعرف أن الكثافة السكانية ضئيلة في شاد، ونستطيع أن نقول إن البلاد لم تكن عامرة بالسكان.

وتحسب نسبة المواليد نسبة ألفية وتحسب على النحو التالي:

نسبة المواليد في شاد ٣٤٪ = (عدد المواليد × ١٠٠٠) / عدد السكان في السنة.

ونسبة الوفيات في شاد ٢١٪ = (عدد الوفيات × ١٠٠٠) / عدد السكان في السنة.

في شاد عدد نسبة المواليد في الألف تصل إلى ٤٣٪.

ونسبة عدد الوفيات في الألف تصل إلى ٢١٪.

الزيادة إذاً تتجاوز ٢,٢٪ .

وكانت نسبة الزيادة ١,٩٪ في أواسط ١٩٦٥م – ١٩٧٣م.

وفي عام ١٩٦٥م نسبة المواليد ٤٠٪ ونسبة الوفيات ٢٦٪.

وما بين ١٩٦٥م – ١٩٨٤م انخفضت نسبة الوفيات إلى ٢٠٪.

السطح والتضاريس

شاد دولة مسطحة يمكننا أن نقارنها مع النصف الأكبر من مسطح البلاد، وأطرافها مرتفعة من الشمال و الشرق وتنحدر نحو الجنوب.

النقطة الأقل ارتفاعاً في سطح شاد تبلغ ١٦٠م في منطقة الجراب، والنقطة الأعلى ارتفاعاً في سطح شاد تتجاوز ٣٠٠٠م في منطقة تبستي، وبحيرة شاد تبلغ مساحة سطحها ٢٨٢٠٠٠ كيلومتر مربع، ومياهها تصل في بعض الأحيان إلى جراب مروراً بسرو بمنطقة بحر الغزال، فهي امتداد لبحيرة كبيرة.

والسطح الشادي يتكون من مناطق ذات طبيعة مختلفة.

أ)- منطقة المراعي:

تخترقها عدة مجار مائية طبيعية، والأرض مغطاة بالأعشاب والغابات المكشوفة، والتربة خصبة، فهذا الجزء في جنوب البلاد.

ب)- المنطقة الصحراوية:

الشكل الأساسي للأرض رملية ذات مرتفعات رملية، أهم الممرات فيها سرو (بحر الغزال) التي تخترق هذا الجزء الصحراوي من البلاد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

ج)- المنطقة الجبلية:

تقع في أطراف الشمال الشرقي، فهي تتكون من الصخور التي تتميز بالقدم، وتتميز أغلبية المناطق الجبلية بسعة سطح أعاليها.

١): تبستي: صخري اكتشف به حديثاً الفوهات البركانية، فالمرتفعات الأساسية: (أيمى كوسي ارتفاعها ٣٤١٤م) عن سطح البحر، تارسواسي ارتفاعها ٣٣٧٦م عن سطح البحر، بيك توسيدي ارتفاعها ٣٣١٥م عن سطح البحر، فطبيعتها صحراوية باستثناء عشرات النخيل في مناطق الواحات.

٢) أنيدي: سلسلة واسعة من الحجر الناري منحوت بفعل أعاصير الرياح، أعلى سلاسله لا تتجاوز ١٤٥٠م ارتفاعاً، وفي شمال الأنيدي من الجهة الأخرى مردى توجد بها سلسلة من الصخر الناري يتراوح ارتفاعه ما بين ٥٠٠ – ٨٠٠م.

٣) وداي: سلسلة من جبل كرستالي قديم، وهو عبارة عن سلسلة واسعة، أعلى قممه توجد في الشمال تبلغ ما بين ١٢٠٠م – ١٣٠٠م، ارتفاعاً.

٤) قيرا: وتسمى سابقاً السلسلة الجبلية الشادية الوسطى إذ تمثل النقطة الأكثر ارتفاعاً في الوسط ١٦١٢م، فهي سلسلة كرستالية مثل سلسلة وداي.

٥) مون لام في بايكوم وفي اللوقون الشرقي في أقصى الجنوب يصل ارتفاعها إلى ١١٦٣م، وتتكون من الجرانيت والجير.

المناخ في شاد:

- فصل الشتاء: يأتي في الفترة ما بين ديسمبر ويناير، وفي شهر إبريل المعدل الأوسط لدرجة الحرارة لا يقل غالباً عن ٢٢,٥ درجة مئوية.

- فصل الصيف من مايو حتى بداية يوليو، وكذلك في شهر أغسطس إلا في الصحراء يوجد انخفاض عام في درجة الحرارة.

- فترة الرطوبة: تأتي بعد انتهاء موسم الأمطار، يصحبها ارتفاع بسيط في درجة الحرارة.

الأمطار:

تهطل أمطار موسمية بغزارة في جنوب البلاد تبلغ أكثر من (١١٠٠ملمتر)، وفي الشمال تبلغ أقل من (٥٠مم).

معدل نزول الأمطار في الجنوب في نهاية شهر إبريل غالباً، وفي بداية شهر يونيو تهطل الأمطار في إنجمينا العاصمة.

وفترة هطول الأمطار تحدد في الفترات الزمنية المتوالية للبيئة الاستوائية في جنوب البلاد، مع وجود فترتين زمنيتين إحداهما رطبة، والأخرى جافة،

وفترة موسم الأمطار تظهر في بداية إبريل وتنتهي في نهاية أكتوبر، وفترتها تكون قصيرة عندما تتدرج نحو الشمال مع تقدم الرياح البحرية الرطبة نحو الجنوب، وتنزل أمطار غير منتظمة في مندو في نهاية شهر مارس، وبالتالي في إنجمينا في بداية شهر مايو.

- الكتلة الضخمة من الرياح البحرية التي تأتي إلى البلاد تتسبب في سقوط الأمطار بغزارة، والأمطار تقل في نهاية شهر سبتمبر، وفي فترة الجفاف تختفي المياه الفائضة في الأرض.

ج) الأقاليم المناخية:

للأقاليم المناخية ثلاث مناطق كبرى أساسية نسبة لانخفاض الأراضي الشادية من الجنوب إلى الشمال، لذا نجد أهم الأقاليم المناخية هي:

- إقليم المناطق الاستوائية والشبيهة بالاستوائية والصحراوية:

١) المنطقة الاستوائية (إقليم المناخ الاستوائي):

وهي المنطقة التي تتميز بغزارة أمطارها، وتحصل على أكثر من ٠٠٥ ملم من الأمطار خلال السنة، وفي أقصى الجنوب في سار تبلغ كمية الأمطار أكثر من ١٢٠٠ ملم ما بين شهري إبريل وأكتوبر، ومتوسط معدل الأمطار السنوي في الأربع والعشرين ساعة يصل إلى ٧٠ملم، وفي بنقور وإنجمينا تسقط الأمطار ما بين ٥٠ – ٩٠٠ ملم مع المغدل المتوسط السنوي ٦٠ ملم في الأربعة والعشرين ساعة.

٢)إقليم المناخ الشبيه بالاستوائي:

تبلغ الأمطار فيه ما بين ٠٠٢ – ٠٠٥ في برمتبسو وينوي ين ام عزوتتو ،ملم مدينة أبشة، ومتوسط المعدل السنوي في الأربع والعشرين ساعة يصل إلى ٥٠ ملم في المناطق الشبيهة بالاستوائية، لذا نجد في هذه المنطقة أن الأعمال الزراعية تتعلق بهطول الأمطار.

٣)الإقليم الصحراوي:

يقع هذا الإقليم في أقصى الشمال، وتسقط الأمطار فيه بمعدل ٥٠ ملم، وتعدم أحياناً فلا تسقط مطلقاً، ولذلك يتميز بالجفاف الشديد.

المسطحات المائية في شاد

– مجاري المياه والبحيرات والواحات:

عند تساقط الأمطار، تندثر وتختفي بسرعة، وجزء منها ينصب في الأنفاق، وجزء منها يتسرب داخل الأرض، وتقف المياه عندما تلتقي بطبقة مظلية تعمل كحاجز مائي، ويمكن الوصول إلى تلك المياه بواسطة حفر آبار، ومنها تصل إلى عيون مائية تؤدي مخزون المياه التي تغطى الحاجة.

وفي جنوب البلاد حيث غزارة الأمطار نجد مجاري المياه كثيرة ترى طول السنة وهي دائمة، وفي المناطق الرعوية والصحراوية: نسبة هطول الأمطار قليلة، فإن المياه لا تجرى إلا لبضعة أسابيع فهي مؤقتة، ومجاري المياه في المناطق الرعوية تسمى بالوديان، وبعض الوديان لا تجري فيها المياه إلا بعد سنتين أو خمس وأحياناً عشر سنين.

– مناطق مجاري المياه الدائمة:

١) نهر شاري:

هو النهر الأكثر أهمية لشاد، إذ يأخذ مصادر مياهه من جمهورية إفريقيا الوسطى على بعد يبلغ ١٢٠٠ كلم، ويتزود من الروافد بالجانب الأيمن من بحيرة أووك، ونهر كيتا، ونهر سلامات، ومن الجانب الأيسر يتزود ببحيرة سارا، ومن نهر اللوقون بأنجميا.

٢) نهر اللوقون:

يعتبر نهر اللوقون السند الأساسي لنهر شاري، ويجري في مسافة تبلغ ١٠٠٠كلم، يأخذ مصادره من المونت دلادمو في الكمرون، ويتغذى من بعض الروافد من بندي الأيسر الموازي لمندو وتنجلي، ومن الجانب الأيمن الموازي للاى، وابتداءً من لاي يفقد اللوقون مياهه الكثيرة خلال شهر أو شهرين، وخاصة في موسم الأمطار يتراجع اللوقون في مناطق مليئة بالقنوات في اتجاه كابيا، ومن الجانب الأيسر روافده تنصب في مايوكبي من خلال قنواته.

شاري واللوقون: نهران ذا طبع استوائي، يبلغان أقصى مستوى من الصعود المائي (الفيضان) في شهر نوفمبر ، ووقت الانخفاض المائي في شهر يونيو.

- مناطق مجاري المياه المؤقتة:

١)- البطحا: أهم الأنهار المؤقتة، فهي تنحدر من الشرق إلى الغرب، وطولها يصل إلى ٥٠٠كلم. تأخذ مصدر مياهها من الوادي، وتصب في بحيرة فترى، ومجراها محتفظ بالمياه خلال شهور: (يونيو، يوليو، أغسطس، سبتمبر).

٢)- سور: مجرى مائي قديم بمنطقة بحر الغزال، ولا يجري اليوم إلا إذا هطلت عليه الأمطار بغزارة، ويعتبر رافداً لبحيرة شاد، ويجري من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وفي القرن الثامن عشر كان سكان منطقة كانم يسافرون بالمراكب المائية من بحيرة شاد إلى جراب، ولكن قلة الأمطار وهجوم الكثبان الرملية عليها من الشمال الشرقي طمست معظم مجراه.

- المجاري المائية من الشمال للشرق عبارة عن وديان خلال شهر يونيو، وأغسطس، وسبتمبر، فمجاري المياه مرتبطة بنزول الأمطار، ونظراً للانخفاض، والشكل المظلي للأرض، فمن الممكن أن تكون المجاري قوية، ولكن لفترة قصيرة، وفي أقصى الشمال في المنطقة الصحراوية مراكز مجاري المياه قليلة، والحد الأقصى للمجرى لا يستغرق أكثر من أيام أو ساعات.

البحيرات:

بحيرة شاد تتكون من مصدرين رئيسيين هما: نهر شاري، ونهر اللوقون، ويصبان في البحيرة في شكل دلتا، ومساحة البحيرة تقدر في الآونة السابقة بين ١٣٠٠٠ – ٢٥٠٠٠ كلم وفي السنين الحالية للمساحة كانت تقدر بـ ٧٥٠٠ كلم٢ .

وفي شهر فبراير ١٩٨٦ م في الشمال والشرق من البحيرة ظهرت مئات

الجزر، وكان يبلغ عمق البحيرة في الوسط الحد الأعلى ٤-٥ أمتار واليوم يصل إلى أقل من ٤ أمتار.

بحيرة شاد مرت بعدة مراحل مختلفة مهمة، ففي عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧م جاءها موج من مياه الفيضان تسبب في تحطيم مياه السدود والمناطق الزراعية، وفي عام ١٩٧٣م - ١٩٧٤م جفت البحيرة تماماً، وذلك بعد فترة الجفاف الطويل الذي عرفته البلاد عام ١٩٦٥ - ١٩٧٣م، فمياه بحيرة شاد خفيفة والسبب أنها تحتوي على نسبة قليلة من الأملاح.

- بحيرة فترى: مصدرها المائي يأتي من البطحا.
- بحيرة إيرو: مصدرها المائي يأتي من قنوات السلامات.
- والبحيرات الأخرى توجد في منطقة مايوكيني.
- بحيرة ليره: وهي أطول البحيرات في شاد.
- وكل هذه البحيرات غنية بالأسماك، ولكن مياهها خطيرة لتلوثها بالديدان المسببة لمرض البلهارسيا وديدان غينيا.

الجغرافيا البشرية

من أين أتى سكان شاد ؟:

يرجع تاريخ الشعب الشادي لعصر قديم، لقد اكتشفت جمجمة (كران) يرجع عهدها إلى عصور سحيقة، وذلك ما بين عام ١٩٦٠م - ١٩٦١م قرب منطقة جرانبوهوما، وأعداد كثيرة كبيرة من الشظايا الحجرية والعظام، وجدت بالتحديد في تيستى (الأنسان الشادي الأول).

عرفت شاد عصرها الذهبي خلال مراحلها التاريخية في حضارة الساو الذين تركوا تماثيل صغيرة ومجوهرات جميلة، وفيما بعد ظهرت الإمبراطوريات الكبرى، وخلفت معالم مهمة (وارا)، وإمبراطورية كانم، وبرنو، وباقرمى، ووداي، وفي الجنوب ممالك قد ظهرت قبل الاستعمار (إمبانق) التابعة لبيدايا، ومملكة (وانق دوري) في فينقا ومملكة قونق في ليري، ولكن معرفة تاريخ البلاد صعب جداً، والباحثون الشاديون مازالوا

يبذلون جهداً لمعرفة التقاليد الشعبية والاعتماد على المصادر الشفوية التي تنتقل من الأجداد إلى الآباء ومن الآباء إلى الأبناء، والشيوخ القدامى يحتفظون دوماً ببعض الذكريات عن تاريخهم وتاريخ أسلافهم، وباستطاعتنا أن نميز مجموعات عديدة من السكان حسب اللغات التي يتحدثونها.

اللغات:

اللغة الرسمية لجمهورية شاد هي الفرنسية والعربية.

لغة الأم:

أي شادي يتحدث بلغة الأم، واللغات الأمومية عديدة، ولكن باستطاعتنا حصرها في اثنتي عشرة لغة أمومية.

الخمس الأساسية هي:

١- لغة السارا (غامباي - باي - ماجنقاي).

٢- اللغات التي أصبحت شادية (ماسا - هوسا)

٣- اللغة العربية الشادية .

٤- لغات أداموا الشرقية (موندانق - تبرى - أبووم).

٥- لغات الصحراء الغربية (كانمبو - دازاغا - كانوري).

نوعية السكنى:

مساكن الناس حسب نوعية الحياة التي يعيشونها، فالبدو يحملون معهم بيوتهم التي تصنع من السعف أو الجلود، والمزارعون في مناطق الساحل يبنون الأكواخ المستديرة من أسفل بالقصب وكذلك السقف، ومزارعو الأراضي المعشبة يعيشون في أكواخ يبنى حائطها الأسفل بالطين والسقف من القصب.

وعندما نتدرج نحو الجنوب نلاحظ أكواخاً مربعة أو مستطيلة مبنية بالطين من أسفل، والسقف مغطى بالزنك، وفي بعض المناطق يبني السكان

بيوتهم بالطين من الأسفل والأعلى، وهذه الحالة عند الكتوكو، والمندانق، والمزقوم.

الثروة الحيوانية والرعي:

أهم الحيوانات التي تربى الأبقار، فمنذ عام ١٩٧١م – ١٩٧٤م وصل عدد الأبقار الموجودة في شاد إلى ٤٧,٠٠٠,٠٠٠ رأس، وتقرير قسم الثروة الحيوانية لأكتوبر ١٩٨٦م أوصلها إلى ٤,١٠٠,٠٠٠ رأس، وهذا النقص الشديد مرتبط بعدة أسباب، منها الصعوبات التي مرت بها البلاد في السنين الأخيرة حرب ١٩٧٩م – ١٩٨٢م، وتأثر مناطق الرعي من ١٩٨١م – ١٩٨٢م بالمجاعة والجفاف، والتهريب للحيوانات نحو الدول المجاورة.

وهناك ثلاث مناطق أساسية لرعي الأبقار:

١- نوعية البقر العربي الأكثر توفراً في شاد تزن البقرة الواحدة نحو ٣٠٠كلجم، فهي بقرة معروفة بمقاومتها للطبيعة، ونجدها أحياناً في منطقة مايوكيبي المهددة من قبل الذبابة المنومة للحيوانات والإنسان (التسي تسى)، ونجدها في أي مكان في منطقة الجنوب ما بين ١٠ – ١٥ درجة، وهذا النوع من الأبقار يعطينا ما بين لترين إلى ثلاثة لترات من اللبن المتوسط يومياً.

٢- بقرة أم برورو: هذه النوعية من الأبقار يمتلكها الرعاة الفلاتيون، وهي بقرة معروفة بطول وضخامة قرونها، فهي تعطي كميات قليلة من الألبان، ونظراً لتواجدها في المناطق البعيدة نادراً ما نجدها في مناطق الجزارة.

٣- الثور الكوري: ويسمى الآن بثور بحيرة شاد، فهو نوع يعرف بطوله وضخامة قرونه، والبقرة تعطي كميات كثيرة من اللبن، ولحمها من الصنف الجيد الاستعمال لدى الجزارة.

وأغلبية الرعاة يتحركون بمواشيهم للحصول على مناطق الرعي الجيدة الغنية بالكلأ والماء، فالفلاتة يحركون مواشيهم من منطقة بحر الغزال التي يتواجدون فيها في فترة الخريف إلى ساحل اللوقون وسلامات عند حلول فترة الجفاف.

وبالنسبة للرعاة العرب في مناطق باغرمي والبطحا تحركهم بطيء، وعادة التحرك يكون في شواطئ بحيرة شاد وفي أعلى شاري.

- ورعاة ميوكيبي هم رعاة مستقرون.

- وفي المناطق الساحلية والصحراوية التي تكون فيها فترة الجفاف شديدة، يكون التحرك أكثر وبشكل دائم للبحث عن مناطق المياه والرعي.

ومناطق رعي الحيوانات عديدة منها:

مراعي الأغنام وبخاصة الضأن فهذه من الحيوانات يتجاوز عددها عدد الأبقار، ويصل تعدادها نحو ٥٠٠٠،٠٠٠ رأس، وهي تسهم في دعم الاقتصاد الوطني، فالخرفان والأغنام تنسجم مع حياة منطقة المراعي المشجرة في الجنوب، ومنطقة الرعي الشبيهة بالاستوائية ذات الأشجار الشوكية، فترعى أحياناً من قبل البدو الرحل، ولكن عادة توجد هذه الحيوانات في أماكن الاستقرار أي القرى.

مراعي الإبل: تلك المراعي توجد في الشمال من منطقة إنجمينا العاصمة إلى أبشة، فهي حيوانات تنسجم مع حياة البداوة والصحراء، فهي تتحرك من منطقة الرعي للأخرى، وتعدادها يصل إلى ٤٦٠,٠٠٠ رأس، وذلك عام ١٩٨٦م، بينما كانت تصل إلى ٥٦٠,٠٠٠ رأس في عام ١٩٧٤م.

الحيوانات الأخرى الأليفة:

والمراد بها الخيل والحمير، وعدد الخيول ١٨٠,٠٠٠ رأس تستعمل للمواصلات في الأرياف، وفي المدن تعتبر مصدر دخل لأنها تستعمل للسباق، والحمير يصل تعدادها إلى ٣٠٠,٠٠٠ رأس تستعمل في الأرياف للركوب ونقل الأمتعة.

الزراعة: المحصولات النقدية والغذائية:

أهم المحصولات التي يتم بيعها من قبل المزارعين هي:

- القطن: ينتج منذ عام ١٩٢٧م، ويتم زرعه في جنوب البلاد، وتصدير القطن يعطينا القيمة الحقيقية لهذا المحصول.

ظهرت زراعة القطن في منطقة نهري شاري واللوقون، وذلك يعني أنها كانت منطقة خصبة لأن الأمطار تهطل بكمية كافية، وحرارة الطقس تصل إلى ٣٦ درجة مئوية، وذلك يتناسب مع زراعة القطن دون تنقيته، والشركة تحوله إلى قطن منقى، وتصدر شاد القطن إلى الدول الأجنبية.

وزراعة القطن تبدأ من نهاية مايو وأواسط يوليو، وموسم الحصاد يبدأ في نوفمبر، وأشجار القطن تقلع وتحرق قبل حلول موسم الأمطار.

وتصل المساحة التي يزرع فيها القطن في المتوسط إلى ١٥٠,٠٠٠ هكتار.

زراعة القمح والأرز:

منذ زمن طويل يمارس المزارعون في أطراف بحيرة شاد نظام الزراعة في القنوات المبلولة، وبناء سدود تسمح بكسب أرض مروية بمقدورها إنتاج عدة محاصيل في السنة، كالذرة في نوفمبر، والقمح في مارس، ومحصول ثانٍ للذرة في يوليو.

وأول طاحونة كانت تعمل منذ عام ١٩٦٤م في إنجمينا، وحالياً المزارعون مجبرون على بيع محاصيلهم الزراعية من القمح لشركة (سود يلاك) التي تتكفل بنقل القمح إلى المطاحن الشادية الكبرى لتحويله إلى دقيق.

وأما الأرز: فإن زراعته بشكل دائم في المنطقة الفيضية من اللوقون، وكانت زراعة الأرز وإنتاجه يقدم للحكومة لأن الأرز يشكل الغذاء الأساسي للجيش، وفي عام ١٩٦٨م كانت المساحة المزروعة بالأرز حوالي ٣٥٠٠ هكتار، فتجاوزت ٤٠,٠٠٠ هكتار في الأعوام ما بين ١٩٧٤م – ١٩٨١م مع إنتاج متوسط وصل إلى ٥٠,٠٠٠ طن.

قصب السكر: يزرع في جنوب سار إلى موسافيو، وبندا تقدم ٢٠٠,٠٠٠طن من محصول قصب السكر، ومنذ عام ١٩٧٠م تعمل شركة السكر في بندا بسار لإنتاج السكر للاستعمال المحلي.

الحياة الريفية التقليدية:

نجد أغلبية السكان في إفريقيا يعيشون في الأرياف، ويحصلون على مأكولاتهم عن طريق الزراعة أو عن طريق اقتطافهم الثمار من الأشجار التي تنمو طبيعياً، وفي شاد نجد ٨٣٪ من السكان النشطين، أي نحو ٢,٤٠٠,٠٠٠ نسمة يقومون بالزراعة، ويشمل لفظ المزارعين مجموعة الرعاة والصيادين.

ولم يكن هناك نظام لملكية الأرض، وتقسيم المزارع يتم من القرية نفسها، والمحصول يأخذه الشخص الذي يزرع الأرض، ويقوم المزارعون عادة بالزراعة في المناطق التي يتم حرقها، والقطعة الزراعية تحرق فيها الأعشاب والأشجار، ولكن الأشجار المهمة عادة تحفظ.

والأرض تزرع لمدة ثلاث أو أربع سنوات بشكل متتالٍ، وبعد ذلك تترك لكي تسترجع خصوبتها، وبعض المزارعين يعرفون فوائد سماد الحيوان التي تساعد في اختصار الوقت الذي تترك فيه المزرعة لاسترجاع خصوبتها، ولكن بمرور الزمن بدأ كثير من المزارعين في استعمال السماد الكيمائي.

الغذاء الأساسي للسكان:

يعتبر الدخن الغذاء الرئيسي لمعظم السكان بالإضافة إلى الذرة والأرز والقمح، وبعض السكان يستهلكون الأرز بدلاً من الدخن والذرة.

وتقدر المساحة المزروعة بالحبوب بمليون هكتار، والمحصول السنوي من الدخن تجاوز ٥٠٠,٠٠٠ طن، ويزرع الفول في مساحة تقدر بـ ١٧٠,٠٠٠ هكتار وبالتحديد في منطقة البوديان، ومعظم الإنتاج يستهلك محلياً.

والنباتات ذات الجذور تزرع في مساحة تقدر بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ هكتار، ومنها البطاطا، وبعض النباتات المزروعة التي تؤدي إلى تكملة الغذاء مثل اللوبيا والبسلة والباميا، والكركديه والطماطم والفلفل الأخضر والأحمر والقرع والبصل والثوم والسمسم.

والنباتات التي ينتج منها الزيت فتزرع بكميات قليلة، وبالنسبة للبدو الرحل فإن الغذاء الأساسي عندهم الألبان والتمور وقليل من الحبوب سواء من الدخن أو الذرة أو الأرز.

الثروة المعدنية في شاد تشمل مواد كثيرة مثل:

الأورانيوم – الفوسفات – الذهب – الماس – النحاس – الحديد – ولكنها لم تستغل بعد، وهذا لا يعني أنها ليس لها مستقبل.

النفط:

اكتشف النفط في شاد منذ عام ١٩٧٤م، والمواقع التي اكتشف فيها وتحقق من وجود البترول فيها في الوقت الراهن تنحصر في حوض بحيرة شاد وفي جنوب البلاد، وهناك مشروع لإنشاء مصفاة لتكرير النفط في ضواحي إنجمينا، وتكون مزودة بواسطة نفط صدفي في حوض بحيرة شاد.

الشركات الأساسية:

إن إنشاء الشركات التي بمقدورها تشغيل عدة مصانع لتحويل المواد تحتاج لعدة مقومات، منها تكاليف باهظة من الأموال والمواد البترولية، ومصادر الطاقة: والأيدي العاملة: (عمال – خبراء – مهندسون).

فقط ٧٪ من السكان يعملون في الشركات، فهذه الشركات توفر ٧٪ من المنتوجات الصناعية على الصعيد الداخلي، إذ شاد دولة لم تتوفر لديها مصانع كافية، والمصانع الموجودة تنتج أكثر من طاقتها، وهي مصانع بسيطة تحويلية أهمها:

١- مذبحة فرشة بإنجمينا المثلجة.

٢- المطحنة الكبرى بإنجميناالإنتاج الدقيق.

٣- مستودع الأرز الوطني بينقور ولاي.

٤- شركة سكر شاد بإنجميناوبندا تنتج ٢٠,٠٠٠ طن من السكر.

٥- مصنع المشروبات المغذية وإنتاج الثلج بإنحمينا.

٦- مصنع إنتاج الزيت في مندو وأبشة يستعمل حب القطن والفول السوداني وينتج خمسة ملايين لتر من الزيت والصابون، ومعصورات الفول وحب القطن يستعمل علفاً للحيوان.

مصانع الغزل والنسيج:

يوجد ٢٢ مصنعاً تعمل في حلج القطن التابع لشركة (كتون شاد) التي تحول القطن من الوضع الأولي إلى قطن صافٍ خالٍ من البذور، ووضعه في صناديق من أجل التصدير، فحالياً يوجد ٢٢ محلج يعمل منها ٦ فقط، وتنتج ٥٠,٠٠٠ طن من القطن الصافي.

شركة النسيج الشادي في سار تصنع أقمشة يصل طولها من ١٢ – ١٥ مليون متر.

المصانع الأخرى أهمها:

- سيكلو شاد في مندو (إنتاج دراجات عادية ودرجات نارية).
- مصانع صغيرة مجتمعة في إنجمينا(مصنع ولاعات – أثاثات منزلية).

حرفة الصيد في شاد:

توجد في شاد ثروة سمكية كبيرة، فإن حوض بحيرة شاد أحد المسطحات المائية الأكثر غنى بالأسماك في العالم، ولكن للأسف فقط الأجزاء الشرقية منها والدلتا تعتبر أماكن مهمة للصيد، فمياه بحيرة شاد لم تستغل بعد عدا نهر شاري الأسفل ونهر اللوقون الأسفل، فهذان النهران تم استغلالهما بشكل كبير، فمعظم الثروة السمكية تأتي منهما، وفي المناطق التي تحصل فيها الفيضانات وخصوصاً في موسم الأمطار الغزيرة تتوفر الأسماك في تلك المناطق المليئة بالمياه الفيضية لأنها تجد في تلك المناطق الفائضة ما تتغذى به، وبعد انتهاء موسم الأمطار وعندما تبدأ المناطق الفيضية في الانحسار فإن الأسماك المتواجدة في تلك المناطق تسعى للوصول التي المناطق التي تتوفر فيها المياه بشكل دائم كنهري شاري واللوقون، ويقيم الصيادون حواجز لصيد الأسماك الزاحفة.

وفي عام ١٩٨٦م قدر عدد الصيادين المحترفين بحوالي ٢٠,٠٠٠ شخص، أي الناس الذين يحترفون مهنة الصيد فقط.

استغلال الثروة الغابية:

الاعتماد على الغابات حرفة قديمة في شاد عرفها السكان منذ أقدم العصور، ونسبة لاختلاف الأقاليم المناخية بسبب اختلاف هطول الأمطار نجد أن الغابات تتركز في الجزء الجنوبي من جمهورية شاد، أي في إقليم المراعي الغنية و(الاستوائي) حيث يتميز هذا الإقليم عن غيره بغزارة الأمطار وكثرة الغابات والأشجار العالية، ومن أهم أشجار هذا الإقليم شجر المهوقن والتيك والآبنوس التي استفاد منها الإنسان واستغلها، وذلك بتحويلها إلى أخشاب استخدمها في الأثاثات المنزلية وكثير من المعدات، بالإضافة إلى ذلك تحويل تلك الأشجار إلى فحم يستفاد منه في الوقود، وهذه تعتبر فائدة سلبية أكثر من كونها إيجابية حيث تؤدي إلى انعدام الأشجار.

كما استفاد الإنسان من الغابات في جمع الثمار للأكل، ومن أهم الثمار الغابية ثمار الحميض - الدوم - النبق - والهجليج - والصمغ العربي، والرعاة ينتهزون فرصة مرورهم ببعض المناطق ليجمعوا بعض الثمار الغابية، كما استفاد الإنسان من الغابات في صيد الحيوانات للاستفادة من لحومها وجلودها، وفي كانم هناك الطحلب الأخضر ويسمى باللهجة المحلية (الميديه) يستعمل لتحضير الطبخ، ويعطي طعماً لذيذاً للطبخ.

المدن الشادية:

أي قرية لا تعتبر مدينة إذا لم يبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ شخص، وفي المدن عادة النشاطات الزراعية قليلة أو معدومة، لذلك لا يوجد بها مزارعون مما يعطيها طابع المدينة: اختلاف الأحياء أو تنوعها حسب نشاطاتها، نجد المخازن، ونجد كذلك البنوك والفنادق والمكاتب والمصانع.

وفي شاد هناك ٣٠ بلدة يتجاوز عدد سكانها ٥٠٠٠ شخص.

والسكان الذين يعيشون في المدن يقال لهم حضريون، وتشكل نسبة سكان المدن ٢١٪ من مجموع السكان الكلي، فسكان المدن في تزايد مستمر وسريع للأسباب الآتية:

الهجرة الريفية نحو المدن – الأحداث (الكوارث الطبيعية)

وفي شاد نجد أربع مدن آهلة بالسكان هي:

١)- إنجمينا العاصمة:

بلغ عدد سكانها عام ١٩٨٧م ٥٥٠,١٧٠ نسمة، والتزايد كان سريعاً ٣٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٥٤م، و٢٧٥,٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٥م.

وإنجمينا مدينة إدارية، فهي قلب الحياة السياسية العامة، تجمع الوزارات والخدمات الرسمية والسفارات والمنظمات الدولية والبنوك والبيوت التجارية.

وإنجمينا مدينة صناعية في الشمال والغرب مقر المؤسسات التعليمية إذْ نجد بها جامعة شاد والمدارس الثانوية والمتوسطة وكذلك مجموعة من المدارس العليا والمعاهد مثل: المعهد الوطني للإدارة والقانون، معهد المعلمين العالي، المعهد الوطني للأشغال العامة، المعهد الوطني للعلوم التربوية، المعهد الوطني للعلوم الإنسانية.

تتسع المدينة نحو الشرق ذلك لأنها محجوزة من قبل نهر شاري في الجنوب، وكذلك يحدها من الشمال الشرقي المطار الدولي، ومنذ عام ١٩٨٤م بدأت تنمو سريعاً من الجهة الأخرى من شاري نحو الجنوب فالحي الجديد (دقيل) توسع سريعاً.

وهناك بيوت حديثة يتم بناؤها ومؤسسات مثل المعهد الوطني للعلوم التربوية، ومعهد المعلمين العالي، والمعهد الوطني للتربية البدنية والرياضية، وهناك أعداد كثيرة من سيارات الأجرة تربط أحياء العاصمة وضواحيها لنقل السكان.

٢)- مدينة سار ثانية مدن جمهورية شاد، فهي عاصمة شاري الأوسط يبلغ عدد سكانها ١١٦,٥٠٠ نسمة، بينما كان في عام ١٩٦٨م لا يتجاوز هذا العدد ٣٦,٧٥٠ نسمة وبها بعض المصانع كمصنع النسيج ومصنع السكر ومصنع السجائر ومذبحة للحيوانات.

و(سار) مدينة إدارية تجارية، وكذلك عاصمة سياحية بفضل الفنادق التي ينزل فيها الصيادون القادمون والذاهبون إلى السلامات، ويوجد في سار

(معهد التعليم الفني الزراعي) الذي أنشئ عام ١٩٨١م، ويقوم بتخريج سائقي الآلات الزراعية، وكذلك تضم المعهد الوطني للبريد والاتصالات السلكية واللاسلكية أنشئ عام ١٩٨١ ويقوم بتخريج الفنيين للبريد والاتصال اللاسلكي.

٣)- مدينة مندو: عاصمة اللوقون الغربي، فهي مدينة نشطة يبلغ عدد سكانها حوالي ٩٥,٠٠٠ نسمة، بينما كانت تبلغ ٣٤,٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٨م، فهي تحتوي على عدد من المصانع مثل مصنع مشروبات اللوقون - سيكلو شاد - مصنع الزيت - مصنع الصابون.

٤)- مدينة أبشة: عاصمة قديمة لإمبراطورية وداي كان يبلغ عدد سكانها ٢٥,٥٥٠ نسمة في عام ١٩٦٨م، واليوم يبلغ عدد سكانها ٧٧,٤٠٠ نسمة بها القليل من المصانع بالمقارنة مع المدن الثلاث السابقة، وسوقها منتعش، والأنشطة الحرفية متطورة تصنع فيها الأحذية والحقائب الجلدية والفخار والسيوف والسكاكين، كما يوجد بها المصنع الوطني للزيوت.

بقية المدن:

يبلغ عددها ثمان مدن، ويبلغ تعداد سكانها ما بين ٢٣,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ نسمة، وهي: كميره - كيلو - بنقور - دوبا - باللا - لاي - بنوى - فيانقا، و١٧ مدينة يبلغ تعداد سكانها ما بين ٦٠٠٠ إلى ١٦,٠٠٠نسمة أغلبية تلك المدن المتوسطة هي مراكز إدارية في الجنوب، وأنشطتها مرتبطة بمصانع حلج القطن، وفي الوسط وفي الشمال المدن عبارة عن أسواق مثل ماو وواحة فايا لارجو.

المحافظة	المساحة بالكيلومتر[٢]	عدد السكان	الكثافة السكانية	العاصمة
اللوقون الغربي	٨٦٩٥كلم٢	٣٤٠٠٠٠	٤٠/كلم٢	مندو
مايو كيبي	٣٠١٠٥كلم٢	٨١٣٠٠٠	٢٧/ كلم٢	منقور
تانجلي	١٨٠٤٥كلم٢	٣٥٤٠٠٠	١٩,٥/كلم٢	لاي
شاري الأوسط	٤٥١٨٠كلم٢	٦١,٦٠٠	١٣,٦/كلم٢	سار
اللوقون الشرقي	٢٨٠٣٥كلم٢	٣٦٠,٠٠٠	١٢,٨/كلم٢	دوبا
شاري باغرمى	٩١٠٨٢.كلم٢	٨٠٥,٠٠٠	٩,٧/كلم٢	إنجمينا
مديرية البحيرة	٢٢,٣٢٠كلم٢	١٥٨,٠٠٠	٧,١/كلم٢	بول
وداي	٧٦,٢٤٠كلم٢	٤٠٣,٠٠٠	٥,٣/كلم٢	أبشة
بطحا	٨٨.٠٠٠كلم٢	٤١٢,٠٠٠	٤,٦/كلم٢	إتيا
بلتين	٤٦,٨٥٠	٢٠٦,٠٠٠	٤,٤/كلم٢	بلتين
قيرا	٥٨,٩٥٠كلم٢	٢٨٣,٠٠٠	٤,١/كلم٢	منقو
سلامات	٦٣,٠٠٠كلم٢	١٢٥,٠٠٠	٢/كلم٢	أم التيمان
كانم	١٤,٥٢٠كلم٢	٢٣٣,٠٠٠	٢/كلم٢	ماو
بركواليدي تبستي	٦٠٠,٣٥٠كلم٢	١٠٤,٠٠٠	٠,٢/كلم٢	فايا
المجموع	١,٢٨٤,٠٠٠كلم٢	٥,٢١٢,٠٠٠	٤,٠٦	

والمحافظة الواحدة تجمع بين اثنين إلى أربعة مراكز إدارية، وعدد المراكز يبلغ ٥١ مركزاً، والمراكز مقسمة إلى نقاط إدارية، وهناك شيوخ القبائل وسلطتهم معروفة لدى الحكومة، وهم مكلفون بجمع الضرائب في شاد.

وهنالك حوالي ٤٥٠ شيخ قبيلة، والمدن الكبرى يديرها عمدة البلدية.

تسمية شاد:

لم يكن اسم دولة (شاد) معروفاً بحدوده الطبيعية، بل لم يكن اسم شاد معروفاً اسماً لمملكة بعينها، أو قوم بأعينهم قبل الاستعمار الفرنسي، وإنما كانت توجد في البلاد ممالك وسلطنات إلى جانب سلطات صغيرة، ولذلك إذا أراد المرء أن يبحث عن (شاد) في المصادر العربية القديمة لم يجدها، وهذا أمر طبيعي، لأن المستعمرين وكانوا يبحثون عن مناطق يمتلكونها ويستغلون ثرواتها كانوا يحاولون الحصول على أكبر رقعة من الأرض، ولا يكلفون أنفسهم حتى عناء البحث عن اسمها القديم، بل يسمونها بالاسم الذي عرفوه عنها، أو عن منطقة مجاورة لها.

وكنت منذ أن حللت (شاداً) أسأل عن معنى اسمها، فكان معظم الذين سألتهم، وهم ليسوا من المختصين بمثل هذه الأمور، يقولون ويكادون يجمعون على ما يقولون، وهو أن اسمها هذا هو اسم عربي سببه أن اوائل المستكشفين من الأوربيين الذي مهدوا الطريق للمستعمرين سألوا جماعة من أهل البلد عن اسم الموضع، فظنوا أنهم يسألون عن مساحته، فقالوا: (شات)، أي واسع، وهي كلمة عربية الأصل أصلها: بعيد من الشتات، فظن المستكشفون الأوربيون أن هذا هو اسم المكان، وأنهم يقولون (شاد).

فأسموا البلاد كلها بهذا الاسم.

ولم يلق هذا القول قبولاً مني لكوني سمعت مثيلاً له في سبب عدة تسميات مثل غيني والسنغال، وطمعت في أن أجد من يعرفني بالاسم الصحيح، حتى عثرت عليه في بحث للأستاذ محمد صالح أيوب عميد كلية اللغة العربية في جامعة الملك فيصل في إنجمينا، وهو باحث مشهور في تاريخ هذه المنطقة، استفدت كثيراً من قراءة أبحاثه، ومن كتاب له يطبع أتحفني بنسخة مصورة منه، وقد رأيت نقل كلامه في هذه النقطة، ففيه القول الفصل قال:

من الملاحظ أن مصطلح ((شاد)) الذي يوصف به هذا المنخفض لم يظهر بشكل واضح إلا في القرن السادس عشر الميلادي ليشمل المنطقة المحيطة ببحيرة شاد، وكانت هذه المنطقة معروفة من قبل الرحالة والجغرافيين العرب منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وبالتحديد في عام

٤٦هـ (٦٦٦/٧ ميلادية) حينما وصلت طلائع عقبة بن نافع إلى ((كوار)).

وقد أشار إليها البكري في كتابه: ((المُغْرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب))، وأكد تأثرها - بالإسلام في الفترة نفسها التي ذكرها (كاني وسميت) سابقاً. وذكرها ابن بطوطة في رحلته المشهورة، وأشار إلى إسلام أهلها، وكانت معرفة الأوربيين بهذه المنطقة منطلقة من الدراسات العربية السابقة، وخاصة ما كتبه (ليون الإفريقي) في القرن السادس عشر.

وكذلك ما كتبه عن جزئها الشرقي الرحالة ((التونسي)) الذي زار وداي عام ١٨١٠م، وكتب رحلته المشهورة: ((رحلة إلى وداي))، والتي حوت أهم المعلومات عن هذه المنطقة وازدهار ثقافتها الإسلامية والعربية منذ تلك الفترة، وأول وصول للأوربيين بشكل مباشر إلى هذه المناطق كان عام (١٨٢٣م) حينما وصلت بعثة بريطانية إلى مركز هذا الحوض، وهو بحيرة شاد.

وأشهر قواد هذه الرحلة ((النقيب كلا برتون)) والدكتور ((أودني)) والماجور ((دنهام))، و((هلمان)). وتبعهم ((بارث)) (١٨٤٩-١٨٥٥) الذي قدم وصفاً مميزاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية حول حوض شاد، خاصة الأجزاء الشمالية والجنوبية التي كانت تضمها ممالك إسلامية أهمها كانم، وباجرمي. وكتب بعض المعلومات عن الأجزاء الشرقية من الحوض أهمها مملكة دار وداي الإسلامية رغم أنه لم يزرها في تلك الرحلة.

وقد أكملت رحلة ((ناشتيجال)) (١٨٧٣-١٨٧٤) بعض النقص في الرحلات الأوربية السابقة حيث شملت معظم أجزاء حوض شاد، حيث زار كلاً من كانم، وباجرمي، ودار ودَّاي، وكتب عن ذلك معلومات هامة، رغم أنها كانت في شكل يوميات سرية، إلا أن ما أغنى مادته هو اعتماده على ما كتبه عن دار ودَّاي ((التونسي)) وعن المناطق الأخرى ما كتبه الجغرافيون العرب.

وتوالى وصول الرحلات الكشفية الأوربية من مختلف الجنسيات إلى هذا الحوض في محاولاتهم المستمرة للاستيلاء عليه.

ويأخذ هذا الحوض اسمه من بحيرة شاد التي تشكل قمة مركزه

المائي، والتي ترى بعض المصادر أنها أخذت اسمها من نوع من الأسماك يسمى: ((شاد SHAD CHAD)) غني بالمواد الغذائية، ويكثر وجوده في هذه البحيرة. إلا أنه وبرغم أن هذا الاسم هو فعلاً اسم لنوع من الأسماك حسب ما ورد عند صاحب " المورد " منير البعلبكي. إلا أن كل ذلك لم يمنع الكتاب من الاختلاف حول رسم اسم هذه البحيرة، خاصة بعد أن أصبح اسماً لإحدى الدول المحيطة بالبحيرة، فنرى بعضهم يرسمه " تشاد "، وهو الرسم الشائع، وبعض أخر يرسمه " شاد "، وهو رسم متوسط الشيوع، ورأي ثالث يرسمه " إتشاد "، وهو الرسم الأقل انتشاراً.

هذا إذا استثنينا الرسوم القديمة التي وضعها " بارث " لرسم اسم هذه البحيرة بالعربية، وهما رسمان "ساد" بالسين، وثاد (بالثاء).

ومما يساعد عل الخروج من هذا التباين في الرسم المحاولة التي قام بها "لتنر ١٩٨٠ "، فهو يقول: إن حرف " SH ش " باللغة العربية الذي كتبه " بن فرتو" في بداية هذا الاسم من الصعب نطقه لا بالفرنسية ولا بالإنجليزية، وبالتالي حاول الكتاب رسمه على النحو التالي: /TSH/ وأحياناً " S " مثل "SBD"، وأحياناً " TH " مثل: THAD و THAD، وقد توصل " زلتنر، أخيراً إلى مقارنة بين اللغة العربية عند " ابن فرتو" ونطق لغة الكانوري في الأصوات الحالية، حيث وجد أن (S) التي يبدأ بها اسم " SAD" ينطقها الكانوريون في الوقت الحاضر " TSH" "TSHAD" وحرف " TH"، الذي يبدأ به " TSHAD" ينطق أيضاً عند الكانوريين " TSH".

والخلاصة التي توصل إليها " زلتنر" من هذا التحليل اللغوي أن مقاطع " S"، و" TH"، تعبر عنها " TSH"، وهي حرف واحد، وهي في النطق بين السين والثاء، وقريبة من الشين العربية في النهاية.

ومما يرجح سلامة هذا التحليل أن " بارث " قام برسم اسم " شاد "، بالعربية أربع مرات في رحلته، المجلد الثاني، وكانت على النحو التالي:

(١)- يكتب اسم البحيرة ((ساد TSAD)) (ص: ٥٩٦).

(٢)- وفي- بعض الأحيان " بحيرة ثاد، (ص: ٥٤٦)

(٣) - يسير بطرف النهر ثاد". (ص: ٦٢٦).

(٤) - وهو المكان المحيط بالماء من النهر ثاد الذي وراء الحشيش للرعي (ص: ٦٣/٤٦٠).

وانطلاقاً من هذه الاجتهادات أخذنا برسم اسم حوض شاد بالشين انسجاماً مع التحليل اللغوي السابق، بالإضافة إلى حقيقة أن السكان المحليين في شاد إلى اليوم لا ينطقون أبداً التاء التي تكتب عادة في بداية الرسم الشائع، ويستنكرون سماعها حينما ينطقها من يعتمد على الرسم المتداول.

انتهى كلامه.

أقول: آثرت أن أكتبها (شاد) بشين صحيحة فألف فدال، لما ذكر، ولكون حروف اللفظ كلها عربية مطابقة لوزن عربي صحيح.

الإسلام في شاد

شعب شاد شعب مسلم بأكثريته، إذ تبلغ نسبة المسلمين في سكانه ما بين ٨٥٪ و ٨٨٪.

وهو شعب مسلم عريق دخل الإسلام إلى بلاده منذ القرن الهجري الأول واستقر فيها، ثم صار يتوسع ويدخل إلى مواضع أخرى منها حتى أصبح بنواحيه كلها بلداً مسلماً ما عدا قطعة من جنوبه.

إلا أن الإسلام لم يدخل إلى جميع أنحاء شاد دخولاً واحداً، لا من حيث التاريخ، ولا من حيث الكثرة والاتساع، وذلك لكون البلاد نفسها لم تكن موحدة سياسياً ولا لغوياً في العصور القديمة مما يستدعي الدخول في بحوث طويلة، ومراجعة مراجع متعددة لمعرفة زمن دخول الإسلام إلى شاد لأول مرة، ثم انتشاره في أماكن عديدة من البلاد، وقد أهداني الأستاذ محمد صالح أيوب الذي سبق ذكره بحثاً مهماً له في كتاب لم يزل مخطوطاً ولم يطبع بعد عنوانه: (امتداد الحضارة الإسلامية نحو بحيرة شاد)، فوجدته بحثاً قيماً مستوفياً رجع كاتبه إلى مراجع عديدة، وضمنه ما وجده في مصادر متنوعة لا سيما وهو باحث كبير، وكاتب قدير يعمل الآن أستاذاً في جامعة الملك فيصل في إنجمينا، لذلك رأيت إثبات ما ورد فيه، ونسبته إليه لأنه صاحبه، وما صنعت إلا أن عرضت ملخصه على القراء الكرام ليستفيدوا منه.

١- تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد

يتفق الباحثون الأفارقة والأجانب في الوقت الحاضر على حقيقة أن أول انتشار للحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد كان في القرن السابع الميلادي: الأول الهجري.

فقد أكد (شابل) في كتابه: ((المجتمع الشادي)) أن انتشار الإسلام في شاد يرجع إلى عام ٦٦٦ – ٦٦٧م، ٤٦هـ، أي في القرن الأول الهجري عندما وصل عقبه بن نافع إلى جبال كوار حول بحيرة شاد.

وأكد الباحث الإفريقي (كاتي) هذه الحقيقة بقوله: ((يبدو أنه لم

يكن هناك اتصال ثقافي مباشر بين شمال إفريقيا وكانم – برنو إلا في بداية دخول الإسلام إلى منطقة السودان الأوسط، وأن أول وجود للمسلمين في كانم – برنو يرجع إلى سنة ٤٦هـ (٧/٦٦٦ ميلادية)، وهي السنة التي وصلت فيها طلائع المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كوار، وأن هذا الطريق كان يمثل قناة يتدفق من خلالها التأثير الإسلامي المبكر إلى كانم – برنو وإلى المناطق الأخرى في السودان الأوسط)).

وقد أورد الشاطر بصيلي في كتابه: ((تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط)) أن عقبة بن نافع دخل في عام ٦٦٦م في وسط الصحراء متجهاً إلى الجنوب، ووصل إلى كوار في التبستي الواقعة شمال منطقة حوض شاد، وعاد من هناك لأنه لم يجد خبيراً يرشده للطريق إلى الجنوب، وكانت المسافة التي تفصل بينه وبين طريق (السفانا) صغيرة نسبياً)).

ويشير الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه: ((المغرب الكبير)) أن عقبة بن نافع افتتح مواقع من بلاد السودان تلي ودان في سنة ٤٣هـ.

ويلخص لنا جميع هذه الآراء الدكتور الطيبي في مقال له بعنوان: ((وصول الإسلام وانتشاره في كانم – برنو بالسودان الأوسط)) فيقول: ((وخلاصة القول إن الإسلام بدأ وصوله إلى بلاد كانم منذ أن فتح العرب المسلمون فزان وكوار، ومنها أخذ الإسلام في الانتشار رويداً رويداً في السودان الأوسط عن طريق الجاليات من تجار المسلمين في البلاد، ثم وصل إلى كانم في منتصف القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي نفر من بني أمية فراراً من بطش العباسيين واستقروا في البلاد، كما ذكر البكري في كتابه المسالك والممالك)).

ويشير (ديرك لانجي) في مقال له بعنوان: ((ممالك شاد وشعوبها)) نشره في موسوعة تاريخ إفريقيا العام التي أصدرتها اليونسكو إلى أن ممالك كانم لها اتصال مبكر بالحضارة الإسلامية بدليل أن الرحالة والجغرافيين العرب عرفوها منذ وقت مبكر، وكانت هذه المملكة تسيطر على الجزء الأكبر من إقليم بحيرة شاد، ولهذا يسميها مملكة كانم العظيمة، رغم أنه يقر بوجود ممالك أخرى في هذا الإقليم.

وذكر القلقشدي مصادر عديدة كتبها الرحالة والجغرافيون العرب الأوائل فيها معلومات هامة عن أهل كانم وملكهم، وقد أكدت كلها بأنهم مسلمون، وسلطانهم من بيت قديم في الإسلام، وأن من أهل البلاد من أخذ قسطاً من التعليم، ونظر من الأدب نظرة النجوم فقال: إني سقيم، فلا يزال يداوي عليل فهمه، ويداوي جامح علمه، حتى تشرق عليه أشعتها، ويطرز بديباجه أمتعتها.

وقد أشار ابن بطوطة في رحلته إلى أن بلاد كانم أهلها مسلمون، ولهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب.

ورغم أن تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد هو كما قرره الباحثون يرجع إلى القرن الأول الهجري: السابع الميلادي، إلا أن هناك نظرية شائعة تقول بانتشارها في القرن الحادي عشر، وهذه النظرية معتمدة على معلومات عن ازدهار الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة، وبشكل خاص عندما أعلن ملك البلاد (حمي جمه عام ١٠٨٥م) أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي في مملكة كانم العظيمة التي كانت تضم مناطق شمال وشرق بحيرة شاد، وكانت تشرف كذلك على المنطقة الواقعة شرق البحيرة.

ولكن في الوقت الحاضر توفرت المعلومات عن تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية في التاريخ السابق حتى لدى الكتاب الغربيين (أشرت إلى بعضهم في بداية هذا الفصل)، وتأكدت نظرية انتشار الحضارة الإسلامية في القرن السابع الميلادي وهو الأول الهجري.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحضارة الإسلامية ازدهرت بشكل واضح في القرن الحادي عشر حينما صار الإسلام دين الدولة الكانمية الرسمي، فقام بعض الملوك بجهود عظيمة لتدعيم الحضارة الإسلامية، خاصة مساعيهم الجادة لتطبيق الشريعة الإسلامية، واتصالهم بالمراكز الهامة للحضارة الإسلامية في كل من القيروان والقاهرة وفاس، وأعطى هؤلاء الملوك مكانة كبيرة للعلم والعلماء، فحضروا بأنفسهم مجالس العلم، وذكروا في المحارم أو المراسيم التي كتبوها في القرن الحادي عشر كيفية تلقيهم للعلم، والعلماء الذين علموهم أصول الدين الإسلامي، وما أعطوه من امتيازات لهؤلاء العلماء.

وأدى هذا الدعم الذي قدمه ملوك كانم إلى انتشار الحضارة الإسلامية في جميع الأقاليم حول بحيرة شاد، مما استدعى إقامة ممالك إسلامية مستقلة مثل مملكة باجرمي، التي اتخذت من ماسينيا عاصمة لها، وازدهر فيها الإسلام والثقافة الإسلامية خصوصاً في القرن السادس عشر الميلادي، وهي في أغلب فتراتها تتبع لمملكة كانم الإسلامية.

وتكونت مملكة وداي التي وصلها الإسلام قبل ذلك، إلا أن التنجور الذين حكموا المنطقة لم يعتنوا بنشر الإسلام، فجاء جماعة من الجوامعة وغيرهم تعرف باسم القمر بقيادة زعيمهم وداعة، الذي ظل مدة من الزمن في طاعة ملوك التنجور، واستطاع حفيده عبد الكريم أن يقضي على حكم التنجور سنة ١٦١١م، وأن يؤسس دولة أو مملكة إسلامية عرفت باسم وداي نسبة إلى جده وداعة بدلاً من دارمابا كما كانت تعرف من قبل.

وتعرف أراضي دار وداي كذلك بدار صليح ذلك الرجل الصالح الذي جاء إلى جماعة أبو سنون – ملقا، ونشر الإسلام بين أفراد قبيلة أبو سنون، ثم جعلوه سلطاناً عليهم، واستطاع بواسطتهم أن ينشر الإسلام في وداي فاعتنقته قبائل منها: ملقا، ومدبا، ومدلا، وارتبطت جماعة السلطان صليح بهذه القبائل الأربع برباط المصاهرة، ومنها جميعاً نشأت الأسرة الحاكمة في وداي إلى اليوم.

ويؤكد مخطوط محلي أن الحكم في دار وداي جاء إلى يد المسلمين منذ أن حكم عرب البرقد، وهم الأسرة التاسعة في سلسلة الأسر التي حكمت هذه المنطقة، ثم وصل الحكم إلى جماعات بني هلبة بن مالك بن قيس، ثم حكمت قبائل الزغاوة، وكان اسم ملكهم برقو، وأصبح لهذا الاسم شهرة خاصة في السودان الشرقي للإشارة إلى دار وداي، ثم حكمت قبائل التنجر الذين انحدروا من شمال إفريقيا، وأخيراً جاء حكم عبد الكريم بن جامع ومن معه من شيوخ الإسلام الذين استمرت ذريتهم تحكم إلى اليوم في مملكة وداي.

والخلاصة أن تاريخ وصول الإسلام إلى بحيرة شاد يرجع إلى القرن السابع الميلادي (الأول الهجري)، ولكن نظراً للانتشار السلمي والطبيعي للحضارة الإسلامية في هذه المنطقة، فإن الإسلام لم يزدهر ويطبق بشكل

علني إلا في القرن الحادي عشر، وابتداء من هذا التاريخ أخذت الدولة الكانمية نفسها دور المبشر والداعي إلى الإسلام، فانتشر في مناطق واسعة في البلاد حيث شكل روافد هامة مثل مملكة باجرمي الإسلامية، ومملكة لوجون الإسلامية، ومملكة البلالا الإسلامية، ومملكة وداي الإسلامية بالإضافة إلى سلطنات صغيرة تتبع هذه الممالك حول بحيرة شاد.

٢- طبيعة انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد

تشير المصادر العلمية إلى أن الحضارة الإسلامية انتشرت إلى إفريقيا وراء الصحراء الكبرى عامة، بوسيلتي التبني الحر والإقناع، والدليل على ذلك أن انتشارها تطلب فترة طويلة من الزمن، فالصورة السلمية لانتشار الحضارة الإسلامية هي التي جعلتها تتسرب إلى قطاعات واسعة من الأرض الإفريقية، وفي فترات زمنية طويلة نسبياً، ولكنها متتالية ومتكررة وثابتة.

يقول (السير توماس أرنولد) في كتابة الدعوة إلى الإسلام: ((إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في القارة الإفريقية)).

ويضيف بأن انتشار الإسلام كان بجهود فردية: (رجال الدين، التجار المسلمون، المهاجرون المسلمون، ورجال الطرق الصوفية...إلخ)، فقد قام الإنسان المسلم بمهمة نشر دينه على عاتقه أينما حل حتى قالوا عنه: ((ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم مهما كان محباً للدنيا، أمر غريزي إلى حد ما)).

وقالوا عنه أيضاً: ((إن المسلم داعية بطبيعته، وهو يقوم بالدعوة بجهده وحسابه الخاصين)).

ونفس هذه الصورة لطبيعة انتشار الحضارة الإسلامية أقرّ بها (هو بيرد يشان) حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى عام ١٩٥٠م حيث يقول: ((إن انتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بربهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، وقد يسر انتشار الإسلام أنه دين الفطرة بطبيعته، سهل

التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف)).

وتشير الدراسات الإفريقية الحديثة إلى حقيقة اجتماعية مهمة في محاولتها لتوضيح الصورة الباهرة التي انتشرت بها الحضارة الإسلامية إلى حوض شاد، وذلك بانطلاقهم من معطيات محلية مهمة أساسها التأكيد بأن الإسلام قد اندمج في التركيبة الدينية لإفريقيا بشكل سلس، لأنه لم يكن يعتبر ديانة أجنبية أو غير متوافق مع نظر الأفارقة الدينية للعالم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المجتمع الإسلامي – وهذا هو الأهم – لم يطلب أثناء انتشار الإسلام في مراحله الأولى، السيطرة المطلقة لأفكاره الدينية، بل كان مؤهلاً للتوافق مع مختلف المعطيات العقائدية والعادات التقليدية التي لا تخالف الإسلام، هذا في أغلب الأحيان، بينما هناك علماء ونخبة من تلاميذهم تجتهد في إتباع الشريعة اتباعاً صارما.

ومن الملاحظ أن هذه الحرية التي يتيحها التفكير الإسلامي للجماعات الإفريقية للتلاؤم معه، هي نفسها الخاصية التي توجد في بعض المعتقدات الإفريقية خاصة التي ترتبط ارتباطاً كبيراً بالطبيعة، ومن المعروف أن الإسلام هو دين الفطرة.

وهذا ما أكده كاتب إفريقي أثناء حديثه عن محافظة الحضارة الإسلامية على المأثور الحي للمجتمعات الإفريقية حيث قال: ((إن خصائص الذاكرة الإفريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الإسلام الذي عم جانباً وافراً من بلدان الساحل، فحينما انتشر الإسلام لم يطمس التراث الإفريقي من تفكيره الخاص، بل أنه تلاءم مع النقل الإفريقي، كلما كان هذا النقل غير مخالف لمبادئه الأساسية، وكان التوافق بينهما وثيقاً إلى حد أنه صار أحياناً من الصعب أن يميز الإنسان بين أحد التراثين وبين الآخر)).

بل يشير هذا الكاتب في موقع آخر من بحثه إلى أن الحضارة الإسلامية كانت عوناً على الحفاظ على التراث الإفريقي عن طريق إيجاد وسيلة لحفظ هذا التراث، وهي اللغة العربية، فتعلم الأفارقة للغة العربية جعلهم يشرعون في استخدام تراث الجدود لنقل الإسلام وشرحه، فقامت مدارس عظمى إسلامية شفاهية محضة، تعلم الإسلام باللغة المحلية، ما عدا

القرآن والنصوص المستخدمة في أداء الصلاة.

وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الأساسية للتراث الإفريقي؛ بل بالعكس إنها استعلمت وشرحت على ضوء الوحي القرآني، وذلك لأن لكلا التراثين الرؤية المقدسة نفسها للعالم، ولهما تصور مشترك للإنسان والأسرة، بالإضافة إلى ذلك نجد في كلا التراثين الاهتمام عينه دائماً بذكر المصادر التعليمية، والنظام عينه للطرق التدريبية.

وهذه الطبيعة السلمية لانتشار الحضارة الإسلامية جعلتها تعتمد على الدعاة والمعلمين الذين وهبوا أنفسهم لنشرها بين السكان، وهؤلاء الدعاة لا يمثلون فئة مرسلة من هيئة إسلامية أو حكومة مركزية، بل كانوا يقومون بهذا العمل بدافع الواجب الديني، ورغبة منهم في كسب رضى المولى جل وعلا، لذا لم تكن هناك هيئة تشرف على نشاطهم، وكانوا يجوبون إفريقيا من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، زادهم الإيمان ورفيقهم القرآن، وعونهم الصبر الجميل على مكابدة المخاطر، وهدفهم نشر كلمة التوحيد بين تلك الأمم التي تعيش على الفطرة والصفاء.

وهؤلاء الدعاة كرسوا جهدهم لدعوة الناس إلى دين الإسلام وانقطعوا لتعليم الداخلين فيه قواعد الشرع، وهؤلاء كانوا يتوغلون داخل البلاد الوعرة، ويختلطون بالسكان، ويتزوجون ممن يعتنقون هذا الدين، ويقومون بتعليم الأطفال مبادئ العقيدة، وهؤلاء الدعاة يتوافد إليهم الأطفال المسلمون والوثنيون على السواء طلباً لهذا العلم الجديد، وبعد دراسة شيء من آيات القرآن الكريم يدخل كثير من الوثنيين في الإسلام، وهذه الظاهرة لها وجودها إلى اليوم في جنوب شاد وإفريقيا الوسطى.

ومن هؤلاء معلمون يجوبون البلاد الإفريقية بصحبة التجار المسلمين فمن العادات المتواترة لدى التجار المسلمين أن يصحبوا معهم عالماً أو فقيهاً يكون مرافقاً للقافلة يؤم أفرادها، ويعظهم في صلواتهم، ويبصرهم بأمور دينهم خلال رحلاتهم الطويلة، ويدعو لهم بالفلاح في تجارتهم، ورفع البلاء عنهم.

ومن هؤلاء الدعاة من وهب نفسه لهذه الدعوة، وانقطع وأوقف نفسه

لهذا العمل، فدعا الناس كباراً وصغاراً إلى الدخول في هذا الدين، وهؤلاء غالباً هم الذين أتيحت لهم الفرصة، فأتقنوا اللغات المحلية، وعرفوا دقائق العادات والتقاليد، مما ييسر لهم مهمتهم في اجتذاب الناس لهذا الدين.

ومنهم من لم يقم بتلك الدعوة جهاراً، ولكنه كان لا يفتأ يجذب إليه الأنصار بسبب سلوكه الحسن الرتيب، وتمسكه بالفضيلة، وقواعد دينه وخلقه القويم، وحسن معاملته ونظافته وثيابه الفضفاضة، وحركاته المنتظمة في القيام والركوع والسجود، كل ذلك يجذب إليه السكان ويحببه إليهم لأنهم يرون فيه سلوكاً غير معهود لهم، فيكونون بذلك مهيئين نفسياً إلى تقبل هذا الدين الجديد، وبالتالي حينما يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام يجيبون عن رغبة وطواعية خصوصاً عندما يشرح لهم الامتيازات التي يتمتع بها الداخل في هذا الدين، والتي منها أنه سيكون عضواً في المجتمع الإسلامي العريض، ويستطيع التنقل بين ذلك الوطن الفسيح، فيجد حسن المعاملة وكرم الضيافة والعيش السعيد، هذا إلى جانب ما يتحلى به المسلم من سمو عقلي وكمال خلقي، مما يدفع الأهالي الوثنيين إلى احترام معتنق الإسلام والثقة به.

ولم يكن الدعاة يمثلون فئة معينة، بل كان منهم التاجر الذي يتخذ من التجارة وسيلة لكسب العيش الحلال، ثم يقوم بأداء رسالته، فهو يبيع سلعة، وينشر ديناً، وباعتباره تاجراً يستطيع الاتصال بجميع الطبقات بحكم مهنته، وعن طريق هذا الاتصال يستطيع أن يدعو من يتوسم فيه قبول هذا الدين.

ويشير أحد الكتاب إلى أن العربي المسلم على الرغم من أن مهمته التي ارتحل إليها هي التجارة، إلا أنه كان ينشر الإسلام أينما رحل، وحيثما حل عن طريق الاتصال والاحتكاك بسكان البلاد، تساعده في ذلك طبيعة الإسلام التي تجعله قريباً من قلوب أهل إفريقيا، فهو قادر على تقديم الاحتياجات الروحية التي يطلبها الإفريقي.

وابتداء من القرن الأول الهجري حمل التجار المسلمون إلى بلاد حوض شاد في ركاب تجارتهم ديناً جديداً هو الإسلام، كما حملوا عادات وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة، ولم يكن هؤلاء التجار كلهم طلاب ربح ومال،

بل كان فيهم صفوة ممتازة من الفقهاء والعلماء طلبوا تجارة الدنيا والآخرة معاً، اختلطوا مع سكان القارة في الأسواق والمدن والقرى وبثوا فيهم الحضارة الإسلامية، وسعى بعض التجار من المسلمين وراء الرزق والمستوى الأفضل من العيش، وللحصول على موارد جديدة في تجارتهم، فوصلوا إلى قلب القارة الإفريقية، واستقر ببعضهم المقام بين أهل البلاد، وعملوا فيما يعمل فيه السكان من زراعة ورعي وتجارة، فكان لذلك الاختلاط أثر كبير في تحويل السكان إلى الإسلام، وإن الكثير من أولئك التجار تزوجوا من تلك القبائل حتى ظهر عنصر جديد من سكان وسط إفريقيا يتقن العربية، ويتحدثها بطلاقة إلى جانب اللهجات الإفريقية المحلية.

وكل الوسائل السلمية لطبيعة انتشار الحضارة الإسلامية حول حوض شاد تضافرت، وجعلت الإنسان الإفريقي يقوم بأكبر عملية يختبر من خلالها مكانته داخل الحضارة الإسلامية، ألا وهي الرحلة إلى الحج التي يمر فيها الحاج الإفريقي بالبلاد الإسلامية، ويجتمع في الحج بإخوانه المسلمين من شتى بقاع الدنيا.

والأهم من ذلك أنه – غالباً – ما يتحول الحاج الإفريقي إلى داعية إلى الإسلام، حينما يعود الحاج الإفريقي من بيت الله الحرام، بعد رحلة يكتسب خلالها العديد من الخبرات المادية أو الحياتية والروحية التي تضفي عليه شيئاً من الهيبة حسب العادات الإفريقية المرعية، وتعطيه درجة عالية بين قومه، وكان غالب الحجاج الأفارقة يتأخرون في رحلة الحج، ولا يعودون إلا بعد قضاء مدة طويلة، يقضون بعضاً منها في مجاورة الحرمين، يتلقون هذا الدين، وبعضاً من علوم الفقه وسيرة الرسول ﷺ وشيئاً من التوحيد والتفسير، فإذا صاروا قادرين على حمل الرسالة وتبليغها للناس أجازوهم ودعوا لهم بالتوفيق في نشر الإسلام في بلادهم، فهم أقدر الناس على إقناع بني جلدتهم ومقارعة الحجة بالحجة.

ونفس الدور الذي يقوم به علماء الإسلام في الحرمين في إعداد الحجاج الأفارقة يقوم به العلماء في السودان الشرقي؛ حيث يتلقى الحجاج الأفارقة الذين يمرون به براً العديد من الدروس والعادات والتقاليد، خاصة فيما يتعلق باكتساب اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وبرجوعهم إلى مناطقهم حول

حوض شاد يتولون التبشير والدعوة إلى الإسلام بلهجة وطريقة سودانية، يدعمهم في ذلك إخوانهم التجار الذين وفدوا إلى هذه المناطق منذ فترات طويلة، وشكلوا جالية كبيرة عرفت في التاريخ باسم ((الجلابة)) فهم يعتبرون الحاج الذي يتحدث اللهجة السودانية ويدعو إلى الإسلام جزءاً منهم، ويحيطونه برعايتهم.

ومن عادات السكان حول بحيرة شاد أنهم يكرمون الحجاج أعظم تكريم، ويستقبلهم الملوك والسلاطين ورؤساء القبائل بالبشر والترحاب ويتبرك بهم العامة، وأن هذه العادات ليست تاريخية؛ بل هي واقعية إلى اليوم، فالتاجر الذي يريد أن يكسب ثقة الناس يكثر من الحج، والسلطان الذي يريد أن يطاع عليه سبق اسمه بلقب الحاج، ورئيس الدولة الذي يطلب تأييد الناس له أن يلقب بلقب الحاج، فلقب الحاج إلى اليوم كفيل بجعل صاحبه يحاط بهالة من الهيبة والدرجة الرفيعة.

وبالإضافة إلى كل الوسائل السابقة التي ساهمت في انتشار الإسلام بصورة طبيعية وسلمية، فإن الحضارة الإسلامية تحتوي على ميزات تجذب إليها الأتباع، أهمها أن الداخل في إطارها لا يحتاج إلى جهد وعناء، فإن الإنسان الإفريقي بعد نطقه بالشهادتين يصير عضواً في المجتمع الإسلامي الكبير، وينعم بجميع الامتيازات التي يتمتع بها المسلم داخل الحضارة الإسلامية، فالحضارة الإسلامية ناسبت جميع الجماعات المختلفة حول حوض شاد بأمزجتهم وأذواقهم المتباينة، فبعض هذه الجماعات يرى في الحضارة الإسلامية نظاماً سياسياً يناسب تقاليدها، فتؤمن به ليشد أزرها في كفاحها ضد عدوها، وأخرى ترى فيه نظاماً اجتماعياً واقتصادياً يضمن لها حياة رغدة وأمناً واستقراراً فتعتنقه تحضراً ورقياً.

وحول هذه الملاحظة يقول توماس أرنولد: ينظر الوثنيون إلى الإسلام على أنه دليل على الترقي إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أسمى مما هم فيه، وأنه يرفع من شأن القبيلة عقلياً ومادياً، فالإسلام هو الدين الذي أمد السكان في إفريقيا بالعزة والكرامة والاعتماد على النفس، واحترام الذات عكس الأديان الأخرى، فبينما نرى الكنيسة المسيحية لا تساوي بين أتباعها من الإفريقيين وأتباعها من الأوروبيين، نجد الإسلام قد آخى بين سائر

الأجناس، وكفل لأتباعه الحرية والأمان حتى أصبح الإفريقيون ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، وإلى المسيحية على أنها دين البيض، لذا وجد الإسلام إقبالاً عظيماً بين الأمم الإفريقية.

فالحضارة الإسلامية اكتسبها الناس في حوض شاد عن طريق الإقناع الحر بطريق بسيطة تمثلت فيما يقوم به العلماء والدعاة من توضيح لأسس الحضارة الإسلامية، وما قام به التجار المسلمون من دعم تطبيقي لقواعد الحضارة الإسلامية في المسلك الاقتصادي ودعمهم للعلماء والدعاة، ودعم كل هذه الوسائل الإفريقي الحاج الذي إذا رجع إلى بلاده فهو يقوم بدور المبلغ عن مدى تسامح الحضارة الإسلامية، ومدى اتساع أراضي أتباع الدين الإسلامي، فيقوم بتبليغ ما تعلمه من تجارب عملية وعلمية إلى أهله، وكل ذلك كان في إطار عملية شاملة كانت كامنة في طبيعة الدين الإسلامي نفسه الذي هو أساس الحضارة الإسلامية، وهو البساطة واليسر فيه، فالإفريقي بطبيعته يكره التعقيد في جميع الأمور، وينحو طبيعياً نحو البساطة التي هي سمة أصيلة في تعاليم الإسلام، فالإنسان ينضم إلى حظيرة الحضارة الإسلامية بمجرد نطقه بالشهادتين ثم يستمر في تشرب مكونات الحضارة الإسلامية بالتدريج وبالإقناع الحر.

انتهى ما أردنا نقله من هذا البحث القيم، وقد حذفنا أرقام صفحات المراجع انسجاماً مع طبيعة هذا الكتاب.

الأقلية المسيحية:

مع ما ذكرناه من انتشار الإسلام في شاد، وكون الأغلبية من سكانه التي تقترب من ٩٠٪ هي من المسلمين، فإن الأقلية المسيحية فيه كانت تبذل جهوداً جبارة للتقليل من شأن الإسلام في حياة أهل شاد، وفي سياسة البلاد، وكانت تستند بل تعتمد على جهود الإرساليات التنصيرية التي كانت تعاضدها السلطات الاستعمارية.

وبعد رحيل الاستعمار لم يضعف جهدها في هذا الأمر بل تضاعف، ويتضح ذلك من أمور كثيرة منها ما سننقله هنا شاهداً على محاولتها إبعاد الصفة الإسلامية الرسمية عن الدولة الشادية في مذكرة قدمها التحالف

الإنجيلي للكنيسة الشادية كما كتب اسمه إلى المؤتمر الشادي المستقل الذي نتج عنه الوضع الحالي في البلاد.

ومن الغريب أنه كان من بين مطالب هذا التحالف الإنجيلي الشادي إعادة العلاقات مع دولة اليهود في فلسطين المسماة إسرائيل، وقد نقلنا نص المذكرة كما قدمت للمؤتمر مع ما فيها من اللحن، والعبارات غير الصحيحة، والتي لا يمكن إقرارها.

وهذا نص المذكرة:

التحالف الإنجيلي للكنيسة الشادية المركز الرئيسي: إنجمينا مذكرة بخصوص علمانية الدولة الشادية موجهة

للمؤتمر الوطني المستقل

لقد تم الاعتراف بالتحالف الإنجيلي لكنيسة شاد من ٢٥ نوفمبر ١٩٩١م، وذلك بأمر رقم ٢٧ صادر عن وزارة الداخلية، وأن هذه المؤسسة هي إحدى الجمعيات الثقافية، وتتمتع بشخصية اعتبارية وقانونية، وأنها تدير ٤٠٠ معبد موزعة في الجزء الأكبر من البلاد، بالرغم من أنها هامة من بعض المؤسسات الموجودة، فإنه لم يتم تمثيل التحالف الإنجيلي لكنيسة شاد في المؤتمر الوطني المستقل، وذلك بالرغم من المحاولات العديدة، إن التحالف الإنجيلي لكنيسة شاد كما يرمز اسمه يهدف إلى نشر إنجيل المسيح عبر البلاد.

وعياً منه بأن السلام والعفو بين مختلف الأديان هي التي يمكنها وحدها أن تضمن وحدة شاد، وتمكنها من التقرب بقوة نحو الإله القدير، فإن التحالف الإنجيلي لكنيسة شاد يعمل من أجل احترام حرية الديانة (حرية اختيار الممارسة).

إن هذه الوثيقة ليست موجهة للمناقشة حيث تسيطر عليها العواطف دون العقل، أن التحالف الإنجيلي يريد هنا أن يستفهم الحكام حول مسألة جوهرية، إن التوازن الضعيف، وقبول الخلاف مع الآخر اللذين كانا موجودين في مختلف الأديان أصبحتا اليوم مهددتين من قبل التطرف الديني القادم من كل حدب وصوب.

على الدولة الجديدة التي تتمخض من هذا المؤتمر أن تضمن الشكل العلماني للدولة، إن شاد شأنها شأن جميع الدول التي خرجت من الاستعمار في الستينات تعتبر مجمعاً لكيانات مختلفة، وإن هذه الكيانات يمكن حصرها إلى منطقتين جغرافيتين مميزتين: الشمال ويقطنها أساساً شعب

مسلم أو معرب، والجنوب ويقطنها شعب وثني ومسيحي، فإذا كان الشمال بحكم بعض تشابهه يتمتع ببعض تلاحم شعبه وبالتبادل الثقافي، فإن الجنوب قبل مجيء الفرنسيين كان يعيش في الفوضى، لقد كان السكان على حالتهم الطبيعية يمارسون الوثنية، ولا يقيمون أية علاقة مع الشماليين سوى قبائل الريزو والباقيرمي الذين يصلون إلى هناك للبحث عن العبيد.

فإن الاستعمار الفرنسي هو الذي نظم الجنوب على شكل وحدات إدارية، وذلك لإشباع غرض الغازي، وقد حمل هذا المستعمر الدين المسيحي معه في عام ١٩٢٥م، ولكنه لم يحرم لهؤلاء ممارسة الوثنية، ولهذا السبب كانت تلك المنطقة الجنوبية في بادئ أمرها تابعة لأراضي أوبانقي شاري حيث سكانها يتميزون بنفس السمات الجسمانية، إلا أنه في عام ١٩٣٥م قامت فرنسا بعزل اللوغون الأكبر نهائياً، ويمتد هذا اللوغون من باياكوم إلى ليري، ومن بانقورات الأوسط (الشاري الأوسط حالياً).

تلك المنطقة الوثنية والمسيحية وذلك بهدف ضمها إلى المنطقة الجنوبية للإقليم الفرنسي في شاد، والتي أصبحت في الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٨م جمهورية شاد، حيث يعيش بعد ذلك جنباً بجنب المسلمون والمسيحيون والوثنيون، وبذلك أصبحت شكل الدولة العلمانية أمر محتوم لا نقاش فيه، لقد أعلنت ذلك النصوص الرسمية للدولة، وقد اعترف الجميع بأن علمانية الدولة الشادية غير قابلة للتغيير وثابتة، وحتى بالرغم من الأحداث الشديدة التي هزت شاد منذ عام ١٩٧٩م حتى ١٩٨٤م لم يتم نقض هذا القرار، إن بلادنا شاد بلاد التناقض لا يمكنها أن تعيش إلا على اختلاف تنوعها الثقافي والروحي، ولكن مع الأسف فإن الحقيقة على خلاف ذلك، يظهر لنا بأنه يوجد في شاد دين واحد فقط للدولة، فإن الأعيان من هذا الدين بل الأتباع العاديون لهذا الدين يتمتعون بمراعاة وامتيازات أخرى من قبل الحكومة بينما تبقى الأديان الأخرى معزولة عن هذه المراعاة، تتكفل الدولة بدفع أجور سفرهم، وتدفع نثريات المهمات الوزارية، وتستخرج الوثائق الرسمية للدولة مثل الجوازات الدبلوماسية وجوازات المهمة، بأي حجة تقوم الدولة

بتحمل نفقات الحجاج حيث إن الدولة تكفل لهم النقل بينما كان من الواجب أن يدفعوا هم أجور سفرهم؟

هل الحاج متأكد بأنه أدى واجبه الديني الذي يجب أن يكون مكفراً للذنوب ومجهود فردياً؟

كما أنه توجد إدارة للشئون الدينية بوزارة الداخلية، وأن واجبها هو إدارة شؤون جميع الأديان، ولكنها في الحقيقة لا تهتم إلا بدين واحد فقط لماذا هذا التمييز؟

لقد تم إعلان حرية الأديان كحق أساسي ولا رجعة فيه في شاد.

يمكن لكل واحد أن يؤسس كنيسته أو صومعته أو مسجده في أي مكان من البلاد، ولكنه إذا أمكن للإسلام أن يستقر في أي مكان شاء في شاد وبكل اطمئنان حتى في المناطق المكتظة بالمسيحيين، فلا يمكن أن يكون الحال لبعض الأديان الذين ضربوا بقرار المنع في بعض المناطق ذات الأغلبية المسلمة، وذلك بتواطؤ بعض الإداريين المحليين.

والأخطر من ذلك أنه منذ فترة من الوقت بدأنا نشاهد تصاعداً للتطرف الديني تحت أنظار ومباركة السلطة الحاكمة، وهذا التطرف يهدد قواعد المجتمع الشادي، تعتبر شاد دولة مركبة، فإذا غاب جزء منها يضيع الكل، وان كل المبنى هو الذي ينهار.

إن التنوع الديني في شاد هو عنصر للغناء، ولا يمكن أن يعتبر مصدراً للإبعاد، على المتطرفين الذين يستعملون الوسائل الأكثر قرباً من الخراب الديني، والذين يريدون أن يفرضوا أنفسهم على الشعب الشادي، عليهم أن يعرفوا بأن شاد لا يمكن أن تصبح دولة إسلامية أو مسيحية، إن التفكير في عكس ذلك يؤدي حتماً إلى تجزئة البلاد.

إن الإنجيل والقرآن يدعوان معاً إلى البحث عن الله، كل على حسب معتقداته وذكائه وحكمته وضميره، ولا يمكن لأحد أن يفرض سلطته

على الآخرين، وهذا يعني أنه على كل واحد أن يعترف بفوارق الآخرين، وأن يقبلهم كبشر متحلين بالعقل ومرتبطين بكرامتهم ارتباطاً عميقاً لأنهم أيضاً خلقوا على صورة الإله.

إن الأب المقدس الذي نعبده هو إله المحبة والسلام والعدل والعفو والمواساة، يمكن خداع الرجال ولكن لا يمكن خداع الإله، والكذب باسم الإله هو أسوأ الذنوب.

إنه ليس من نوايا التحالف الإنجيلي للكنيسة الشادية أن تتنازع أو أن ترمي بلعنة على دين آخر، ولكنها تود فقط لفت انتباه حكام المستقل عن خطر التطرف الديني الذي يجول في البلاد، لقد أوشكت الكارثة التي لا يمكن إصلاحها أن تقع إبان الاحتفال بمولد المسيح المخلص لولا تيقظ رجال الأمن، إن هذا الحدث ما هو سوى الوجه الظاهر للجبل الجليدي العائم الذي يوشك أن يذهب بشاد إذا لم تتدخل الدولة.

نظراً لما سبق واعتباراً بالصفة العلمانية لدولة شاد والتي تم إعلانها منذ الاستقلال بواسطة النصوص التأسيسية، اعتباراً بأن عدم التسامح الديني هو السبب الأساسي للمآسي التي يتألم منها شاد في هذه السنوات الأخيرة اعتباراً بأن تعدد العقائد لا يمكن أن يكون عائقاً لتقرب المؤمنين في بحثهم عن الإله.

عزماً منا بالدفاع عن الإنجيل وسيدنا المسيح واحترام حرية الدين لجميع المواطنين، فإن التحالف الإنجيلي للكنيسة يوصى بما يلي:

١- إعادة تأكيد علمانية الدولة واحترامها

٢- انسحاب شاد من منظمة المؤتمر الإسلامي، وذلك لكي يصبح وضعها مطابقاً للصفة العلمانية للدولة.

٣- إعادة العلاقات الدبلوماسية مع دولة إسرائيل.

٤- إلغاء الامتيازات التي تعطيها الدولة لبعض الأعيان الدينيين وإلا

فلتعممها إلى جميع رجال الدين بدون تمييز.

٥- إلغاء إدارة الشؤون الدينية أو تعديل مسارها.

٦- إعادة اعتماد المساعدات المالية إلى جميع الطوائف الدينية بدون تمييز.

٧- إدخال التعليم المسيحي في المدارس والمعاهد والكليات، وذلك من أجل تهذيب الشباب الشادي.

٨- إدانة جميع المتطرفين الدينيين، وملاحقة الفاعلين على غرار ما تفعله الجزائر وتونس ومصر وغيرها.

حرر في إنجمينايوم ١٧ فبراير ١٩٩٣م.

التحالف الإنجيلي للكنيسة الشادية.

المجلس الوطني.

٧ توقيعات لأعضاء المجلس الوطني.



اليوميات



يوم الخميس ٢٩ ذي القعدة ١٤١٣هـ ـ ٢٠ مايو ١٩٩٣م

من جدة إلى إنجمينا:

وصلت إلى مكاتب الترحيل للشركات الأجنبية في مطار الملك عبد العزيز الدولي في جدة في الثالثة والنصف من قبل الفجر، وقد بقيت على موعد قيام الطائرة ساعة ونصف، فلم نجد في مكتب الترحيل للخطوط الإفريقية (أيرإفريك) التي سأسافر معها أحداً، وذهب مرافقي يبحث عنهم فوجدهم في مكتب داخلي خاص بهم مثل سائر الشركات في المطار فقالوا له: إننا فرغنا من الركاب لأن من عادتهم أن يجعلوا للترحيل وقتاً واسعاً حذراً من تأخر بعض الركاب، وهذه الرحلة قد انتهوا من ترحيل ركابها، فتركوا مكتب الترحيل وجلسوا في المكتب الداخلي.

ولكن الموظف وهو باكستاني الجنسية جاء مع أحد الحمالين بعد أن تكلم بالهاتف مع المسؤولين عن ترحيل الأمتعة لهذه الرحلة فوزن أمتعتي وقطع التذكرة، وهذا عجيب أن يقفلوا مكاتب الترحيل قبل ساعة ونصف من موعد قيام الطائرة على حين أن أكثر الشركات العالمية لا تفتح إلا بعد أن يكون قد بقي على موعد المغادرة ساعة واحدة فقط، وقد حدث لي هذا مرة في البرازيل عندما كنت مسافراً من (ريودي جانيرو) المدينة الكبيرة إلى العاصمة برازيليا، ووصلت قبل موعد المغادرة بساعة وربع فاستمهلتني الموظفة وقالت: إننا لا نبدأ بإجراءات الترحيل إلا قبل موعد قيام الطائرة بساعة واحدة، وكنت أول من وصل إليها مع أن الطائرة التي سافرت فيها هي طائرة ضخمة من طراز د، س، ١٠ التي تحمل ٣١٠ ركاب، ولكنهم أنجزوا إجراءات سفر الركاب في هذا الموعد، وذلك لكون الترحيل يتم من أكثر من مكتب، وليس عندهم في البرازيل مشكلات سياسية أو غيرها من المعوقات حتى إنهم في مثل هذه الرحلات الداخلية لا يفتشون حقائب المسافرين التي يحملونها بأيديهم من أجل الأمن كما يفعل غيرهم من أرباب الطائرات.

وفي قاعة المغادرة رأيت عدداً كبيراً من الركاب يصلون الفجر وكنت قد توضأت قبل ذلك فصليت معهم أمام مقصف القاعة وهو المنصة العالية

التي توضع عليها الأشربة والأطعمة الخفيفة التي تباع هنا، وذلك أنه لا يوجد في القاعة مكان مخصص محجوز بحواجز للصلاة، فذكرت قاعة المغادرة في مطار كوالا لامبور الدولي، وفيها مسجد صغير هو غرفة كبيرة لها باب يغلق، وفوقها قبة صغيرة وقد كتب عليها بلغتهم (سوراو) بمعنى مسجد صغير وبالإنكليزية (مصلى)، فيدخلها المصلي ويغلق الباب فلا يشعر إلا بأنه في مسجد من المساجد.

أما في مطارنا مطار جدة الدولي فإن موضع الصلاة ليس محجوزاً ولا محوزاً وليس فيه فراش؛ بل هو بلاط يعمل عليه العمال الأجانب الذين في المقصف وهم من الآسيويين وفيهم نسبة من غير المسلمين.

وعلى أية حال فإن هذا من النواقص في هذه القاعة الجميلة التي نرجو أن يتم تلافيها في المستقبل، فنحن أحق من غيرنا بالعناية بأماكن الصلاة.

ركبنا حافلة من القاعة إلى الطائرة، فرأيتهم كتبوا على مقدمها باللغتين العربية والإنكليزية: (درجة أولى)، ولكنني وجدت مقاعدها مليئة بركاب الدرجة السياحية فركبت في المؤخرة، ولم يكلف أحد نفسه بتصحيح ذلك.

دخلنا الطائرة وهي (أير باص)من طائرات شركة أير أفريكا، فوجدت أن الأولى فيها كالسياحية مقاعدها متقاربة إلا الصف الأول الذي أجلسوني فيه، فأمامه مكان متسع، ولكن ليس للكرسي لسان كهربائي يجعله بلمسة من أصبعك يتمدد خارجاً من تحت كرسيك فيكون مع الكرسي لك كالسرير كما هي العادة في الدرجة الأولى في المسافات الطويلة، وربما كان ذلك بسبب كون الطائرة إنما جاءت إلى جدة تنقل حجاجاً إفريقيين، وعادة الحجاج أن يكونوا من سائر الناس الذين يركبون بالدرجات السياحية.

لم يكن معي في الدرجة الأولى إلا موظف يبدو عربياً من أهل شمال إفريقية، وراكب إفريقي مظهره يدل على أنه من العاملين في الشركة.

وحتى مقاعد هذه الدرجة كلها كالسياحية قصيرة الأيدي غير جيدة.

وجاءت المضيفة بالصحف وسألتها: أفيها عربي، أو عندها مجلة أو

صحيفة عربية؟ فقالت: لا ، مع أنها قد قامت من بلد عربي عريق هو المملكة.

وقد أعلن مكبر الطائرة بالفرنسية ثم الإنكليزية أن السفر إلى إنجمينا عاصمة شاد سيستغرق أربع ساعات إلا ربعاً من الطيران المباشر.

وكانت لوحة تلفازية في مقدمة الطائرة تعرض مادة مسجلة عن الإقلاع والهبوط بالفرنسية فالإنكليزية جملة جملة.

وكل العاملين في الطائرة إفريقيون إلا الطيار فهو ذو مظهر أوروبي.

أقلعت الطائرة في الخامسة والثلث فجراً متأخرة عن موعدها المحدد لقيامها في الأصل بعشرين دقيقة، وهذا لا يعده كثير من الناس تأخيراً يستحق الذكر، لأنه قلَّ من الطائرات من تقلع في الموعد المحدد في الأصل لقيامها، وقد غادرنا جدة ولا يزال الظلام على الأرض مع أن غرة الفجر الوضاءة قد انتشرت في الأفق، ولكن منظر جدة من الطائرة وهي تسبح في الأضواء كان رائعاً، وبخاصة لمن ينظر إليها من جهة البحر.

وصارت الطائرة تطير فوق البحر الأحمر غير أن الظلام لم يمكنا من رؤية أي شيء فيه، وكنت أمني النفس بأن أرى الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر بعد مضي مدة الطيران النفاث المعتادة لاجتيازه وهي ربع ساعة.

ومع ذلك فإن المضيفة بادرت بإغلاق جميع نوافذ الطائرة، وكأنما هم يريدون أن يعرضوا شريطاً سينمائياً فيها مع أنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما لكي يتيحوا النوم لمن يريد أن ينعم بإغفاءة بعد سهر الليل في الاستعداد للسفر.

وقد فتحت النافذة فلم أر شيئاً لأننا متجهون جهة الغرب حيث نسابق النهار وقد سبقنا بعد ذلك.

وقد نعس الجميع قليلاً لأن طيران الطائرة كان هادئاً رتيباً يساعد على النوم.

ومن الطريف في عدم إلقائهم البال لبعض التوافه أن المضيفة جاءت لي بعصير برتقال غير جيد فلم أشربه وانتظرت أن تبعده فلم تفعل ولم تأت إلي وهي تعمل في هذه الدرجة مع مضيف آخر مع أن الركاب فيها هم ثلاثة فقط، وهذا أمر جربته من مضيفات الدرجة الأولى في هذه الشركة فيما

بعد، فهن لا يقمن وزناً لمثل هذه الأمور، وإن كان المرء يحس بأنهن يشعرن بواجبهن في خدمة الركاب.

وبعد أن بقيت على الوصول ساعة ونصف أعلنوا من المكبر بأنهم سوف يقدمون طعام الإفطار، وكان معظم الركاب قد أدركهم النعاس، وقد جاؤوا بالطعام معتاداً بل أقل من المعتاد في الدرجة السياحية، وربما كانوا لم يهتموا بركاب الأولى لقلتهم، فهو بيض مخلوط (أملت) وخبزة وفاكهة معلبة ثم شاي.

العرض المتلفز:

أجمل ما عملوه أن عرضوا شريطاً سينمائياً من لوحة صغيرة في الطائرة يتضمن مناظر عن جمهورية (شاد) التي نحن متجهون إليها، وهو بالفرنسية، إلا أنني استمتعت بما عرضوه من صور لمدينة (إنجمينا) ونماذج من بيوت الطين والقش في (شاد)، ووسط المدينة بما فيها من أبنية حديثة وأبنية إسمنتية ذات طابع إسلامي يتمثل في الأقواس العربية التي أظهروها في أسواق البيع والشراء، وقد ركزوا الصورة على جامع الملك فيصل الكبير في إنجميناي عدة لوحات، ومن أوضحها صورة تمثل الجامع مع منارتيه الشامختين.

صباح الصحراء:

بعد الإغفاءة اللذيذة التي قطعها علينا صوت المكبر أزحت ستارة النافذة وقد ارتفعت الشمس على الأرض، واتضح ما عليها، فإذا بها الصحراء التي تشبه صحراءنا من الطائرة لولا وجود بعض أشجار الطلح غير الملتف في الوديان، وقد استمتعت بالمنظر لولا غيمات صحراوية نحيفة القوام ظلت تغلق المنظر بستارة شفافة ما لبثت أن اضمحلت كما يضمحل السراب في اليباب، فسفرت الصحراء عن طلعتها الغبراء، التي لا يكدر غبرتها إلا شجيرات من شجر الصحراء الكبيرة في بعض الأماكن.

وذكرت بهذه المناسبة المناطق الصحراوية التي رأيتها في إفريقية من صحراء مصر قرب قناة السويس حتى شواطئ الأطلسي في موريتانيا، وحتى

ما بعد تلك الشواطئ فإن عدداً من الصحاري قد رأيته من ذلك (الرأس الأخضر) الذي هو ليس رأساً وليس أخضر، وإنما هو قطعة شاردة من الصحراء في مياه البحر المحيط الأعظم كما كان أسلافنا العرب يسمونه، وهو المحيط الأطلسي عندنا الآن.

وأما الصحاري التي رأيتها في العالم فإن امتدادها لا يقتصر على مثل تلك المسافة، وإنما هي أعظم، من ذلك صحراء أستراليا، بل قارة أستراليا التي وسطها صحراء غبراء لا تكاد تفترق عن صحرائنا بشيء، وأما الأرض الخصبة من القارة فإنها على شكل حزام يلف القارة من جميع جهاتها يأتي بعده حزام من المراعي الصالحة لتربية الماشية مثل المناطق الخصبة.

ومن ذلك صحراء قوبي في الصين ومنغوليا، وصحراء أخرى معرفة الناس بها على قدر مساحتها الصغيرة، وهي صحراء كلاهاري في الجنوب الغربي من إفريقية، وقد رأيتها في بتسوانا وناميبيا.

وفي هذه الصحراء الشادية الإفريقية لا يرى المرء أي أثر للعمارة من بناء أو زراعة، وإنما فيها مسايل من مسايل المياه الجافة كالوديان الصحراوية عندنا.

ولاحظت أنه كلما ازداد قرب الطائرة من إنجمينا ازدادت كثافة الأشجار الصحراوية في الأرض، والشيء الجميل فيها هو لونها، فهو كما يبدو من الطائرة أبيض يميل إلى الحمرة، والسباخ فيها قليلة بخلاف كثير من الصحاري التي منها صحراء أستراليا، وصحراء (قره قوم) في تركمانستان حيث تكثر السباخ - جمع سبخة - في الأرض، وهي الأماكن الملحية في الأرض يبدو لونها كلون الرماد، وأحياناً يكون بلون المداد.

ولاحظنا أن بعض المسايل والوديان فيها ماء قليل غير متصل فقلت: إنه ربما كان في جوف هذه الصحراء مقادير كبيرة من المياه لا تحتاج في استخراجها والانتفاع بها إلا لبعض الإمكانات التي قد توجد مثل المال اللازم لشراء المعدات والآلات، والأسواق اللازمة لتصريف الإنتاج، ثم ذكرت أن هذه البلاد الشادية فيها نهران هما نهر شاري ونهر (لاقون) الذي يجتمع بنهر شاري عند العاصمة إنجمينا، فيصبحان نهراً واحداً هو (شاري) الذي يذهب

بخطى سريعة، أو لنقل بانسياب حثيث إلى بحيرة (شاد) حيث ينتهي عندها به المطاف، فتبخر منه الشمس نصفه أو قريباً من نصفه، ويختلس الجيران من نيجيريين وكميرونيين جزءاً كبيراً منه، ويبقى بعد ذلك لأهل شاد ما لا يستطيعون الانتفاع إلا ببعضه بسبب قلة الإمكانات وانعدام الآلات.

قرى الصحراء:

بدأت الطائرة التدني فتبينت قرية في الصحراء لا أشك في أنني لم أر مثيلتها من قبل رغم وجودها، لأن بيوتها من الطين الذي حولها، فهي بلون الأرض، وليس حولها عود أخضر مزروع، فهي مثل قرانا في نجد قديماً تبنى من طين الأرض، وتسقف بأشجارها القريبة، ولكن الشيء الذي لم أفهمه عدم وجود أية خضرة فيها، فنحن كانت في بعض القرى عندنا أعداد من النخل أو من شجر الأثل.

هذه إنجمينا:

بدت أطراف إنجمينا من الطائرة بيوتاً طينية منشورة بل مبعثرة في مساحة واسعة لأنها كلها من طابق واحد، وظهرت أحياء المدينة المتصلة ذات سقوف من الصفيح، ووسط المدينة ذو بيوت إسمنتية تقل فيها الأبنية ذات الطوابق المتعددة، وأظهر ما فيها جامع الملك فيصل بمساحته المتسعة ومنارتيه الشامختين، وظهرت غالب شوارع المدنية خالية من الزفت.

وظهر نهر شاري تظلل بعض أطرافه أشجار خضر وإن كانت أكثر شواطئه خالية من الحقول النضرة المتصلة.

في مطار إنجمينا:

هبطت الطائرة في التاسعة والنصف بتوقيت جدة، ويساوي السابعة والنصف بتوقيت شاد الذي يتأخر ساعتين عن توقيت جدة بعد طيران استمر أربع ساعات إلا ربعاً.

وقد اتضحت طبيعة الأرض عندما وصلناها أرضاً تجللها أعشاب هامدة صفراء، فيها أشجار متفرقة من أشجار الطلح الأخضر، وذلك أن هذا

الفصل الذي نحن فيه هو آخر فصل الجفاف، أو لنقل إنه أكثر أوقات السنة جفافاً، لأنه بعد فترة جفاف تبدأ بعدها فترة الأمطار التي تبدأ من شهر يونيو أو أواخر مايو الذي نحن فيه، وتستمر لأكثر من خمسة أشهر، وليس معنى ذلك أن الأمطار تكون متصلة في هذه الفترة وإنما يعني ذلك أنها تقع فيها بكثرة.

وهذا هو الذي يحصل في مدينة إنجمينا وما حولها، وإلا فإن الجنوب من شاد يشهد فترة مطيرة تستمر ثمانية أشهر في السنة، وشمال شاد صحراوي لا يقع فيه المطر إلا بمقادير قليلة في فصل الشتاء.

والغريب أن القوم يقولون إنهم الآن على وشك أن يودعوا الصيف ويدخلوا الخريف، وذلك لكون الحر يخف عند أول نزول المطر ثم يزول عند استمرار نزوله حتى يصبح الجو لطيفاً منعشاً فيه رطوبة حانية.

قالوا: وينبت العشب بعد المطر ويزدهر المرعى.

وهذا خلاف ما عليه الحال عندنا بطبيعة الحال حيث لا يبدأ فصل الخريف عندنا إلا في ٧ من شهر سبتمبر الذي هو شديد الحر أيضاً، وإنما يبدأ الخريف الفعلي في شهر أكتوبر، فالخريف عندنا انكسار حدة الحر وهو عندهم بداية المطر.

ومع ذلك فإن منطقة العاصمة إنجمينا تعتبر عندهم من بلاد الساحل الاصطلاحي الذي يراد به ساحل الصحراء المعشب، وليس ساحل البحر.

وهو منطقة شبه صحراوية إلا أنها حافلة بالمرعى الجيد من أشجار الصحراء وأعشابها التي تنمو، بل تطول وتجود في فصل المطر.

ومن الأدلة على صحراويتها أن النبات الأخضر الوحيد الذي يرى حول المدارج هو شجر العشر المونق المنظر غير أنه مثل الرجل ذي المنظر الحسن الذي ليس وراءه شيء، أو هو كخضراء الدِّمن التي تزدهر فجأة ثم تموت فجأة لأن تربتها غير صالحة.

وبعد أشجار العشر هذه التي لا يأكلها شيء من الحيوان، تأتي أشجار متفرقة من أشجار الطلح، وفي الجهة التي تلي المدينة من المطار توجد أشجار خضر كثيرة مختلفة الأنواع، من أكثرها خضرة وأكثفها أغصاناً وأوراقاً

أشجار النيم الذي يزدهر في البلاد المعروفة ببلاد الساحل: ساحل الصحراء من جهة الجنوب، وقد جربنا غراسه في بلادنا فنجح في مكة المكرمة وجدة.

ومدرج المطار جيد الزفلتة.

وفي المطار عدد من الطائرات المروحية أكثرها صغير، ووجودها في هذه الكثافة فيه يدل على أمرين: أحدهما أن البلاد واسعة الأرجاء، متسعة النواحي. والثاني أنها ليست بذات طرق إسفلتية كثيرة قد يستغني الناس بالسير عليها عن السفر بالطائرات، وقد كتب على بعض هذه الطائرات عبارة: (جمهورية شاد).

وجدت في الاستقبال عند سلم الطائرة عدداً من الإخوة المستقبلين الرسميين منهم:

١- السيد / طاهر قاسى - المستشار برئاسة الجمهورية.

٢- الشيخ / حسين حسن أبكر - رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٣- السيد / على عبد الله نصر - القائم بالأعمال بسفارة شاد بالنيجر.

٤- السيد / محمد عبد الكريم - مدير إدارة الشؤون الدينية بوزارة الداخلية.

٥- السيد / عبد القادر محمد خضر - الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٦- السيد / التجاني علي حسين - بروتوكول وزارة الخارجية المراسم.

٧- السيد / أحمد محمد حسب الله - بروتوكول وزارة الخارجية المراسم.

وأشخاص آخرون عددهم قليل عرفت صفة أحدهم وهو أنه أمير الحج (الشادي) هذا العام، وأنه عالم وشغل عدة وزارت..

استرحنا فترة قصيرة في غرفة كبار الزوار في المطار على حديث ممتع هو أول حديث مع هؤلاء القوم الكرام الذي هم في عواطفهم عامة وفي بعض أصولهم عرب أكثر من العرب وكذلك في لغتهم، وكلهم عالم أو أديب.

غادرنا المطار على أن تلحق بنا الأمتعة، وركبت في سيارة مرسيدس رسمية سوداء خصصتها المراسم الجمهورية لركوبي مدة بقائي، وأمامها سيارة جيب كبيرة من سيارات الجيش يقودها عسكري، وفيها بصفة دائمة ضابط من الحرس الجمهوري مخصص لمرافقتي.

في مدينة إنجمينا :

أول ما غادرنا المطار مقبلين على البلد ذكرت مثلاً من أمثال المولدين وهم الذين ولدوا في الحواضر العربية الإسلامية بعد أن فشا اللحن في اللغة العربية نتيجة لكثرة الاختلاط بالأعاجم واتساع أرجاء الخلافة الإسلامية يقول: ((الفقر من الله والقذارة ليست من الله)) أي أنه إذا كان الإنسان فقيراً فإنه قد يعذر بذلك لأن هذا أمر أراده الله وقدره عليه، لم يستطع دفعه، وأما إذا كان على فقره غير نظيف فإن هذا سببه منه لأنه يستطيع أن يتخلص من القذارة بالتنظف.

وذلك أنني رأيت كومة من القمائم بجانب الشارع متروكة مع أنه يمكن إبعادها بلا شك رغم الفقر الذي ابتليت به هذه البلاد، وقد يأتي حديث عن ذلك فيما بعد.

ووصلنا بسرعة إلى المدينة لقرب المطار منها، فرأيت بعض آثار الحرب الأهلية بادية عليها، وأراد بعضهم أن يخبرني بتاريخ تلك الحرب الأهلية فبادرت أخبره باليوم الذي بدأت فيه بالضبط من عام ١٩٨٠م لأن ذلك مرتبط بحادثة وقعت لي ربما أذكرها في الكلام على الذكريات عن (شاد).

وبعد الحرب الأهلية التي استمرت تسعة أشهر داخل العاصمة لم تقم حكومات قوية، أو لنقل إنها حكومات لم تتوفر لها إمكانات لبناء ما تهدم من العاصمة من مبانٍ مثلما أنها لم تتمكن من ترميم ما تهدم من عواطف من المواطنين، وإن كانت تلك الحكومات قد استبدلت بعض المباني القديمة التي دمرتها الحرب أو ألحقت بها أضراراً بأماكن جديدة مثل مبنى رئاسة

الجمهورية السابق الذي استبدل بمبنى جديد دون أن يرمم فإن ذلك من النادر الذي لا يقاس عليه.

قصدنا إلى فندق (نوفوتيل) فأنزلني الإخوة ضيفاً مكرماً عليهم في جناح من الفندق يقع في الطابق الثاني الذي هو الطابق الأعلى من الفندق المؤلف من طابقين.

ويتألف الجناح من غرفة جلوس فيها جهاز للتلفزة، وهي أشبه ما تكون بالغرفة المستقلة لولا أن لا أسرة فيها، وإنما فيها مقاعد جيدة يدخل منها إلى غرفة النوم فيها، وهي مؤثثة كأثاث فنادق الدرجة الأولى.

ومع أن هذا الجناح جيد، ومكمل بما يلزمه من الأثاث، فإن عدم الإسراف ظاهر فيه.

أول ما عمله إخواننا أن فتحوا جهازي تكييف الهواء، وهما من الأجهزة المنفردة الوحدات.



حديقة نوفوتيل

(صورة من غرفتي فيه)

وودعوني على أمل اللقاء بعد استراحة مناسبة من عناء الرحلة، وليضعوا برنامج إقامتي في شاد التي من المقرر أن تستمر خمسة أيام، وكنت طلبت منهم حالما وصلت أن يبحثوا عن الوسيلة للسفر من بلادهم إلى مدينة (برازافيل) عاصمة الكنقو التي سأسافر إليها من شاد إن عرفوا ما لم تعرفه الخطوط السعودية عنها لكي أسافر من شاد بعد ثلاثة أيام.

أزحت ستارة النافذة فأسفرت ونحن في وسط النهار عن منظر يطل على حديقة الفندق التي هي غير نضرة، ولا هي بقدر الإمكانات المتاحة لتكون أنضر وأجمل من موقعها على ضفة نهر شاري، النهر الذي لا ينقطع ماؤه، وإن كان ينقص في مثل هذه الأيام من شهر يونيو من كل عام.

وفي هذه الحديقة حظيرة من الأسلاك الدقيقة يرتع فيها ظبيان صحراويان، ويمكن أن يقال إنهما عربيان، لولا أن في لونهما أدمة أي حمرة قليلة، فأما رشاقتهما المتمثلة في ضمور الحشا ودقة الساقين فإنها كرشاقة ظبائنا العربية التي شبه شاعر الحب القاتل مجنون ليلى بها حبيبته بقوله يخاطب ظبية من هذه الظباء:

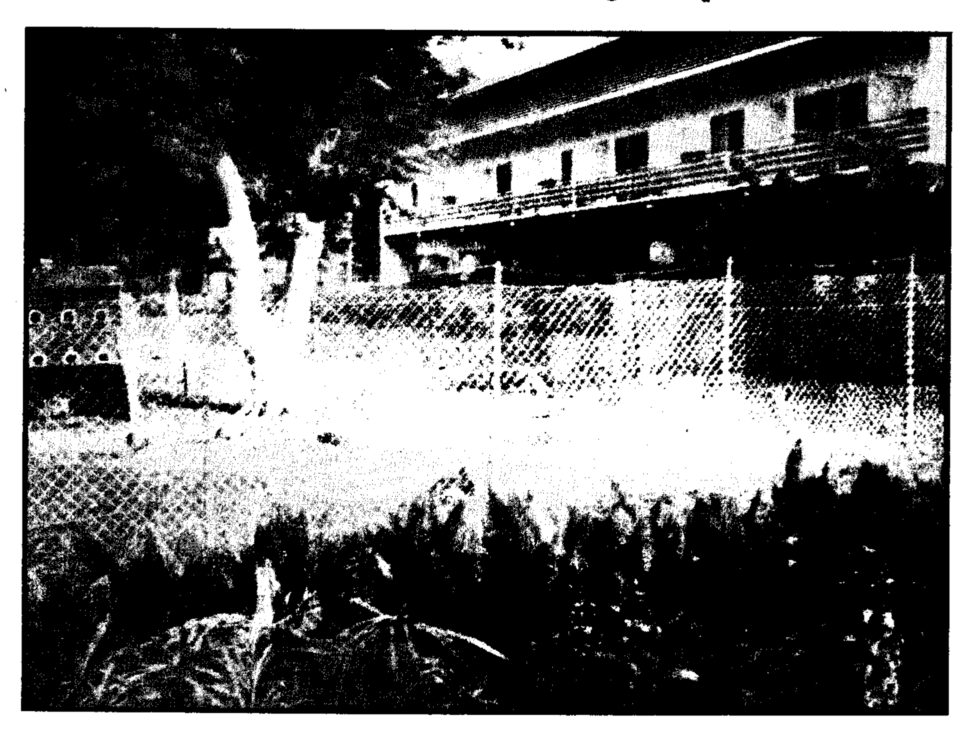
فعيناكِ عيناها، وجيدكِ جيدها ولكن عظم الساق منكِ دقيق

ومع هذين الظبيين أرنب صحراوي مرح رأيته ينقز، والنقز كمشي العصفور، وهو أن يرفع الحيوان أو الطير يديه معاً ويخفضهما معاً عند الجري، ولا يعاقبهما، بمعنى ألا تتقدم إحداهما الأخرى، وإن كان مشي الأرنب إذا كان كذلك يسمى الزَّمعان.

ومن الطريف في المقابلة أنه إلى جانب هذا الظبي السريع والأرنب القافزة توجد في الحديقة سلحفاة ضخمة تسير وكأنما تتحدى بطء الزمن بالنسبة لأهل المصائب، فتتمايل في سيرها إلى الأمام الذي يخيل إليك في بعض الأحيان إذا لم تمعن النظر فيها أنه سير إلى الخلف وكأنما هي في حركة من التمطي الدائم.

وهناك طيور من طيور البر الضخمة تأتي إلى هذه الحيوانات تشاركها الطعام والاغتسال في بركة صغيرة في وسط الحظيرة، فتأكل من طعامها وتشرب من مائها دون أن تكون بها حاجة إلى الماء ولا حتى الطعام في هذه

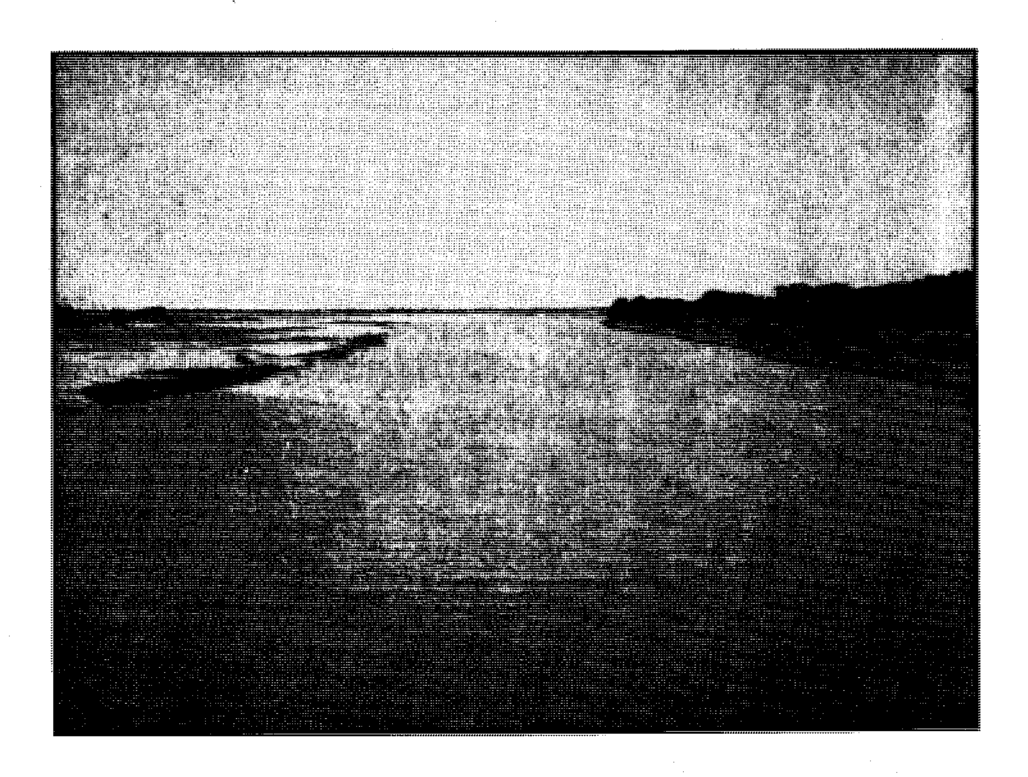
البلاد الغنية بالمراعي والمراتع.



الظباء والطيور في حديقة فندق نوفوتيل في إنجمينا

وفي حديقة الفندق بركة واسعة للسياحة قد صفت حولها الأسرة المتحركة التي ليس لظهورها أيد، وإنما هي تنحني إذا أردت لتكون ظهورها حدبا، وذلك أمر مهم لنزلاء الفندق من الأوربيين الذين يأتون من بلادهم المظلمة، فيتزودون من شمس هذه البلاد اللافحة لتختزن جلودهم من أشعتها بل من لهيبها ما يكفيها لفترة من الزمن.

ثم يأتي نهر (شاري) الذي أقيم الفندق على ضفته مبتعداً عنه جهة الغرب يفصل بينهما فراغ من الرمل الأصفر الذي يشبه لون الذهب الرنان البعيد عن جيوب السكان، في هذا المكان، في هذا الزمان، وذلك أن النهر يتسع مجراه في هذه المنطقة فيغمر هذه الرمال الذهبية في وقت فيضانه وينحسر عنها في أشد أيام انحساره في هذا الشهر شهر يونيو.



نهر شاري عند إنجمينا

المسَلِّمون والشجون:

غمرنا الإخوة الشاديون بكرمهم وبلطفهم، فكان زواري في الفندق من علية القوم، ومنع أدب الآخرين وإرادتهم التخفيف عني إخوانهم من زيارتي الفندق، فاقتصرت الزيارة على أولئك القوم الممتازين من الوزراء وكبار الموظفين، وأما سائر الناس فإنه لا يزورني منهم أحد، رغم معرفة بعضهم بذلك، ولا أدري أذلك وفق ترتيب عملوه أم أنه جاء عفو الخاطر، وعلى أية حال فإنني لم أشهد منهم أنهم منعوا أحداً من سائر الناس من زيارتي.

ففي الساعة الثانية عشرة جاء لزيارتي الوزير عثمان جده، وليس (جده اسماً لوالده، ولا لجده، ولا لأسرته كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما ذلك جرى على عادة عندهم، أن الرجل إذا كان كبير القدر، جليلاً في أعينهم ثم سمى أهل بيته طفلاً باسمه، فإنهم لا يذكرون اسمه صريحاً احتراماً له وإنما يقولون: جده أي هو المسمى على اسم جده، وإلا فإن الوزير عثمان اسمه

الكامل غير هذا.

ولكن (جده) صار لقباً له).

وهو الآن وزير الأشغال، وقد شغل عدة وزارات في السابق، منها وزارة التربية والتعليم.

وكان في الزائرين الأخ... المستشار الخاص للرئيس، والأخ مستشار الرئيس للشؤون الاقتصادية ...، ومعهم الأخ الأستاذ الطاهر القاسي الذي لازمني طيلة مقامي في (شاد) جزاه الله خيراً، وكان زارنا في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، فكان تعارفنا في مكة مقدمة لهذه الزيارة (الشادية).

وقد تحدثت معهم حديثاً عميقاً في شؤون حاضرة في (شاد)، وفي أحداث ماضية، وكلهم ذكي، بل ذو ذكاء حاد، ولغة عربية فصيحة يتكلم بها طبيعة لا تكلفاً، وبلهجة تعجب من وجودها في هذه البلاد، فهي أشبه بلغة أهل نجد منها بأية لغة أخرى حاشا لهجة السودان التي تقترب منها، ولكنها تبتعد منها إذا قورنت بلهجة أهل نجد، فهي أقرب إلى هذه اللهجة من لهجة السودان.

وكان الحديث ذا شجون انصب مجمله على ما ينبغي أن يكون من المعاونة لهذه البلاد العربية المسلمة بأكثرية سكانها على ازدهار لغتها العربية، واتساع هويتها الإسلامية، ولكن القول إذا لم يصحبه الفعل كان لغواً من اللغو، إن لم يكن ذنباً من الذنوب.

وهذا القول الذي لم يصحبه الفعل هو ما اعتادت بعض الدول العربية تقديمه إلى (شاد) في أول الأمر، ثم أخذت تضنّ عليها حتى بهذا القول الذي ليس معه فعل.

وقال لي الوزير عثمان: لقد أمرني الرئيس بأن أتصل بالدول العربية بطلب المساعدة على التعليم العربي في هذه البلاد لأن الفرنسيين يساعدون مساعدات كبيرة للتعليم العام الذي هو بالفرنسية بأن يتحملوا أكثر من ٨٠٪ من نفقات التعليم، قال: وقد اتصلت بالدول العربية من دون استثناء سواء منها الصغيرة والكبيرة طالبين منها المساعدة على البدء ببرنامج

حكومي للتعليم العربي قال: فكانت الاستجابة صفراً، هكذا قال، والحقيقة أن الاستجابة بهذه النهاية التي هي عدم الاستجابة ليست صفراً، بل خسراً، وأمراً نكراً.

أول الغيث:

خرج القوم وقد غامت السماء، وأربدّ محياها، ثم زمجرت كما يزمجر الكريم الذي هو كالعجاج الذي يتبعه مطر طبقاً لما يقوله المثل العامي الحكيم، وسبق الرعد عجاج خفيف، ثم نزل المطر مدراراً فلطف الجو وأزال الحر الذي كان شديداً، وإن لم يصل إلى شدته عندنا.

وقال لي القوم بعد ذلك: إن هذه أول مطرة في هذا الموسم، ولما تتابع المطر بعد ذلك جاملوني بأن قالوا: لقد قدم المطر مع قدومكم، فقلت: الحمد لله، وإن كنت أشفقت من أن يمنعني مما أريد عمله في الجولة، ولكنه لم يفعل ذلك في إنجمينا، وإنما فعل أكثر منه في (أم التيمان) كما سيأتي.

كل شيء فرنسي إلا الناس:

لا يكاد المرء يرى فرنسياً واحداً في أسواق المدينة وشوارعها، ولا يكاد يسمع من كلام الناس شيئاً بغير العربية، ومع ذلك فإن اللافتات في الفندق عامة، وفي الغرفة خاصة كلها بالفرنسية، حتى إن التعليمات المكتوبة في أوراق الغرفة ليس فيها شيء بغير الفرنسية، مع أن الطبيعي أن ينزل في الفندق من الأجانب من لا يعرف الفرنسية، وإنما يعرف الإنكليزية لكونها صارت لغة عالمية.

حتى في المطعم كانت القائمة بالفرنسية، فأبعدتها وطلبت من العامل أن يكلمني بالعربية ففعل، فأخبرته أنني أريد لحماً من لحم الغنم المطبوخ، وليس المشوي، فجاء به كما أردت وسط مرق لذيذ الطعم فيه بهارات عديدة، وأحضروا بجانبه (الكسرة)، وهي نوع من رقائق الخبز اللين معروف في البلاد السودانية، ويصنعونه من الدخن، إلا أن نوع الدخن الذي يصنع منه يختلف، وأطيب ما أكلت منه في أسمرا عاصمة إرتيريا، ويسمونه

هناك بهذا الاسم: (الكسرة).

وهذه الكسرة الشادية لينة كأنما هي من النشأ الخالي من القشر، وأحضروا معه بناء على طلبي سلطة مخلوطة (مكسد سالاد) فيها مع الخضرات الخس والبيض والزيتون، وقد منعني الوسواس من أن أقرب الخضرات التي فيها إذ قال لي ربما تكون قد غسلت غسلاً غير كافٍ.

وأما الشراب فإنه عصير (الأنبه) أو العمبة، وهو الذي نعرفه بالمانقو مع أن أسلافنا العرب ذكروه باسمه هذا (الأنبه) قبل ألف سنة أو تزيد، كما ذكره بذلك صاحب لسان العرب، وقد نظم أحد ظرفاء الهنود أبياتاً في مدحه، وذكر اسمه العربي هذا الذي يسمى باسم قريب منه في الهند، ربما كان هو الأصل لتسميته العربية:

إنْ كنتَ تبغي أطيب اللذات   فعليك - صاحِ - بـ (أنبه) الثمرات

والأنبه: عندهم كثيرة كثرة بالغة، وعندما يحل موسم نضجها تكثر حتى ترخص بحيث أن ثمنها لا يستحق حملها من الأرياف إلى المدن، ولكن وسائل حفظها مع مثلها من الفواكه واللحوم معدومة في شاد، لذلك يصعب عليهم التوسع في زراعتها وتصديرها.

استمر المطر واتصل الرعد، وهو يروي شطآن هذا النهر الريانة، وإن كان ريها لا يكاد يظهر عليها إذْ ليست فيها خضرة متصلة، وإنما هي مجموعات من الأشجار الخضر في بعض الأماكن، وعذرهم في ذلك أن ضفاف النهر مرتفعة عنه في بعض الأحيان، وليست لديهم آلات رافعة، كما أنه ليست عندهم القدرة على شق قنوات من النهر في الأماكن البعيدة التي قد تكون أخفض من مستوى النهر، لأن ما بينها وبينه من الأراضي مرتفع.

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في شاد:

ذهبت مع الشيخ حسين حسن أبكر رئيس المجلس الأعلى الإسلامي في شاد لزيارة المجلس والاجتماع بأعضائه الذين ذكروا أنه قد اجتمع نفر منهم في مقره بجامع الملك فيصل.

ومع ذلك مر بي الشيخ على بعض الشوارع التي ليست في طريقنا ليريني

إياها وذلك في الساعة الخامسة عصراً، فسلكنا شارعاً يسمى: (شارع بوكاسا) على اسم رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى الذي كان قد أعلن إسلامه وتسمى بصلاح الدين، ثم نكص عن ذلك زاعماً فيما قيل إن العقيد معمر القذافي رئيس ليبيا كان قد وعده ببعض النقود إذا أسلم، ولكنه لم يتسلم تلك النقود، وهذا - إذا صح - عذر أقبح من الفعل، لأنه يكون على حد قول القائل:

صلى وصام لأمر كان يطلبه ... لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما



شارع في إنجمينا

وشارع بوكاسا هذا جيد في سعته ذو اتجاهين تفصل بينهما جزيرة مبلطة ليست فيها زراعة، وإنما ركزوا فيها أعمدة للنور حديثة جيدة.

ولاحظت ما لاحظته عند الدخول من أن بعض آثار الدمار الذي ألحقته الحرب الأهلية في أبنية العاصمة لم يصلح كله، بل إن بعضه باقٍ، ومن ذلك مبنى رئاسة الجمهورية السابق المؤلف من أربعة أدوار، وقد بدت نوافذه محطمة وبعض شرفاته ساقطة.

ولكن هذه الآثار لا تعدّ شيئاً بالنسبة إلى ما أصاب العاصمة اللبنانية (بيروت) إبان الحرب الأهلية من دمار لأن الأطراف المتحاربة في لبنان تملك من السلاح المدمر ما لم يملكه الطرفان المتحاربان في عاصمة شاد هذه.

ومما ينبغي تذكره أن الحرب في إنجميناا استمرت تسعة شهور بين فريق يتبع حسين هبري الرئيس السابق لشاد، وآخر يتبع (جوكوني ويدي) الرئيس السابق لشاد أيضاً.

ولاحظت أن أسوار بعض المنازل المتضررة قد أكملت بأسوار من ألواح الصفيح، فعجبت من كونهم استعاضوا به عن لبن الإسمنت مع أن لبن الإسمنت أرخص منه كما نعرف ذلك في بلادنا، فأخبرني المرافقون أن العكس هنا هو الصحيح، وأن الصفيح عندهم أرخص من لبن الإسمنت، لأن الإسمنت عندهم غالٍ جداً، فهو يباع أكثر من ثمنه عندنا عدة أضعاف، والسبب في ذلك أن (شاد) لا يوجد فيها مصنع للإسمنت، واستيراد الإسمنت من الخارج صعب، لأن البلاد ليس لها منفذ على البحر، ولا يمكن نقله بالجو لثقله، ولا توجد قطارات أو سكك الحديد تصل البلاد بالموانئ البحرية، وإنما عليهم نقله عبر نيجيريا، أو عبر ميناء (دوالا) الكميروني على المحيط الأطلسي، وذلك بعيد شاق.

وعجبت من شيئين:

أولهما: أن فرنسا كانت تستعمر من وسط إفريقية ما أسمته في زمن الاستعمار بإفريقيا الاستوائية الفرنسية، وتضم جنوب الكاميرون وجمهورية إفريقيا الوسطى والكنقو وشاد، ومع ذلك لم تنشئ خطاً حديداً يصل بين الأطراف المتباعدة لهذه الدول.

والثاني: عدم إنشاء مصنع للإسمنت في شاد مع أن الإسمنت قد أصبح عصب العمارة الحديثة في البلاد، ومادته نوع من الحجارة التي توجد حتماً في شاد هذه البلاد الواسعة الشاسعة.

كان المطر لا يزال يسقط خفيفاً بعد المطر الجود الذين ذكرته، ولذلك خلف مناقع في المدينة أظهرت عوار شوارعها التي لا تحتاج إلى إظهار، وقد لطّف الجو، بل غيره من جو كان صحراوياً فيه من الجفاف أكثر مما فيه

من الرطوبة إلى جو لطيف، غير أنه فعل بالأرض عكس ذلك إذ زاد القمائم التي لم ترفع من الشوارع سوءاً، وزادت مناقعه مرور المشاة صعوبة.

أول نظرة:

أول نظرة ألقيتها على هذا الشعب الشادي الشقيق بعد طول غياب محا من البصر والبصيرة أكثر ما كان قد علق فيها عنه هو أنه شعب كريم فقير، فالأثواب نظيفة ولكنها ليست غالية، وأكثر ما يظهر ذلك على النساء والأطفال الذين تدل العناية بملابسهم، أو لنقل النفقة التي تنفق على ملابسهم تدل دلالة واضحة على غنى الشعب أو ضيق ذات يده.

ولا غرو في ذلك، إذ اجتمعت على هذا الشعب حروب أهلية، وتقصير في المعونات الفنية والاقتصادية، ونقص في الثقافة الحديثة التي تسعى للوصول إلى الأفضل من الناحية المادية.

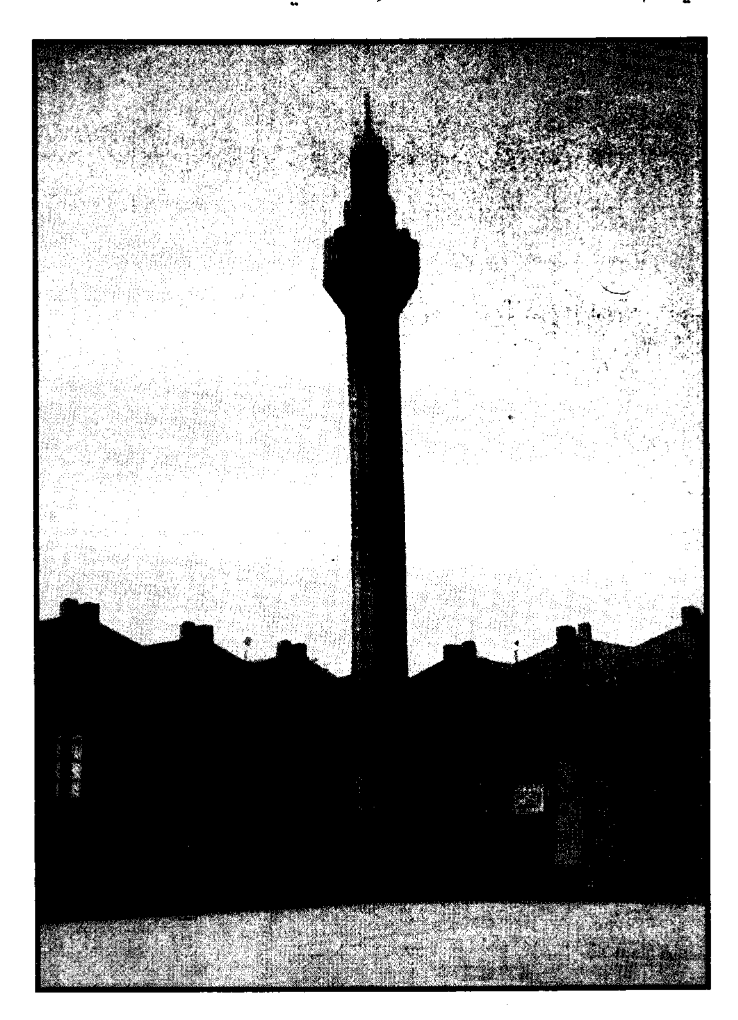
وقبل الوصول إلى جامع الملك فيصل لاحت منارة لمسجد متوسط منارته أيضاً متوسطة الارتفاع يعرفونه أحياناً بمسجد الملك فيصل مثلما يعرفون الجامع العظيم بجامع الملك فيصل.

وذلك أن الملك فيصل عندما وصل إلى شاد وجد المسلمين يصلون الجمعة في مساجد صغيرة، وليس في هذا الحي المهم من قلب المدينة أي جامع مناسب من حيث الحجم والبناء يؤدي المسلمون فيه صلاة الجمعة، على حين أنه رأى الكنيسة الرئيسية ذات برج عالٍ شاهق في السماء، وهي واقعة وسط ساحات مكشوفة واسعة، فأمر ببناء هذا المسجد بصفة عاجلة كما أمر ببناء (جامع الملك فيصل) بل مركز الملك فيصل الضخم الذي سيأتي الكلام عليه، وأمر بأن ترفع منارتاه حتى تكونا أعلى بناء موجود في مدينة (إنجمينا) وقد تم ذلك.

ومن عند هذا المسجد الصغير يرى المرء منارتي جامع الملك فيصل سامقتين كأنهما السبابتان المرفوعتان بالشهادتين: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لخالق الأرض والسماوات.

ويبدو جامع الملك فيصل متميزاً ليس في هذه المدينة وحدها، بل هو مبني

متميز في المنطقة كلها؛ بسعته، وطراز بنائه العربي الإسلامي المطعم بطراز إفريقي غربي لم يخرجه عن الطراز الإسلامي المعروف.



منارة جامع الملك فيصل

وذلك لأنه لا توجد أبنية جديدة متميزة إلا مبنى البرلمان الذي لم يستكمل بعد.

عقدنا جلسة في غرفة الإدارة للمجلس الإسلامي الأعلى الذي يشغل مبنى مؤقتاً في مركز الملك فيصل، وهو مبنى ملحق بجامع الملك فيصل بني معه ليكون بيتاً للإمام، ولكن مركز الملك فيصل وأوله الجامع يرمم الآن، تقوم بذلك الحكومة السعودية، فانتقل المجلس من مقره الملحق بالمسجد إلى

هـذا المبنى، وحضـر الجلسـة ٧ مـن أعضـاء المجلس إلى جـانب رئيسـه الشـيخ حسين حسن أبكر، فألقى الشيخ حسين كلمة مطولة شرح فيها أحوال هذا المجلس وأهدافه والمراحل التي مر بها وحاجته إلى المساعدة والجهات التي ساعدته، وذكر من أقسام المجلس قسم القضاء، وذكر أن أحد الحاضرين يتولى ذلك.



أثناء الاجتماع في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في شاد

وقال: الحكومة علمانية لا تساعد المجلس ولا غيره بقرش، وهي تعترف بما يقضي به القضاء عندنا لأننا نقضي في الأحوال الشخصية، والمسلمون يريدون ذلك.

وذكر أن جميع أعضاء المجلس متبرعون بعملهم لا يتقاضون عليه راتباً من أحد، ولم يذكر شيئاً عن نفسه في الحديث، وأنه متعاقد مع رابطة العالم الإسلامي تدفع له راتبه مع أنه لم يذكر ذلك في المناسبات الأخرى ولا ما إذا كان بعضهم مثله يتقاضى راتباً من الرابطة أو من رئاسة الإفتاء في المملكة لقاء تفرغه للعمل في الدعوة.

وقد ذكرني في كلمته بخير، ورفع من قدري عند القوم مع أن بعضهم يعرفني قبل ذلك.

وتكلم عن جامعة الملك فيصل التي أسست في المباني الملحقة بالجامع، ثم ضاقت بها فخرجت بعض الفصول عنها، فقال: إنها ستحقق التوازن بين المتعلمين تعليماً عربياً إسلامياً والمتعلمين تعليماً فرنسياً وبخاصة من أهل الجنوب، لأن المتعلمين تعليماً عربياً إسلامياً هم أكثرية في الشارع أقلية في الدواوين الحكومية، وعكسهم المتعلمون تعليماً فرنسياً، وذكر أن في هذه الجامعة (٢٥٠٠) طالب وطالبة من المرحلة الابتدائية إلى الجامعة، وأن الدولة تعترف بشهاداتها، وتسمح للمتخرجين منها بتكميل تعليمهم في جامعة (شاد) الوطنية ثم الالتحاق في الوظائف العامة.



جانب من جامع الملك فيصل في إنجامينا

رددت عليه بكلمة ضافية ذكرت فيها زيارتي الأولى لشاد من أجل جامع الملك فيصل هذا، وكيف أنني اقترحت أن تخصص الحكومة السعودية ثلاثة ملايين دولار أمريكي تبني بها حوانيت يكفي ريعها

للمصاريف المتكررة للمركز من كهرباء وماء ونحوها بعد أن اتفقت مع السفير السعودي في شاد آنذاك الأستاذ عباس فائق غزاوي على أن يبحث الأمر مع رئيس الجمهورية (فيلكس مالوم)، وذكر أن الرئيس وافق على إعطاء المركز أراضي حكومية قريبة منه لتبني عليها حوانيت لهذا الغرض، ثم ذكرت لهم أن الذي كان قد منعني وأمثالي من القدوم هنا هو الحروب والاضطرابات الداخلية التي زالت الآن ولله الحمد.

وبعد جلسة مفيدة معهم حول الموضوعات الإسلامية المتعلقة بهذه البلاد، وحتى في خارجها مما حدثتهم عنه ووجدت أنهم متشوقون لمعرفته، عدت إلى الفندق حيث زارني بعض كبار القوم، وبحثت البرنامج الذي أعدوه لزيارتي مع ممثل المراسم ومستشار الرئيس ورئيس المجلس الإسلامي.

وأخبرني ممثل المراسم الأخ أحمد محمد حسب الله أنه لا توجد رحلة إلى برازافيل قبل يوم الثلاثاء القادم، لذلك وضعوا برنامج الإقامة هنا إلى ذلك التاريخ.

وفتحت جهاز التلفزة في الفندق فوجدته ينقل النشرة الإخبارية بالعربية، وهي نشرة موسعة مبسوطة، وبلغة عربية فصيحة، ومن الطريف أنهم ينقلون فيها عن رسائل من تلفاز السودان والجزائر.

وليست لغتهم فصيحة متكلفة، وإنما هي طبيعية، لأن مثقفيهم يتكلمون العربية كما يتكلم بقية العرب المثقفين بالفصحى السهلة.

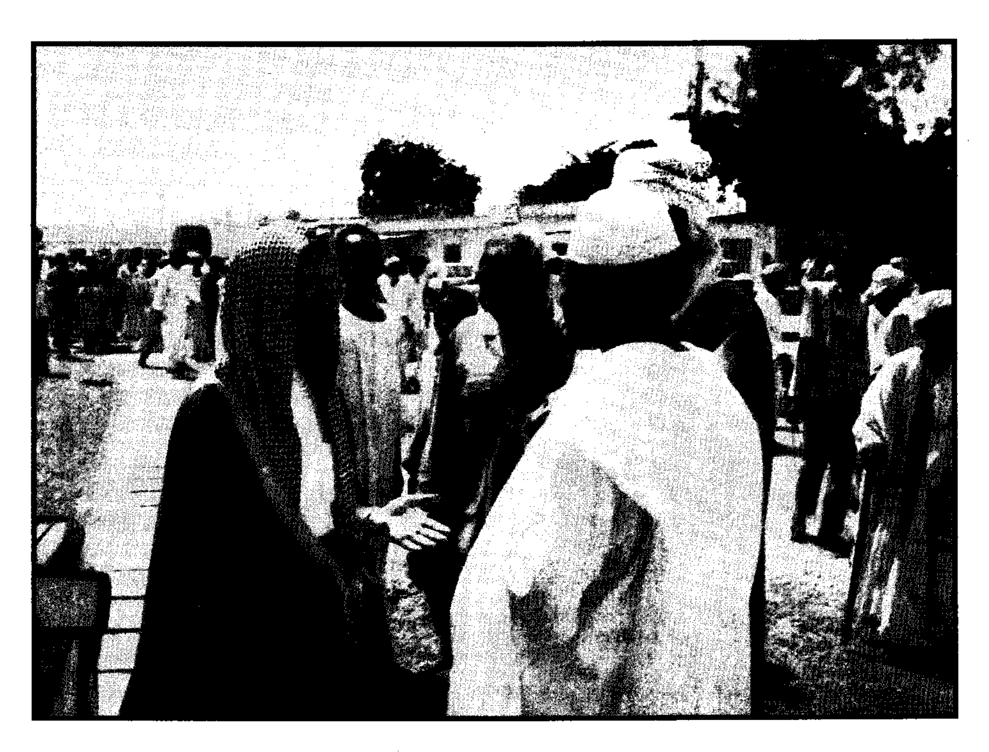
صح التوقع:

عندما زرت شاد في عام ١٣٩٦هـ أي منذ سبع عشرة سنة قلت للذين سألوني عن شاد: إنه إذ سارت الأمور على ما هي عليه فإن شاد ستصبح دولة عربية، بمعنى أن العربية ستكون لغتها بعد نحو عشر سنين.

ولكن الأمور لم تسر على ما كانت عليه، واستمرت الفوضى والحروب الأهلية فيها لفترة من الزمن قبل مجيء الرئيس الحالي العقيد (إدريس دبي) الذي ينتظر أن تختم بعهده الحروب الأهلية، لأنه عقد مؤتمراً وطنياً لممثلي جميع فئات الشعب الشادي ورجالاته، فعاد منهم من كان خارج البلاد

باستثناء حسين هبري ومناصريه، لأن بعضهم أو ربما أكثرهم يعتبرونه مجرماً في حق الشعب، وقد استمرت مداولة المؤتمر أكثر من شهر، وقرر تأليف حكومة وحدة وطنية انتقالية، بل ألفها المؤتمر وعين رئيس وزرائها على أن تجري انتخابات عامة يتولى الحكم بعدها من ينتخبه الشعب لذلك مثلما صنع أهل جمهورية (مالي).

وقد اختار المؤتمر لتولي رئاسة الوزراء أحد الجنوبيين المسيحيين، وإن كان القارئ سيفاجأ بذلك عندما يعرف اسمه وهو (عبد القادر فضيل منقار) وعبد القادر وفضيل على لفظ تصغير فضل هما من أسماء المسلمين، و(منقار) اسم عربي مستعمل عندهم، ويذكر المسلمون عنه أنه يتشبه بالمسلمين ويلبس لباسهم، ومع ذلك هو مسيحي مثلما كان كثير من الناس يظن أن (عبد القادر كاموجي) الذي قتل عدداً من المسلمين في الجنوب هو مسلم، مع أنه مسيحي يرمى بالتعصب لمسيحيته، وقد عين وزيراً في الحكومة الانتقالية الحالية.



المؤلف يتحدث إلى الأخ الطاهر القاسي في السوق الرئيسية في إنجمينا

والمشكل في الأمر أن المسيحية هنا مثلما عليه الحال في جنوب السودان ارتبطت في أذهان أهل البلاد ومشاعرهم بالوطنية، فالجنوبيون صاروا يعتقدون أن التمسك بالمسيحية هو الذي يعصمهم من سيطرة الشماليين المسلمين عليهم.

وقد بحثت عن السبب في كون أسماء هؤلاء المسيحيين أسماء إسلامية فذكروا أن أهلهم كانوا يعيشون مع المسلمين، وأنهم سموا أسماء أولادهم بأسماء إسلامية لهذا السبب.

ونعود إلى ذكر التوقع الذي صح، فنقول إن الحديث عن الاضطرابات والحروب الأهلية هنا ليس معناه أنها تمنع انتشار اللغة بين عامة الناس، وإنما هي تمنع جهود الحكومة اللازمة لتعليم العربية، ولمنع مقاومة الجنوبيين وخلفهم الكنيسة وأنصار السيطرة الفرنسية من الفرنسيين وأذنابهم، كما هو واقع الآن، فالجميع يعترف أن اللغة العربية هي في الوقت الحاضر اللغة التي لا تدانيها لغة أخرى في شاد في انتشارها في البلاد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ولا تدانيها لغة أخرى في عدد المتكلمين بها، فضلاً عن عارفيها في البلاد، ومع ذلك لا تستطيع أي حكومة شادية في الوقت الحاضر أن تجعلها اللغة الوطنية الرسمية الوحيدة، أي لا تستطيع أن تستبعد اللغة الفرنسية التي هي المنافسة للعربية، بسبب قوة أنصار الفرنسية سواء منهم الفرنسيون الذين يدفعون أكثر ميزانية التعليم في البلاد، أو المتفرنسون الذين تثقفوا بالفرنسية ويدافعون عن مراكزهم فيها، أو المسيحيون الذي يخشون من الذوبان والاضمحلال في العربية والعروبة.

ولذلك لم تسر الأمور على ما كانت عليه من الهدوء وتجميع القوى في شاد عندما زرتها، ولكن القوم الآن استجمعوا قواهم المبعثرة وقرروا في المؤتمر الوطني قانونياً أن اللغة العربية هي لغة رسمية بجانب الفرنسية، وإن كان الواقع أن الفرنسية هي السيدة في الدواوين الحكومية ومكاتب الشركات والجامعة الوطنية الشادية، فعلى سبيل المثال لا توجد أية كلمة بالعربية في فندق (نوفوتيل) الذي نسكن فيه، بل كل ذلك بالفرنسية، ومرة أخرى نقول: إن شاد مقبلة على أن تصبح دولة عربية بلغتها الرسمية، كما هي الآن قد صارت عربية بالفعل على لسان الأكثرية الساحقة من شعبها

الذي يتكلم العربية لغة أصيلة فيها.

ولا بد من أن تفعل ذلك في المستقبل إن شاء الله، ولا بد من أن يساعدها العرب عليه، لا كما هو عليه الحال في الوقت الحاضر، حيث يقف العرب موقف اللامبالاة بمساعدة الشاديين على ذلك متعللين أو منشغلين بالفعل بالخلافات فيما بينهم، وهدر طاقاتهم في ذلك.

يوم الجمعة ٣٠/١١/١٤١٣هـ ٢١/٥/١٩٩٣م

صباح شاد:

أسفر صباح شاد عن نوم عميق لم يتح لي منذ أيام لكثرة الالتزامات الأخرى، وأسفرت النافذة عن جو صاح ساجٍ، ولذلك رأيت الظباء والأرانب التي في حديقة الفندق تتقافز وتتلاحق وكأنما هي فرحة بهذا الصباح الجميل، وبخاصة أنه ذو نسيم عليل، بلله ندى الأمطار التي سقطت بالأمس، وكانت أول أمطار تسقط في هذا الفصل من السنة، وللمطرة الأولى معنى عندهم كبير، فهي بشير يشير إلى مطر غزير، وهي إلى ذلك تغسل ما علق بهذا الجو القتير من الغبار والأكدار.

ولذلك كان هذا الصباح بارد النسمات خفيف الحركات.

والتقطت (مصوِّرتي) ونزلت من الغرفة إلى مقهاة الفندق وهي في الحقيقة مطعم ومقهاة، فوجدتها في جانب من الحديقة في الهواء الطلق الذي لا يحد من انطلاقه إلا أفنان من شجر النيم الكبير، التي لم تستطع أن تحد من حركات ذبابات صحراوية ملحة - من الإلحاح - كانت تقتحم الصحون والأطباق كما يقتحم الفدائيون ميدان المعركة، ومثل ذلك سقف من الخشب المضفور مقام على خشب يشبه الأكواخ الإفريقية الأصلية.

وقد عرضوا طعام الإفطار على مائدة مستديرة واسعة، وسلطوا عليه مراوح قوية لكيلا تقترب منه الذبان، وهي لا تستطيع الطيران في الريح القوية.

ومع كثرة العاطلين عن العمل في شاد، ورخص أجور العمال فإن الطعام معروض هنا على هيئة المائدة المفتوحة، يأخذ منها الآكل بنفسه ما يريد كما هي العادة في الفنادق الكبيرة أن يجعلوا مائدة الإفطار مفتوحة.

وهذه المائدة الشادية جيدة حافلة بالأطعمة التي تؤكل في الصباح، وهذا أمر معتاد، غير أنني أردت وأنا آكل منشغل الذهن بإبعاد هذه الذبابات الملحة عن الصحن أن أحضر الشاي فخفت أن تغلبني على طعامي، فناديت العامل في المقهاة، وطلبت منه أن يحضر الشاي لي، فأشار إلى مكانه بما

معناه: تستطيع أن تحضره بنفسك، إلا أن زميلاً له أحضره لي.

وذكرت بهذه المناسبة ما قالته العامة عندنا عن ابن عاق لأبيه طلب والده منه أن يحضر له ماء ليشرب فقال له: وأنت مكسَّر؟ أي وهل قوائمك مكسورة لا تستطيع أن تحضر شرابك بنفسك؟

والإفطار هو في الحديقة على ضفة نهر شاري الشرقية، ولكن تلك الضفة ليس في أكثرها إلا الرمل الأصفر، لأن النهر قد انصرف إلى الضفة الغربية لكونه الآن في أقل أيامه ماءً، أو هي أيام التحاريق كما يسمي المصريون هبوط النيل، فالنهر في شهر يونيو يكون في أقل حالاته جرياناً بالماء، لأن موسم الأمطار الغزيرة قد بعد عهده به، وفصل الأمطار لم يحن بعد، وإنما يحمل ما يحمله من الماء من الأمطار التي تقع بصفة شبه مستمرة على منابعه في جمهورية (إفريقيا الوسطى) جنوب (شاد).

والتقطت صورة للنهر من الحديقة، لأنهم كانوا قد أحاطوا الفندق مما يلي ضفة النهر بسياج من الأسلاك طلباً للأمن.

وبخاصة أن هذه الضفة الشرقية الرملية من ضفتي النهر تمتلئ بالماء عندما يكون النهر في أكثر حالاته اكتظاظاً بالماء.

ولاحظت من الأرض أن معظم ضفتي النهر ليست عليها بساتين وحقول مستغلة استغلالاً جيداً مثلما لاحظت ذلك من الطائرة، وذلك لأنهما مرتفعتان، وإمكانات رفع الماء إليها غير متيسرة للناس في الوقت الحاضر، وإنما رأيت الغالب على الأشجار التي عليها مع أنها غير كثيفة هي النيم، والأنبه (المانقو)، وشجر صحراوي متطفل هو العُشَر.

وعلى الضفة الغربية بيوت من بيوت الطين المتفرقة، أي غير المتلاصقة، وذلك لكونها أشبه بالبيوت الريفية منها بالأحياء السكنية المكتظة.

ومن نواحي النقص في هذه الحديقة وغيرها من الأماكن في البلاد قلة التزهير، فالأزهار قليلة رغم صلاح الجو لكثير منها، والمراد بذلك أزهار الزينة، وكذلك وجود الماء الدائم في النهر، ولا شك في أن الآبار الأرتوازية ستكون نافعة لبعد المنطقة من البحر، وكثرة سقوط الأمطار عليها في أيام الموسم.

جولة في مدينة إنجمينا :

اسمها (إنجمينا) هذا حديث نسبياً، فقد سميت به في عام ١٩٧٢م، أسماها بذلك الرئيس السابق تمبل باي، وذلك بعد أن أظهر أنه اصطلح مع المسلمين.

وهو اسم عربي الأصل، لأنه من لهجتهم العربية يقولون فيها (انجمّ) الرجل بمعنى استراح، وهي من استجم يستجم، بمعنى استعاد راحته وارتياحه، والظاهر أنها هي كلمة: (جَمَّت) البئر أي عاد إليها الماء بعد أن كان قد نزح منها، والمراد أنه تحلب من قاعها حتى اجتمع فيها بعد أن كانت نزفت واستنفد ما فيها.

وهي كلمة عربية لا تزال مستعملة في نجد كما هي في الفصحى، ولذلك يقول قومنا في أمثالهم لمن يوجد عنده خير كثير: يشرب جمّ، أي أنه يشرب من بئر فيها الماء الكثير.

و(إنجمينا) بصيغة ضمير الجمع على وزن تمنينا، إلا أنهم يزيدون في أولها ألفاً مثل من يقولون إذا أصابهم أمر أطار صوابهم: أنجنينا، من جن القوم إذا كانوا كذلك.

قالوا: وسبب تسميتها بذلك إشارة من الرئيس (تمبل باي) إلى أنهم استراحوا من الحروب الأهلية التي كانوا قد تعذبوا بسببها، وكانت مستمرة بين الحكومة التي يسيطر عليها الجنوبيون المسيحيون وعلى رأسهم الرئيس (تمبل باي) نفسه، وبين المسلمين الذين كانوا يحاربونها في الشمال والشرق وعلى رأسهم جبهة (فرولينا) للتحرير.

ويقول الذين عرفوا الرئيس (تمبل باي) أنه كان في أواخر حياته رأى أن الانسياق وراء التفرنس لن يجلب عليه ولا على شاد إلا الشقاق والخراب، فأظهر العودة عنه، وغير كثيراً من الأسماء الفرنسية إلى أسماء وطنية، ومن ذلك اسم المدينة الرئيسية في جنوب البلاد غيره من التسمية الفرنسية (أرسنبول) إلى (سار) على اسم القبيلة الجنوبية الكبيرة هناك (سارا).

وصار يظهر العودة إلى حياة الوطنية القديمة، ففرض على الوزراء أن يقضي كل واحد منهم مدة معينة من السنة في قريته يلبس لباس المواطنين،

ويعيش معيشتهم حتى يحس بآلامهم، ولا ينسلخ بالتفرج عنهم، ويذكر المسلمون عنه أيضاً أنه صار يتقرب إليهم، ويثني عليهم.



السوق المقابل لجامع الملك فيصل في إنجمينا

وهذا هو الجو الذي غير فيه اسم العاصمة فصارت (إنجمينا).

أما الاسم الذي كان قبله فكان: (فورت لامي)، وتعني بالفرنسية (قلعة لامي)، ولامي هو القائد الفرنسي الذي وصل إلى هذه المنطقة، وبلغة الغالبين هو الذي فتحها للفرنسيين، وقُتل في مكان (إنجمينا) هذه، وقد نصبوا على مكان قتله نصباً لا يزال قائماً سيأتي الكلام عليه.

وهو الذي قتل الشيخ رابح فضل الله الزعيم المسلم المجاهد، الذي قاتل الفرنسيين وجاهدهم وأثخن فيهم، وهو سلطان الكانم والبرنو.

ولكن القائد الفرنسي (لامي) قتل الشيخ رابح في الصباح، وقتل هو في المساء، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٠٠م، فلم يمهل بعد مقتل الشيخ رابح إلا ساعات معدودة.

وقبل مجيء (لامي) لم تكن توجد مدينة في المكان؛ بل لم يكن مأهولاً إلا من عدة أبيات، أو لنقل إنها أكواخ قليلة كانت قائمة في مكان مطار (إنجمينا) الدولي في الوقت الحاضر، كان أهل المنطقة يسمونها (أم دابازين) وفسروا لي زين بأنه عربي من الزين ضد الشين، وأن (أم) معناها: ذات، كما أصحبت الكلمة تستعمل الآن في العربية بمعنى ذات.

هذا مع العلم بأن اسم (إنجمينا) ليس غريباً على هذه البلاد إذْ كانت هناك قرية صغيرة تبعد عن مدينة (أنجامينا) العاصمة بنحو ١٢كيلومتراً تسمى (إنجمينا).

إنجمينا ليست قصيري:

قرأت لبعض الكاتبين من العرب الذين يأخذون الأمور عفواً، ويستدلون بما يتخيلون من ظواهرها دون النفاذ إلى بواطنها بأن مدينة (فورت لامي) ذات اسم عربي غيره الفرنسيون بعد استيلائهم على البلاد إلى (فورت لامي)، وأن اسمها كان (قصيري).

وهذا لا يقوله إلا من يسمع بالمنطقة ويكتب عنها ما سمع به أو قرأه، ثم يضيف إليه من تخيلاته ما يعتقد أنه يتناسب مع ذلك.

لأنه لا توجد مدينة في القديم في المنطقة اسمها (قصيري)، كما أنه لم تكن توجد في مكان (إنجمينا) الحالية مدينة قبل أن يحتله الفرنسيون.

وقد حمله على ذلك ما سمع به من أن في المنطقة مدينة اسمها (كسيري).

والواقع أن مدينة (كُسْيري) بضم الكاف وإسكان السين وكسر الراء هي مدينة كاميرونية في الوقت الحاضر، وليست شادية، ولكن يفصلها عن (إنجمينا) نهر شاري، فهي تقع على ضفته الغربية، و (إنجمينا تقع على ضفته الشرقية) وكان اسمها (كسري) ولا يزال لم يتغير، وليس قصيري، فليس عربياً، وليس له أصل من العربية، وقد سألت عنه جماعة من الإخوة العرب الذين هم من أهل المنطقة فنفوا أن يكون اسم (كسيري) عربياً، وذكروا أنهم لا يعرفون ذلك في أصله، كما سألت بعض الإخوة من

القبيلة التي كانت موجودة في المنطقة قبل وصول العرب إليها ولا تزال موجودة فيها وهي قبيلة (كوتوكو) المسلمة، فذكروا أيضاً أن اسمها قديم كان موجوداً منذ الزمن القديم، ولا يعرفون تاريخ تسميتها به.

ومع أن هذا أمر واضح لكل من يصل إلى المنطقة، إذ يمكن أن يشاهد مدينة (كسيري) الكاميرونية ومدينة (أنجامينا) الشادية، وأن المدينتين مستقلة إحداهما عن الأخرى، كما أن أهل المنطقة من العرب يعرفون ذلك، فإنني رأيت أن أثبت هنا أبياتاً من الشعر العامي الشادي لشاعر معاصر لا يزال حياً يرزق اسمه (جامع أبكر)، وقد غاير بين المدينتين حيث ذكرهما معاً في شعره الذي أنشدنيه صاحب المعالي الأستاذ عثمان جده وزير الأشغال في شاد في الوقت الحاضر حيث ذكر (فور لامي) التي صارت تسمى الآن (إنجمينا) و (كسيري) بضم الكاف وإسكان السين ثم راء مكسورة، قال جامع أبكر:

بين فورلامي وبين كسري
طعنتني شوكة في كعبي[1]

جات لي بنات ثماني
أربعة اتكزي[2] وأربعة القواطي

واحدة جات اتقاصرت جنبي
واحده فرفرت شعرها بتشد كوزي[3]

واحدة فرشت لي سرير ليلي
واحدة قالت هش[4] يا جامع ولد عمي

(١) كعبي: كعب رجله.

(٢) اتكزي والقواطي: أسماء قبائل أو جماعات منها تلك البنات الثماني.

(٣) الكوزي: الخروف المصلي على النار.

(٤) هش/ كلمة تحسير عندهم.

وقد سبق لذلك الكاتب أن تجرأ فذكر أن اسم (مالديف) الجزر المسلمة المعروفة الواقعة في المحيط الهندي عربي الأصل، وأنه (جزائر الذئبة) ولا أدري لما اختار الذئبة على الذئب، فلم يقل إنها جزائر الذئب، هذا إذا صح أن أنثى الذئاب تسمى ذئبة، وليس اسمها (اللبوة)، وفاته أن تلك الجزائر صغيرة إلى درجة أنه ليس فيها مساحات واسعة يمكن أن تختفي فيها الذئاب أو غيرها من السباع، ولذلك لم يعرف أهلها شيئاً من السباع مطلقاً، لا من الذئاب ولا من غيرها، كما لم يعرفوا وجود الحية ولا العقرب فيها، وهذا ما يذكرونه ويفتخرون به في جزائرهم، فهي جزر صغيرة إلى درجة أن المطار في جزيرة غير جزيرة العاصمة (مالي)، وخزان النفط في جزيرة أخرى وهكذا، حتى إنهم يبيعون بيعاً مؤقتاً عدة جزر من جزرهم لمن يريد أن يشتريها لضيق مساحتها، ووجود الماء العذب فيها.

وإنما أسمها من اللغة السنهالية التي كانت سائدة في جنوب الهند، وفي سيلان في الوقت الحاضر ومعناه: (جزيرة السمك)، فمال: سمك، (ديب): جزيرة مثلما أن سيلان (سريلنكا) اسمها القديم: (سرن ديب) بمعنى جزيرة الياقوت.

وقد أوضحت ذلك في كتاب: ((رحلة إلى جزر مالديف: إحدى عجائب الدنيا)) الذي طبع أكثر من مرة.

بدء الجولة:

بدأت الجولة بصحبة الإخوة المرافقين على رأسهم (الطاهر القاسي) واسمه عربي بكلمتيه، والأخ ممثل المراسم في الخارجية (أحمد محمد حسب الله) وغيرهم، ومعنا سيارتان إحداهما المخصصة لركوبي وهي مرسيدس سوداء جديدة، وأخرى عسكرية يقودها عسكري بلباسه الرسمي، وفيها ضابط برتبة ملازم بلباسه الرسمي أيضاً.

ولم أكن أريد أن يكون الأمر معقداً كهذا، ولكن الإخوة الشاديين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية أرادوا إكرامي، والحرص على أن يظهروا لي ولغيري أنني ضيف على الدولة جزاهم الله خيراً.

اخترقنا شوارع (إنجمينا) الجيدة في وسطها، وإن كان عدم العناية

الذي ذكروا أن سببه عدم الإمكانات هو الظاهر، إلى أن وصلنا إلى أطراف المدينة، فرأينا فيها ما في المدن الاستوائية في المعتاد، وإن لم تكن مدينة استوائية، وهو القناة التي تكون في مكان الرصيف من الشارع تنتهي إليها مجاري المياه المستعملة الخارجة من البيوت، لأنه لا توجد مجار حديثة فيها، وقد كنت عرفت في كثير من البلدان الاستوائية المطيرة أنهم يصنعون بها هكذا من أجل أن تطهرها مياه الأمطار إذا سقطت، فتجري بها بعيداً عنهم، مع أنها هنا غير معتنى بها بمعنى أنها لم تكن مبنية بناء محكماً ولا مغطاة، وإنما هي أشبه بحفرة مستطيلة.

أما مظاهر الناس هنا فإنها مظاهر المسلمين الواضحة التي تتمثل أكثر مما تتمثل في اللباس، فهو قميص عربي كقميصنا العربي بالنسبة إلى عامة الناس، أما اللباس الرسمي لعلية القوم فإنه يشبه اللباس الموريتاني مع فروق كبيرة، ولكن وجه الشبه أنه مثله مؤلف من سروال، غير أن السروال الشادي يكون ضيقاً أضيق من السروال الموريتاني، وفوقه قميص من جنسه ضيق الأكمام أيضاً، وفوق ذلك ثوب فضفاض، تتدلى أردانه إلى الأرض لا بد للابسه أن يلاحظ رفعها عندما يصعد درجة لئلا يتعثر بها كما نفعل نحن بأطراف العباءة العربية.

ولا بد على الرأس من طاقية، وأكثر طواقيهم مزركشة مزخرفة بالخيوط أو من قماش يظهرها كذلك، وسائر الناس الذين رأيناهم في الشوارع هذا اليوم هم من لابسي القمصان العربية، ومعتمري القلنسوة (الطاقية).

وقد يوجد من المسلمين قلة ممن يرتدون اللباس العالمي المعروف بالإفرنجي، ولكنه هنا مخفف مثلما يكون عليه في البلدان الحارة عادة، وهو القميص الذي يكون قصير الأكمام، والسروال الغليظ (البنطلون)، وأما غير المسلمين فإنهم يلبسون القبعة التي لا يلبسها المسلمون، غير أن المسيحيين لا يلتزمون بوضع القبعة على رؤوسهم، وإنما يتركونها عارية على عادة الإفرنج في ذلك.

المتحف المغلق:

وقفنا عند المتحف الوطني الشادي نريد الدخول فيه، وقد كتبت عليه أوقات الزيارة بالفرنسية والعربية لكونه دائرة رسمية، ومع ذلك فإن العمل فيه اليوم يبدأ من التاسعة وينتهي في الثانية عشرة، ونحن الآن في العاشرة، فوجدنا عنده رجلاً عليه قميص عربي وطاقية وهو يتكلم بالفرنسية بطلاقة ظننته أول الأمر لا يعرف العربية مع أنه يرتدي الملابس العربية، وعجبت ممن يلبس القميص العربي و (الطاقية) ويتكلم الفرنسية دون العربية، ولكن تبين أن لذلك سبباً هو أنه يقول لأصحابي: إن المتحف مغلق وأنه لا تمكن زيارته.



مبنى المتحف الوطني

ويقع المتحف في مبنى قديم الطراز، ولكنه ليس بذي طراز عربي بل هو فرنسي معتاد، كان مقراً لبلدية المدينة حتى عام ١٩٦٢م عندما أصبح متحفاً، فدرنا عليه مع رواق محيط به وجدناهم عرضوا فيه هياكل عظمية لحيوان كبير مثل هيكل الزرافة، وهيكل فيل ضخم وكذلك هيكلان

لحصان ولفرس النهر.

وقد وصلوا بين أجزاء الهيكل بقضبان حديدية دقيقة تمسك بها لئلا تقع.

وقد ذكر مدير المتحف أنه مغلق لكون اليوم هو يوم الجمعة مع أنهم كتبوا عليه أنه مفتوح في يوم الجمعة، وربما كان هذا أمراً جديداً.

هذا وقد رأيتهم كتبوا عليه لوحة ضخمة بالعربية تقول: ((ممنوع لمس الأشياء المعروضة، شكراً)).

وأخبرونا أنه ستتاح لنا فرصة أخرى لزيارة هذا المتحف، ولكن لم يتيسر ذلك.

ومررنا بمبنى الرئاسة الجديد، ولم نقف عنده، لأننا سوف نزوره فيما بعد عندما يحين موعد مقابلة رئيس الجمهورية فيه بإذن الله.

ثم مررنا بصف (طابور) من المواطنين ذكروا أنهم واقفون أمام مبنى خزينة الدولة لبعض المعاملات، وأكثرهم عليهم اللباس العربي الذي يلبسه سائر الناس وقد مر ذكره.

شارع موبوتو:

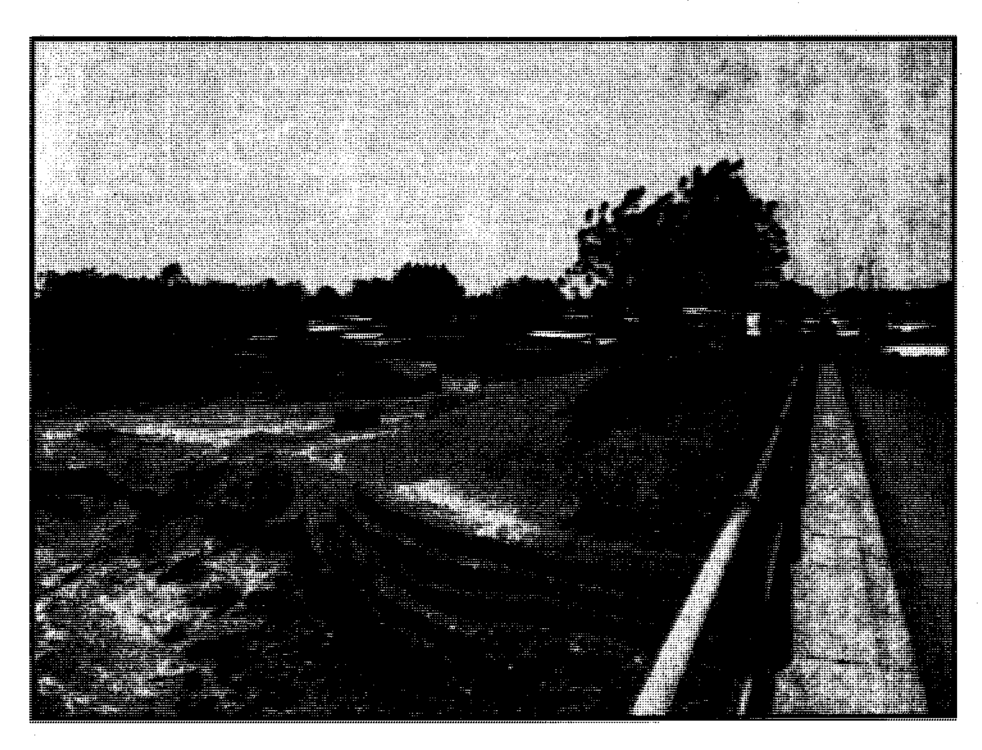
لم أر مدينة إفريقية متمسكة بتسمية الشوارع الرئيسية فيها مثل (إنجمينا) هذه، مع أنها في الحقيقة ليست إفريقية خالصة، وإنما هي بغالب سكانها عربية إفريقية مثلها في ذلك مثل السودان.

وربما كان هذا من أسباب تمسكهم بهذه التسميات لينفوا بذلك عن أنفسهم مهمة العروبة الخالصة التي إذا ذكروها علناً بادر أهل الجنوب بمشاعرهم ومظاهرهم ليقولوا: إننا إذاً غرباء عنكم أيها العرب المستعمرون.

فقد مررنا بشارع (بوكاسا) وها نحن الآن نمر بشارع موبوتو رئيس جمهورية زائير، وسوف نمر بشوارع أخرى مسماة بأسماء الزعماء الإفريقيين.

وشارع (موبوتو) جيد ذو اتجاهين مقسومين بجزيرة خالية من التشجير، وإنما فيها أعمدة النور التي بدأوا حديثاً بتركيبها فيه، ولم يكملوه حتى

الآن، وقد أقاموا عليه جسراً ضيقاً مرتفعاً للمشاة لئلا تؤذيهم السيارات أو يؤذوها بمرورهم، مع أن السيارات فيه ليست بالغة الكثرة، ومن الطريف الذي رأيته فيه امرأة قروية تحمل على ظهرها جرة من الفخار الثقيل تبين فيما بعد أنهم يحملون فيها السوائل كالماء واللبن ونحوهما بديلاً من الأواني المعدنية الخفيفة، وذلك لرخص ثمنها لأنها مصنوعة في البلاد، وعادتهم في حملها أن تعلق على الظهر كما يفعل تلامذة المدارس في تعليق حقائبهم المدرسية على ظهورهم.



بيوت قرب نهر شاري وإنجمينا

نصب لامي:

وقف الموكب عند نصب في مكان متسع على ضفة نهر (شاري) أقامه الفرنسيون لرجلهم الذي قاتل المسلمين بقيادة الإمام رابح فضل الله وقتله، ثم قتل بعده، وهو (لامي)، وقد وضعوا صورة لوجهه على النصب وذكروا اسمه تحتها، وبجانبه صورة قائد للفرنسيين كبير اسمه جنرال لكريلك مات في عام ١٩٠٢م، وهو إفريقي الأصل خدم الفرنسيين في محاربة الوطنيين

الشاديين في هذه المنطقة، وكلهم من المسلمين، وهذا الرجل الإفريقي هو من (توقو) التي عاصمتها (لومي) في الوقت الحاضر.

لم نطل اللبث حول هذا النصب الكريه الذي يدل على هزيمة المسلمين، وإن كان يدل في الوقت نفسه على أنهم أثخنوا في الفرنسيين بدليل أنهم قتلوا قائدهم (لامي) هنا.

والعجب العجاب أن الإخوة الشاديين لم يغيروا من هذا النصب شيئاً، بل إنني رأيتهم يجددونه بعد أن أخلقَّ، وتكسر البلاط الذي حوله، وأهملت منطقته، وقالوا لي: إن الذين يجددونه هم الفرنسيون، وسيان الأمران، لأن القوم سمحوا للفرنسيين بتجديده، وكانوا يستطيعون منعهم من تجديده بعد أن كانوا لا يستطيعون أن يمنعوهم من تشييده عندما كانوا مستعمرين محكومين.

السفارة المهشمة:

مررنا بمبنى مهشم مهمل ذكر لي الإخوة المرافقون أنه مبنى السفارة السعودية، وكنت أعرفه قبل ذلك بغير هذه الحالة إذ زرته قبل سبع عشرة سنة عندما كان عامر المبنى والمعنى، وقد خربته الحرب الأهلية، لا لكونهم يريدون تخريبه بالذات، لأن الفريقين المتحاربين يحترمان معاً حكومة بلادنا وشعبها، ولكن بعض المحاربين كانوا يتحصنون فيه، ويطلقون النار منه على خصومهم مثلما كانوا يفعلون في كل مبنى قوي ما عدا المساجد فكان خصومهم يسارعونهم إطلاق النار ليسكتوا سلاحهم.

وكانت الحرب الأهلية التي سببت خراب السفارة في عام ١٩٨٠م، وقد مضت حتى الآن ثلاث عشرة سنة والسفارة متروكة مهملة يدل منظرها على عدم العناية بهذا الشعب العربي المسلم الشقيق، بل يدل على الإهمال، لأن هذا المبنى الكبير متروك لعوادي الزمن تزيده خراباً على خراب، ولا أرى لوزارة خارجيتنا عذراً في ذلك، لأن جميع السفارات التي خربت بعد أن كان أهلها هجروها إبان الحرب الأهلية قد أصلحت وعاد إليها موظفوها.

بيوت الطين:

جو (أنجامينا) ليس صحراوياً خالصاً لأنه تسقط عليه أمطار كثيرة إبان فصل الأمطار، ولكنه يشهد جواً جافاً طويلاً، وشمسه حارة صاحية في الصيف، لذلك تعيش فيه بيوت الطين التي رأيناها تكاد تكون الوحيدة في طرف المدينة الذي نسير فيه الآن متجهين إلى الجسر الذي يعلو نهر شاري، وهي مسطحة السقوف ما عدا بعضها الذي لسقوفه الصفيحية نسبة للصفيح أسنمة غير حادة، وقد ذكرني منظرها بمنظر كان هو السائد في بلادنا وغاب عنها أو غابت عنه منذ (عصر) - مفرد الأعصار بفتح الهمزة - والعصر في اصطلاح بعضهم هو ٣٣سنة وثلث أي أنه ثلث القرن.

ومع أن هذا التحديد ليس بذي بال إلا أنه هو الواقع على وجه التقريب، إذ كنا نبني بيوتنا من الطين سواء في المدن أو في القرى، ولا نعرف أنه توجد مادة أخرى لبناء البيوت من غير الطين.

يساعدنا على ذلك الجو الصحراوي الجاف.

إلا أن هذه البيوت الطينية الشادية هي أشبه ببيوت القرى وأطراف المدن عندنا في القديم، وليست كبيوت الطين التي في المدن فتلك أكثر قوة وأناقة بل وتكلفة من هذه البيوت الشادية.

ومما قرب منظرها من مناظر البيوتعندنا أن الأراضي الخالية من البنيان بينها كثيرة، وأن الأزقة فيها ليست مستقيمة، فتلك كانت سمة بيوت القرى عندنا عندما كانت الأراضي فيها رخيصة.

وبالقرب من هذه البيوت الطينية رأينا مبنى حكومياً حديثاً مؤلفاً من عدة طوابق ذكروا أنه تشغله وزارتان إحداهما وزارة التربية والتعليم، والأخرى وزارة الشباب.

على نهر شاري:

قلت: إن نهر شاري يقع عليه فندقنا، ولكنه بعيد من مجرى الماء فيه في الوقت الحالي، والآن وصلنا إلى مجرى الماء حيث بنوا عليه جسراً حديثاً ولكنه ضيق لا يتسع إلا لسيارة واحدة، وفي جانبيه رصيفان ضيقان للمشاة.

وقد رأيت النهر تحت هذا الجسر يتدفق بالمياه، وإن لم يكن واسع المجرى، ولكنني عجبت من كثرة مياهه في هذا الفصل من السنة الذي يكون فيه الماء أقل ما يكون في العادة، والتقطت صوراً تذكارية مع الإخوة المرافقين.



على ضفة نهر شاري مع المرافقين

على يساري محمد أحمد حسب الله، وعلى يميني الطاهر قابسي، فالتيجاني، فرجل من المارة، فالضابط المرافق

ورأيت هذا الجسر خلاف ما عليه الجسور فوق أمثاله من الأنهار، ذلك بأن المشاة الذين يسيرون فوقه هم أكثر من المركبات، والمركبات أغلبها سيارات النقل الصغيرة حولت إلى سيارات للركوب تحمل الناس وما لهم من الأمتعة إلى القرى والأرياف القريبة، وغالباً ما تراهم راكبين فوق حمل المتاع.

وفي المشاة نسبة كبيرة من النساء كثيرات منهن على ظهورهن هذه الجرار الفخارية المثبتة بحبال على الكتف، فهذه هي العادة الشائعة عندهم،

وليست عادة الحمل على الرأس كما هي العادة المتبعة عند أكثر الإفريقيين، اللهم إلا عادة حمل الولد على الظهر فإنها شائعة في كل إفريقية الخضراء كما هو معروف.

واللباس الوطني الشائع لهؤلاء النسوة هو فوطة وافية تنزل إلى الكعبين فوقها قميص طويل الأكمام واسعها، وفوق الرأس قماش يستر الشعر.



الجسر فوق نهر شاري

وبعضهن يلبسن كما تلبس السودانيات الشماليات أو قريباً من ذلك وهو رداء رقيق يلف معظم الجسم والرأس ما عدا ما كان أسفل الركبة من الجسم.

ومن الجسر يرى المرء الضفة الأخرى من النهر وهي الشرقية وهي هنا شادية، وإنما تكون كاميرونية عندما يجتمع النهران (شادي) ولاقون ويصبحان كلاهما نهر شاري، أي أن نهر شاري يبتلع نهر لاقون بعد أن كان له مجرى وحده واسم وحده، بل إن له اسمين لأنه كان نهرين يتحدان، وبعد ذلك يصبان معاً وهما نهر واحد في نهر شاري فيذوب اسم (لاقون) في

اسم (شاري) وتصبح ضفة شاري الغربية كاميرونية بعد أن كانت شادية، حيث يصبح نهر شاري هو الحد الفاصل في هذه الجهة بين شاد والكاميرون.

ويرى المرء أيضاً من النهر بيوتاً من بيوت الطين خربة كان بصري قد ألفها في صغري، ولكنه نسيها أو تناساها الآن.

ومن الغريب غير المستساغ أنك لاترى هنا أثراً للفرنسيين لا من ناس ولا من لباس إلا ما كان من أمر اللافتات فإنها بالفرنسية رغم كون كل المارة من هنا يعرفون العربية، وإن كثيرين منهم لا يعرفون الفرنسية.



شاحنة مليئة بالركاب والأمتعة خارج إنجمينا

سوق الغنم:

تشتهر (شاد) بأنها من بلاد الماشية، فالشعب في معظم الأماكن هو من الرعاة، والبلاد نائية، وبعضها صحراء لا تتوافر فيها المياه، وإنما تمكن تربية الماشية من الإبل والبقر والغنم، وعندما يذكر المرء الإبل والغنم فإنه لا بد من أن يتذكر أو يذكر العرب، إن لم نقل إنه لا بد من أن يذكر

الأعراب، لذلك طلبت أن أرى سوق الغنم، بل سوق الماشية فاستجاب الإخوة لذلك.

عدنا من الجسر المقام على نهر شاري سالكين شوارع من أطراف المدينة ليست مما تفخر المدن بوجودها فيها من حيث النظافة والعناية، فهي واسعة وهذه ميزة كبيرة من ميزات الشوارع الجيدة، ولكنها مهملة وليس المراد من ذلك أنها مهملة من وجود البيوت الحديثة عليها، أو حتى من خلوها من الأرصفة العريقة مثلاً فهؤلاء الإخوة الشاديون خرجوا من حرب أهلية، وليست لديهم الإمكانات اللازمة لذلك.

ولكن الإهمال الذي لم أر له مبرراً هو عدم العناية بنظافتها؛ إذ يرى المرء أكوام القمامة في حواشي هذه الشوارع العريضة لم تجد من يرفعها، وكأنما عمال البلدية في إضراب، أو كانت البلدية في إجازة مع أن الأمر لم يكن كذلك، لأن هذا صار مألوفاً لعامة الناس، ربما لا يرون أنه يستحق الحديث، مثلهم في ذلك مثلنا قبل أربعين سنة، أي قبل إنشاء البلديات في بعض مدننا الداخلية.



المؤلف يجس الخرفان في سوق الغنم في إنجمينا

وقد وددت في نفسي أن ألتقط صوراً لذلك، لأنني لا أشك في أن الإخوة

سيغيرون من حال بلادهم بعد ذلك، فيكون تسجيل هذه الأمور بالصورة تسجيلاً مطلوباً، غير أنني وأنا عزيز لديهم خشيت أن يشعروا أو يشعر بعضهم أنني إنما أتطلب الأشياء غير المحبوبة في تسجيلها عنهم.

وأمر آخر وهو أنني مررت بسوق صغير فيه باعة معظمهم من النساء عليهن مظاهر الحاجة وعدم التستر الذي يراه الغريب على نساء المسلمين في البلاد، فأخبروني أن الحي هذا يسكنه الجنوبيون، وأن هذه هي طبيعتهم، ومرة أخرى وددت لو صورته ولكنه ليس من الأحياء التي تفتخر المدن بوجود مثله فيها.

وجدنا سوق الغنم واقعاً على حافة الطريق الإزفلتي، إلا أنه في مكان ترابي قد تخلفت فيه من مطر أمس مناقع داستها الماشية والناس فصارت سوداء، ولكنني نزلت من السيارة لأجس الغنم، وجسها هي تحسس الأماكن التي يعرف منها هل الخروف مثلاً سمين أم هزيل، فوجدت أن غنمهم تشبه الأغنام السودانية التي نسميها عندنا السواكن، وذلك لكونها ترد إلى بلادنا من ميناء سواكن السوداني، وهي كبيرة الحجم أهم ما يميزها أنه ليست لها أليات فيها الشحم كما هي عليه الحال في الخراف النجدية على سبيل المثال.

صرت أتفقد الخروف وأتحسس جسمه، فسارع صاحبه وهو أعرابي أو هو عربي كالأعرابي، والفرق بينهما أن العربي هو المنتسب إلى العرب أياً كان موقع سكناه، والأعرابي هو ساكن البادية من العرب فصار يقول لي: إنها سمينة داير تشتري واحد أو اثنين؟

يريد أن يقول: أتريد أن تشتري واحداً أم اثنين.

فقلت له: هذا الذي معي فحل أريد أن أرى خصياً، أنا (داير) خروف مخصي، فقال وهو يقرب خروفاً آخر هذا خصي، وإذا به ليس كذلك، وإنما هو فحل مثل الأول، وقد ظن أنني لا أفرق بينهما.

وغنمهم كبيرة كثيرة اللحم، لكن التي جسستها ليست سمينة ولا أدري السبب في ذلك مع وفرة المراعي في البلاد، وربما كان أهلها أحضروها من بلاد بعيدة.

وصار أكثر من واحد يجذبني ليريني غنمه كما يفعل باعة الغنم من الأعراب عندنا، وكان مرافقونا جزاهم الله خيراً يحاولون أن يبعدوهم عني، فأرجوهم أن يتركوهم على طبيعتهم وألا يحاولوا أن يعرفوهم بي، وأنا لا أستطيع أن أتكلم معهم بغير العربية التي يفهمها الجميع.

وقال البائع: هذا الخروف بألف وأربعمائة ريال شادي، والريال الشادي هو خمسة فرنكات من فرنكات إفريقية الغربية المسماة (سيفا) وإذاً تكون العشرة من الفرنكات الشادية تساوي فرنكاً فرنسياً واحداً، وذلك يساوي ١٣ قرشاً سعودياً، فيكون هذا الثمن الذي عرضه عليَّ للخروف الكبير يعادل مائة وأربعين فرنكاً فرنسياً، وذلك يعادل حوالي (٨٩) ريالاً سعودياً، ومثله يساوي عندنا (٥٠٠) ريال سعودي.

مع العلم بأنه مستعد للنقص من الثمن إذا ماكسته أي كاسرته على حد قول العامة عندنا، أو فاصلته على حد قول العامة في مصر.

وظهر لي من إسراعهم إليّ وهم يرونني أنزل من هذه السيارة الجديدة الفاخرة أنهم قد اعتادوا على أن يشتري الأجانب منهم بعض الخراف.

وسوق البقر:

تركنا سيارة المرسيدس الصغيرة المكيفة، وركبنا سيارة الجيب الجديدة الجيدة، وهي مكيفة أيضاً، وذلك لكوننا سنخرج عن الطريق الإسفلتي ونسلك طريقاً لا تقوى عليه السيارة الصغيرة.

وذهبنا بالفعل مع شارع واسع ليس فيه من صفات الشوارع الجيدة غير السعة، تحف به بيوت سيئة المظهر من الطين، وقليل منها من لبن الإسمنت، وبعضها من القش المهلهل، حتى وصلنا (سوق البقر) في وسط ميدان أو لنقل في أرض خالية من أية عناية.

إلا أن بجانبها حوانيت فيها فرن يبيع اللحم المشوي على الناس الذي يشويه حسب الطلب، أو حسب ما يوجد لديه بالنسبة للمستعجل، وهو يشوي اللحم على جمر من الحطب الجزل.



سوق البقر في إنجمينا

فالأرض هنا هي أرض الشواء لأنها أرض الأشجار الوافرة والمرعى الجيد للماشية.

سوق البقر هذا يصح أن يسمى أسواق الماشية؛ لأن فيه يباع الحيوان الكبير، ففي ركن منه حمير للبيع، وعدة أحصنة - جمع حصان - وأبقار كثيرة، وأهله كلهم من العرب أو المستعربين، وكلهم من دون استثناء من المسلمين.

والمستعربون هم أبناء القبائل الأصيلة من البلاد قبل وصول العرب المهاجرين إليها مثل الكانم والكنوري والهوسا، ولكنهم كلهم استعربوا بحيث صاروا لا يعرفون لهم لغة عامة إلا العربية، فصاروا يتكلمون العربية مثلما يتكلم بها العرب، ولو فرضنا أن أحداً منهم أراد ألا يتكلم بالعربية لأي سبب من الأسباب لم يستطع ذلك، لأنه لا توجد لغة أخرى بديلة يتفاهم بها مع الآخرين، ولغته الأصيلة التي يتكلم بها أهله لا يعرفها إلا هم، لذلك لا يستطيع استعمالها مع غيرهم.

على أن الإخوة المسلمين من المستعربين في (شاد) هم مثل العرب يعتزون بالعربية، إن لم يكونوا أكثر اعتزازاً بها لكونها لغة القرآن ولغة المسلمين.

ومن ذلك أننا وقفنا عند رجل يبيع بقرة، فكلمنا بلغة عربية واضحة مثلما يتكلم العرب هنا بالعربية، ولما سألته عن قبيلته؟ قال: أنا من (زغاوة) وقبيلة (زغاوة) ذات أصل قديم معروف في هذه البلاد قبل أن تصلها القبائل العربية، وربما تكون اختلطت بها قبائل عربية، لذلك اختلف الباحثون في أصلها، ولم يجمعوا على أنها من أصل عربي نقي، بل إن أغلب آراء الباحثين على خلاف ذلك.

الراشدي والشريف:



بين الشريف والعربي في سوق البقر في إنجمينا

التف علينا جمع ممن في السوق، وذلك لأنني ألبس الملابس العربية التي من أهم ما يميزها عن ملابسهم: (الشماغ) غطاء الرأس، إضافة إلى لوني الذي يخالف ألوانهم، حتى العرب منهم قد غلب السواد على ألوانهم بسبب

معيشتهم الطويلة في هذه الأرض الإفريقية التي تصبغ الأجساد بالسواد، فسألت رجلاً عنده عدة أبقار عن أصله فقال: أنا عَربي، أنا من الراشدية.

فسألته عن الواحد المنسوب إليهم فلم يعرف حتى ساعدني الإخوة المرافقون على إفهامه ما أريد قوله، فقال: راشدي، وقال أحد الحاضرين: إنه من (بني راشد) قبيلة عربية كبيرة مشهورة هنا.

ومع ذلك قد تغير لونه حتى غلب عليه السواد.

وقال شخص آخر أسود اللون أيضاً قبل أن أسأله: أنا شريف من الأشراف، وهو أسود اللون أيضاً.

وبعد أن التقطت صورة تذكارية لهما وصوراً أخرى للسوق وللمجتمعين فيه رأيت فتى أسمر اللون، ولكنه متميز التقاسيم في وجهه فسألته عن اسمه ونسبه؟ فقال: بعد ترو وتفكير: أنا عربي شادي إن شاء الله.

فقلت له: لقد شاء الله لك أن تكون ما أنت عليه الآن، فأخبرني عما سألتك عنه فقال: خبرتك، فتركته وتشاغلت عنه عامداً، فلما لمس أنني صرت لا أبالي به قال: أنا من البُطْح من أولاد حميد، والبطح هم عرب أقحاح معروفون بذلك، ولكنهم قدماء في الهجرة لهذه البلاد، لذلك تغيرت ألوانهم، وإن لم تتغير أكثر أنماط حياتهم.

وثمن البقرة أو الثور عندهم في حدود ٤٥٠٠ إلى ٦٠٠٠ آلاف ريال شادي، وستة آلاف ريال شادي تساوي ثلاثين ألف فرنك إفريقي غربي، أي ستمائة فرنك فرنسي وهي تعادل من أريلتنا السعودية (٣٩٠) ريالاً.

وهذا رخص لا يصدق لولا أنني سمعت قبل ذلك عدداً من الإخوة أهل شاد ومن غيرهم، ومنهم شيخ أزهري يدرس في جامعة الملك فيصل بأن كيلو اللحم في شاد بريالين ونصف من ريالاتنا السعودية، وقد رأيت ثوراً من الثيران ضخم الجثة، حسن المظهر، يستحق أن يعرض في معارض الأبقار المتميزة، فذكروا أن ثمنه تسعة آلاف ريال شادي، وذلك لتميزه وكونه أكبر حجماً بمقدار مرة ونصف من الثيران الأخرى.

وقلت في نفسي: ما أضيع الثروة الحيوانية في هذه البلاد، بل قلت أيضاً: ما أضيع الإنسان الذي يذهب وقته هباءً إلا إذا صرفه فيما يرضي

الله، لكونه لا يجد مجالاً من مجالات الحياة الدنيا يبرز فيه مواهبه، مثلما هي عليه الحال في البلدان النامية الأخرى.

هذا وقد تجمهر علينا طائفة من الناس الموجودين في السوق، وهم كثر وكلهم من الشاديين لأنه لا توجد بينهم جاليات أخرى.

ومما يجدر ذكره أن رخص حيوان اللحم عندهم ناشئ عن كثرته، مع صعوبة تصديره خارج بلادهم إلا للبلدان القريبة جداً مثل نيجيريا وجمهورية إفريقيا الوسطى؛ لأنه لا توجد في بلادهم موانئ بحرية لكونها بلاداً مغلقة، ولا توجد وسائل نقل المواشي إلى البلدان البعيدة، وإنما البلاد الوحيدة التي ذكروا أن أهلها يشترون الماشية منهم للتجارة إنما هي السودان، فالسودانيون القريبون من الحدود الشادية يشترون ماشية اللحم من (شاد)، ولكن يصعب عليهم نقلها إلى موانئ التصدير على البحر الأحمر في شرق السودان كما هو ظاهر.



مع العاملين في سوق البقر في إنجمينا

وقلت للإخوة المرافقين وأنا أرى هذه الثروة التي لا تجد ثمنها اللائق بها في هذه البلاد: إنني سوف أكلم أحد تجار اللحم في الرياض عسى أن يبحث

في طريقة ينقلها بها إلى المملكة مع العلم بأن المسالخ الفنية ووسائل حفظ اللحم الحديثة وإعداده للتصدير هي معدومة هنا.

لقد طاب لي الوقوف والحديث مع هؤلاء الإخوة العرب المسلمين، ولكنهم صاروا يكثرون، وصار جمعهم يجذب إليه جموعاً أخرى لصقوا بنا، وصاروا يتعجبون منا مثلما كنا نتعجب من الأجانب الأوروبيين الذين كانوا يزورون بلادنا قبل أربعين سنة أو نحوها، لذلك أسرعنا بتوديعهم والانصراف عنهم.

مع العلم بأن الضابط العسكري المكلف من رئيس الجمهورية بحراستي كما قالوا كان يرافقنا وهو يحمل سلاحه، ويرتدي ملابسه العسكرية الرسمية احتياطاً للأمن وإظهاراً للصفة الرسمية للزيارة، وإن كنا لم نحتج إليه، بل لم يكن يخطر ببالي أنني أحتاج إلى حراسة غير حراسة الله سبحانه وتعالى، كما قال الأولون من أسلافنا العرب: ((حرس المرء أجله))، ويقولون: ((الأجل خير حارس))، أي الإنسان إذا لم يكن قد حان موته المقدر عليه فإنه لن يصيبه شيء يميته.

بائعات لبن الإبل:



العربيات بائعات اللبن قبل أن ينفرن من الصورة

ولن أقول هنا ما اعتاد أن يقوله بعض العامة في البلدان بأنه لبن الجمل، لأن الجمل لا لبن له، وإنما ذلك ناشئ عن كونهم استعاضوا بكلمة

(الجمل) عن كلمة البعير، والأمر ليس كذلك في اللغة والقياس، فالجمل هو ذكر الإبل، وهو الذي يلقح الناقة، وليس هو بالبعير الذي يشمل الذكر والأنثى من الإبل.

وبائعات لبن الإبل أعرابيات وجدناهن في ركن من سوق البقر هذا، وهن يبعن لبن الإبل، ولأهل هذه البلاد شغف بلبن الإبل ربما لا يقل عن شغف بني قومنا به.

قال لي الإخوة المرافقون: أتريد أن ترى الأعرابيات؟ قلت: نعم.

فوجدناهن أربعاً أو خمساً أعرابيات صفراً جميلات المنظر، أخف سواداً، أو لنقل: إنه ليس في ألوانهن سواد، وإنما هي صفرة مائلة للبياض، ولكن جمالهن هو في تقاسيم وجوههن، وفي رشاقة أجسامهن، وقال لي أحد الإخوة المرافقين: إنهن لم يتغيرن كثيراً ،لأنهن من العرب (الأبّالة)، وهم أهل الإبل، وهؤلاء لا يزوجون غير العرب، أما العرب البقارة، وهم أهل البقر فإنهن يتزاوجون مع المسلمين الآخرين.

كن جالسات عندهن بضاعتهن وهي جرار من الفخار كبيرة ذات أغطية محكمة من الفخار أيضاً، فانحنيت إلى إحدى الجرار، وطلبت من البائعة أن تريني اللبن، ولكنني يظهر أنني بذلك قد فتحت على نفسي باب عدم الاستفادة إذْ ضحكت الأعرابية صاحبة الجرة عليَّ، بدلاً من أن تفتح الجرة لأنظر فيها، وأنا في الحقيقة لا أريد ذلك، وإنما أريد أن أفتح باب الحديث، وقال الإخوة المرافقون وجمهور من الحاضرين الذين التفوا علينا بسرعة: هو معكن حليب؟

وقد دهشن لهذا المنظر منظر الأعرابي المتحضر الغريب بسيارته التي يقودها عسكري بسلاحه، ويقف بجانبه أيضاً عسكري وجماعة من الوجهاء، وهن يعرفن الوجهاء مثلما يعرفهم غيرهن في هذه البلاد من الملابس التي يرتدونها.

وغلطت مرة أخرى فأخرجت مصوّرتي أريد التقاط صورة لهذا المنظر النادر منظر الأعرابيات اللاتي يبعن اللبن في سوق (إنجمينا)، ولم أدر أنني بذلك قد أفسدت كل شيء، إذ كنت أؤمل أن أسألهن عن قبائلهن وعن

معيشتهن، ولكن الأعرابية كالأعرابي ترجع إلى الطبيعة الوحشية، عندما ترى أن في الأمر شيئاً غير معتاد، فنفرن وصددن وتقافزن مختلطات، وقد تركن جرارهن وهن يصدفن بوجوههن عن وجه المصورة.

وقامت كبراهن وهي نصَف، والنصَف - بفتح الصاد - هي التي ذهب نصف عمرها، تزمجر بغضب، فخشيت أن يحدث ما لا تحمد عقباه، والتقطت عدة صور ليست واضحة لأنها كانت رغماً عن إرادتهن، ومنها هذه الصورة:



الأعرابيات اللاتي يبعن اللبن في إنجمينا

وتركتهن آسفاً على فوات ما كنت أؤمله من سماع حديثهن عن قومهن وعن قبائلهن، وآسفاً على ضياع صورة كاملة كنت آمل أن ألتقطها لهن وبضاعتهن، ولكن الأخ الكريم موظف المراسم المرافق أحمد محمد حسب الله أخفى المصورة، وخالف إليهن بعد أن انصرفنا، والتقط لهن هذه الصورة.

ومن العجيب هذا الجمال الظاهر فيهن، والرشاقة أو التناسب في

الأجسام والتقاسيم عندهن، وبقية البياض التي لم تجهز عليها شمس إفريقية في وجوههن، وإن كانت فعلت ذلك مع رجالهن.

تمر فقط:

تركنا بنات العم غاضبات مزمجرات، ومعهن البقر اللاتي لم يكنّ كذلك، وذهبنا إلى حيث تقف سيارتنا المرسيدس على حافة الطريق الإزفلتي في الشارع، وأما سوق البقر فإنه واقع على حافة الخلاء، وهذا أمر طبيعي إذ لابد لسوق المواشي الكبيرة من أن يكون كذلك لأنه أسهل لوصولها إليه وخروجها منه.

وفي هذا الشارع سوق جلس البائعون على جانب واحد منه امتد صفهم مع امتداد الشارع طويلاً، فوجدت بائعاً عنده تمر يابس لا نعتبره من التمر الذي يأكله الإنسان لتدني نوعه بالنسبة إلى الأنواع الجيدة من التمور التي توجد في بلادنا، وقد وضعه في زنبيلين ضخمين على رأس واحد منهما إناء كالذي يشرب به، فسألته عنه فأشار إلى أحدهما وقال: هذا شادي (الكورة) يريد ذلك الإناء بـ١١٠ ريالات، والثاني هذا سوداني (الكورة) بـ١٢٠ ، فالسوداني أغلى من الشادي.

وقد قدر الإخوة كما قدر البائع أن هذا الذي يملأ الكورة هو في مقدار كيلوين اثنين.

والغريب أن تمرهم هذا ليس فيه شيء من لزوجة الدبس، ولا أية رطوبة، بل إنه ناشف أملس، ولا أدري أمرجع ذلك إلى طبيعته أم أنهم أيبسوه في الشمس من أجل أن يحمل من دون أن يضايق حامله، وأظن أن الصحيح هو الأول، فهو من رديء التمر، حتى حجمه ليس كبيراً.

وسألت البائع عن اسمه؟ فقال: تمر، ووافقه المرافقون، فقلت لهم: إن التمر عندنا أنواع، ولكل نوع اسم منه، فقالوا: إننا لا نعرفه إلا نوعاً واحداً هو التمر، وليست له أسماء غير هذا.

وعرفت من ذلك أن بلادهم ليست من بلاد التمر، وإلا لكانت تنتج أنواعاً متعددة منه يكون لكل نوع منها اسم خاص به.

وقد أعاد منظر هذا التمر إلى ذهني ما كنت درسته بل حفظته في زمن الصبا من الحديث الوارد في التمر وأنه مما يكال كيلاً، ومن ذلك حديث صدقة الفطر وأنها يجوز أن تكون صاعاً من تمر، والصاع مكيال معروف.

وهذا بخلاف ما نعرفه عن تمرنا الذي لا يمكن أن يكال كيلاً، وإنما هو يباع وزناً، لأنه رطب لزج مليء بالدبس الذي لا يتخلى عن الصاع إذا علق به.



الفرن الذي يبيع الشواء قرب سوق البقر في إنجمينا

عرب المحاميد:

رأيت أشياء في هذه السوق أردت أن أتأملها وأستفسر عنها، وأكثر ما فيه أكوام من الأنبه (المانقو) لأن هذا الوقت هو موسم نضجها، غير أنني رأيت أعراباً معهم إبلهم وعليها أشدة جمع - شداد - وهو الرحل في الفصحى الذي يوضع على ظهر البعير يجلس عليه راكبه.

فأعجبتني رشاقة إبلهم وارتفاعها عن الأرض، فأسرعت أسأل هؤلاء

الأعراب عن قبيلتهم، والكلام كله بالعربية العفوية التي لا يستعمل الناس من عرب وغير عرب غيرها من اللغات هنا عن أصلهم، وهنا سارع المرافقون الذين خشوا أن يحصل لنا عند أبناء العم من الأعراب ما حصل عند بنات العم من الأعرابيات، فأخبروهم بأنني من مكة وأريد أن أعرف قبيلتهم، فقالوا: حنا من عرب المحاميد، قالوا ذلك بجفاء، وليروا ما وراء جواب هذا السؤال، فأسرعت أخرج (المصوّرة) من غمدها أريد التقاط صورة لهم ولإبلهم، ولكنهم ردوا بخشونة وجفاء خشيت عليَّ وعلى مصورتي منها.

وقالوا: عطنا ريالات ونخليك تصورنا، فقلت لهم: أريد أن أصور (البعارين) فقالوا: تصورها ولا تعطينا (شيء)؟ لا.

ومرة أخرى لم أرد أن أثير مشكلة وانصرفت عنهم وأنا أسمع أحدهم يقول وهو يسير ممسكاً بزمام بعيره: عطني ميتين ريال تنفعني والا لا.

ولما رأوا أن هذا لم ينفع عندي زمجروا قائلين: عطنا ريالات، فتركتهم بعد أن اختلست صوراً لإبلهم ولأحدهم راكباً على شداد بعيره على بعد.



المؤلف يمسك بيد الأعرابي الذي امتنع عن التصوير إلا بمقابل

وقال لي أهل البلاد بعد ذلك: إن المحاميد قبيلة عربية كبيرة هنا، وإن

كان أشكال هؤلاء الأعراب تجمع بين السمرة الشديدة والنحافة، وليس في مظاهرهم من الوجاهة ما في أعراب بني قومنا.

أما المئتان اللتان طلبهما الأعرابي الشادي ثمناً لصورة له ولأباعره فإنها تعادل اثني عشر ريالاً سعودياً، وهي مبلغ كبير في هذه البلاد، ولكن ذلك لم يكن المانع لي من دفعها إليه، وإنما كرهت طلبه إياها بهذه الصورة واللؤم الظاهر في معاملته، وخشيت أن يكررها مع غيري من العرب أو السياح الأجانب.

شارع النميري:

انصرفنا عائدين إلى قلب المدينة، فمررنا بالمركز الثقافي الكويتي وهو مفتوح، ويزاول أعماله رغم الأحداث التي مرت بها الكويت، وليس كالسفارة السعودية المهملة.

وسرنا مع شارع النميري والمراد به جعفر النميري الرئيس السابق لجمهورية السودان، وهذا كما قدمت مظهر من مظاهر مجاملة الإفريقيين، أو تأكيد أفرقة هذه البلاد وإفريقيتها، وإن كان السودان الشقيق ورئيسه النميري لا تحتاج عروبتهما إلى تأكيد.

ولشارع النميري هذا عندي أهمية خاصة، فهو طويل يمتد حتى يصل إلى جامع الملك فيصل الذي نقصده لأداء صلاة الجمعة، بل إن عليه مسجداً آخر صغيراً يسمى أيضاً مسجد الملك فيصل، لأنه كان قد أمر ببنائه رحمه الله بصفة عاجلة ليصلي فيه المسلمون ريثما يتم بناء هذا الجامع الضخم الذي كان بناؤه يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يتم.

وشارع النميري مؤلف من اتجاهين بينهما جزيرة في بعضها (زفت) وليس فيها شيء من الأشجار أو النبات، وهو مستقيم جيد الاستقامة.

جمعة شاد:

وكان الأولى أن اسميها جمعة جامع الملك فيصل لأننا صليناها فيه، ولكن الأمر يتعلق بهؤلاء الإخوة المسلمين الأماجد أهل شاد.

وقفنا عند الباب الأمامي لجامع الملك فيصل، وهو الذي يدخل منه الإمام في العادة إلى المسجد لكونه بجانب المحراب.

وقد وجدنا المسجد مليئاً بل مكتظاً بالناس إلى درجة لم أكن أتصورها، وكانت الشوارع المؤدية إليه مليئة أيضاً بالقادمين إليه مما دفعني إلى تقدير المصلين بعشرات من الألوف، وقال إمام الجامع رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الشيخ حسين حسن أبكر: إننا نقدر عدد المصلين بثلاثين ألفاً.

وهذا عدد لا يجتمع عادة إلا في أيام الأعياد في غير هذه البلاد، وما رأيت شبيهاً له في الكثرة إلا في جامعين متباعدين أحدهما (بيت المكرم) وهذا هو اسمه الذي يقع في (دكا) عاصمة بنغلادش، والثاني: مسجد الجمعة في إبادن عاصمة غرب نيجيريا، وقد ذكرت حديث كل واحد من هذين الجامعين مع أحاديث أخرى في كتابين: الأول عن بنغلادش عنوانه: ((مقال، عن بلاد البنغال))، والثاني في كتاب: ((قصة سفر في نيجيريا))، والأول مطبوع، والثاني مطبوع أيضاً في مجلدين.

كنت أرتدي الملابس العربية ومعي الإخوة المرافقون، ولولا ذلك لم أجد مكاناً بل لم أجد موضع قدم لي في مقدمة الجامع، فأفسح القوم لي مكاناً، وكنت أظن أن إمام الجامع سيخلي مكاناً يجلس فيه من يراه من أصحابه ليقوم إذا رآنا ومرافقينا الذين هم من علية القوم إذ فيهم الأخ طاهر القاسي المستشار في رئاسة الجمهورية، والأخ التيجاني... الذي كان سفيراً لشاد في عدة بلدان.

كان أحد الإخوة العلماء يلقي درساً من مكبر الصوت باللغة العربية المعتادة التي هي ليست بالفصحى المتقعرة ولا بالعامية، وهذه هي لغتهم المحلية في هذه البلاد، وإن كان كلامه يعتبر بالفصحى، وهو بذلك يثبت ما عرفته من قبل عن غلبة اللغة العربية على كلام أهل هذه البلاد، بل تفردها بهذه الصفة.

ولا يحتاج إلى لغة أخرى معها، وكانت مقدمة الصفوف في الجامع مؤلفة كما هي العادة من المسنين المتدينين، وكلهم رأيته يتجاوب مع كلام

الواعظ بالعربية، وإن كان استماعهم استماعاً مهذباً، فهم خاشعون ساكنون كأن على رؤوسهم الطير، وهم منصتون متابعون لما يقوله هذا الواعظ.



المؤلف مع جموع المصلين في جامع الملك فيصل

ومن الطريف ما ذكروه لي بعد ذلك، وهو أن هذا الأخ الواعظ هو من أصل جنوبي، أي من سكان جنوب البلاد، ومع ذلك فهو الذي يتكلم بالعربية الواضحة كما أتكلم بها إذا تكلمت، ويعظ إخوته المسلمين الشماليين وغيرهم من الموجودين في هذا الجامع كما يعظهم بها أي واعظ من الشمال.

وقد بحثت عن لهجة عربية يمكن أن ألحق بها لهجتهم العربية، فوجدت أنها قائمة بذاتها منفردة بخصائص لها، غير أنها عربية فصيحة خالية من العجمة أو اللكنة، وأقرب اللهجات إليها لهجة السودانيين لولا أن هذه أفصح وأوضح، وأبعد عن تأثير العامية من اللهجة السودانية، وهي أقرب إلى اللهجة النجدية إذا ما مزجتها لهجة سودانية.

الخطبة والصلاة:

قلت: إن الوعظ كله كان بالعربية، ولذلك كان من البديهي أن تكون الخطبة بالعربية، وقبل الخطبة أذن المؤذن أذاناً عربياً فصيحاً لا أثر لأية لكنة أو عجمة فيه، رغم كون المؤذن أسود فاحم السواد، ولكن تقاسيم وجهه ليس فيها أي أثر للتقاسيم الزنجية أو السمات المظهرية للأفارقة الذين يقطنون تحت خط الاستواء، بحيث إنه لو انقلب لونه إلى البياض لأصبح وجهه عربياً خالصاً، بل إنه يكون من أرباب الوجاهة والمنظر الخالص من العرب.

ثم صعد المنبر مرافقنا الشيخ حسين حسن أبكر إمام الجامع واحد الدعاة المتعاقدين مع رابطة العالم الإسلامي الذين تدفع الرابطة لهم الرواتب من أجل القيام بعمل الدعوة، فخطب خطبة عربية واضحة، وقد تناول الرجلان في كلامهما أموراً إسلامية عامة، أذكر منها فضل الحج، ولم أرهما تكلما في أشياء من الأشياء الواقعة في هذه البلاد كحالة المسلمين فيها، وما ينبغي للمسلم أن يفعله.

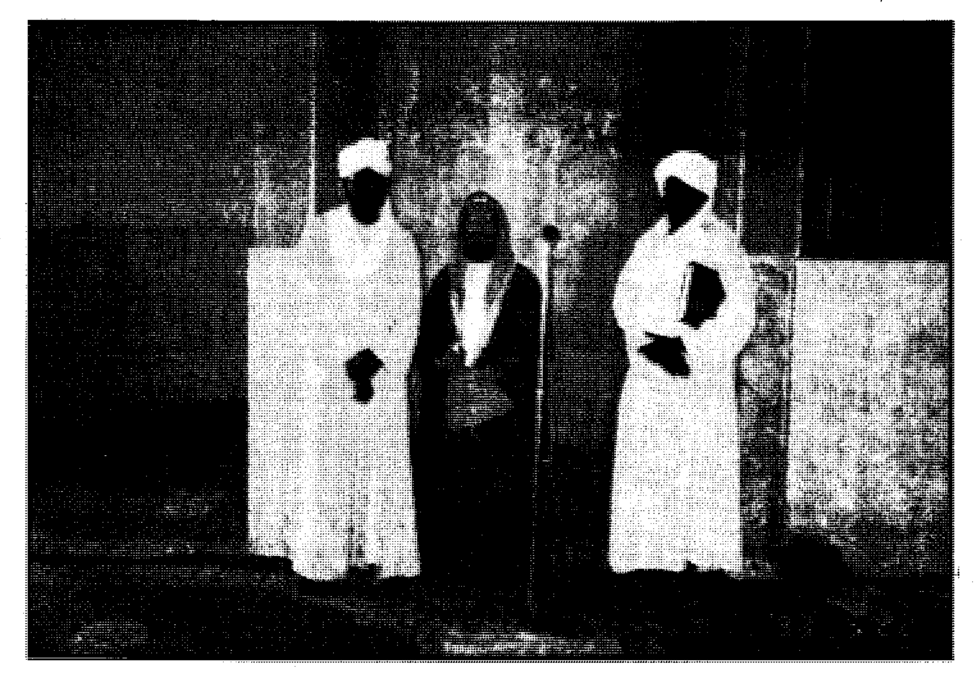
وبعد انقضاء الخطبة نهض المؤذن ليقيم الصلاة، ولكنه قال قبل ذلك بصوت من المكبر: استووا، سووا صفوفكم، والمعتاد عندنا وفي كثير من البلدان الإسلامية أن يقول الإمام ذلك لا المؤذن، ثم أقام للصلاة مثل إقامتنا لا يزيد على ذلك.

هذا والحر بالغ في المسجد لكثرة الزحام وانقطاع الكهرباء، فليس فيه ما هو يعمل إلا مكبر الصوت، ولذلك قصة قد يأتي الحديث عنها فيما بعد، وإن الكهرباء مقطوعة عن الجامع لكونه لم يسدد لشركة الكهرباء ما استحق عليه من مبالغ.

ولاحظت أن القوم قد جاءوا إلى الصلاة في ثياب نظيفة يغلب عليها البياض، ولكن ذلك دون عناية الإفريقيين من أهل إفريقية الغربية الذين يتزينون باللباس يوم الجمعة، فيلبسون أحسن ما عندهم وأحسنه هو ما يكون قريباً من الملابس العربية، أو الملابس الفضفاضة التي كان يلبسها العرب في القديم، كأنما يأخذون بقوله تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾.

وعندما شعرت بالحر الشديد في الجامع، وعدم وجود حتى مراوح تبدد حره ذكرت ما قالوه من أن شركة الكهرباء تطالب إدارة المسجد بمليون دولار عن استهلاك الكهرباء لمدة عشر سنين، ولم ترسل الحكومة السعودية قيمة هذه الكهرباء، فعجبت من شيئين: أولهما: غلاء الكهرباء بحيث يبلغ استهلاك المسجد مائة ألف دولار في السنة مع أنه ليس فيه مكيفات، وإنما التكييف خاص بقاعة المحاضرات الملحقة به، وهي لا تعمل باستمرار بطبيعة الحال. والثاني: عجبت منه، وإن كنت أعرف سببه، وهو أنه لم توجد جهة في هذه البلاد تدفع ثمن الكهرباء إذا لم تدفعه الحكومة السعودية مع العلم بأن الحكومة السعودية لا تتولى إدارة المركز في الوقت الحاضر، وإن كانت هي التي بنته، وترممه الآن، ويخطب فيه أحد دعاتها.

ولا شك في أن حكومتهم هي حكومة علمانية ورثت هذا الوضع عن فرنسا ولم تغيره، ثم إنها عاجزة عن دفع كثير من النفقات المترتبة عليها، وهي تؤخر صرف رواتب الموظفين في بعض الشهور لعجزها عن توفير المال اللازم لذلك.



المؤلف في محراب جامع الملك فيصل

وعملتها هي الفرنك الإفريقي الغربي، وهو مرتبط بالفرنك الفرنسي،

ويشرف على إصداره لحساب الدول الإفريقية التي تستعمله، وهي التي كانت مستعمرات إفريقية سابقة البنك الرسمي في فرنسا، لذلك يعتبر كالعملة الصعبة التي لا تستطيع الحكومة أن تطبع منها شيئاً تدفع منه ما تلح الحاجة إلى دفعه.

المسلمون الجدد:

بعد أن فرغ الإمام مباشرة من الصلاة دخل ثلاثة أشخاص معهم رابع ذو مظهر مسلم.

فجلسوا في المحراب بين يدي الإمام فلقنهم الشهادتين، وتكلم معهم بالعربية التي لا يحسن غيرها مما يفهمونه، ولكنه لم يطل، وإنما دعا لهم لأن القوم صاروا يتدافعون خارجين من المسجد دون أن يتأنوا أو يتلبثوا لأداء السنة بعد الصلاة، وقد طلب مني إخواني المرافقون أن أنهض مسرعاً لأتمكن من الخروج من المسجد لأن الزحام يمنع من ذلك أو يضايق عند الخروج.

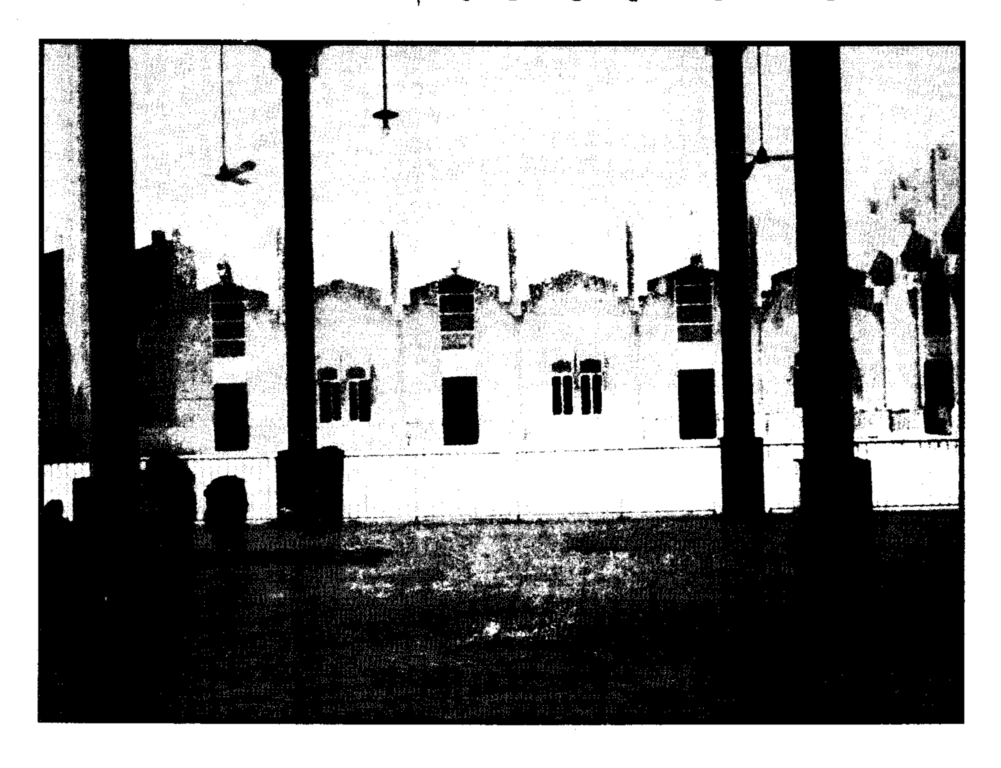
وكنت أردت الجلوس قليلاً لأرى حال أولئك القوم المسلمين الجدد، ولكن الإمام بنفسه نهض وجاء إليّ يقول: لنسرع في الخروج.

وأخبروني أن عادة إسلام الناس بعد صلاة الجمعة هي مستمرة، قلما تمضي جمعة من الجمع دون أن يسلم فيها أحد من الناس.

وقد علق الإخوة على ذلك متعجبين بقولهم: إننا لا نقدم لهم شيئاً من أمور الدنيا، ولا من الأمور التي يطلبها الإنسان لمستقبله في العادة لأننا لا نملك شيئاً من ذلك، فليست لدينا أموال ولا منح دراسية ولا وظائف لمن يسلمون كما يفعل المنصرون الذين يملكون أشياء كثيرة من هذا القبيل، ولكنه دين الله الذي وعد بنصره: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾.

ومع أنني في الصف الأول ومكاني قريب من الباب الأمامي، فإننا لم نخرج ونحن نصدق أننا سنخرج خروجاً طبيعياً لفرط الزحام واندفاع القوم إلى باب الخروج من المسجد مع أنهم كانوا في غاية الأدب والذوق حتى إنهم

كانوا رافعين أيديهم فوق رؤوسهم لأنها تمسك بأحذيتهم، وقد فعلوا ذلك لئلا تلامس أحداً من المصلين، ولكن الزحام كان بالغاً.



مصلى النساء في جامع الملك فيصل في إنجمينا

ولا شك أن ذلك كان منبثقاً من عادة متبعة عندهم في الخروج من صلاة الجمعة بعد الصلاة مباشرة، وقد شاهدت ذلك في عدة مساجد كبيرة في غرب إفريقية، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أنه قد انضم إليه سبب آخر وهو شدة الحر في الجامع، وطول مكثهم فيه لأن بعضهم قد حضروا مبكرين إليه.

زوار سعوديون:

عدت إلى الفندق فزارني الأخ منصور بن صالح الشلهوب سكرتير وزير الخارجية السعودية لشؤون التحليلات والدراسات، وهو حفيد محمد بن صالح بن شلهوب المعروف الذي كان أحد رجال الملك عبد العزيز آل سعود عند تأسيس المملكة، ومعه أحد موظفي وزارة الخارجية، وقد أخبرني أنه جاء إلى هذه البلاد من أجل إعطاء الحجاج سمات الدخول إلى المملكة

لغرض الحج، وأخبرني أن عدد الحجاج من شاد قد بلغ هذا العام ألفاً وأربعمائة وعشرة حجاج.

وقد بحثت معه بصفته من رجال وزارة الخارجية السعودية موضوع إعادة إعمار السفارة، وإعادة العاملين السعوديين فيها أي إعادة فتحها وتعمير المبنى الذي هو ملك للحكومة السعودية، فذكر أنه سوف يبحث ذلك، وكنت سألت الخارجية السعودية قبيل مغادرتي إلى (شاد) عن هذا الأمر فأخبروني أن الأمر قد صدر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بإعادة افتتاح السفارة في بلدين كانت السفارتان قد تركتهما بسبب الاضطرابات، وهما (شاد) و (أوغندا)، مع أن شاد أولى من أوغندا لأن السفارة السعودية في نيروبي موجودة بقرب أوغندا، بخلاف (شاد) التي توجد سفارة سعودية في جارتها الكاميرون، ولكن العاصمة ياوندي التي تقع فيها السفارة بعيدة عن عاصمة شاد، وكذلك توجد سفارة سعودية في لاجوس عاصمة نيجيريا القديمة وهي بعيدة أيضاً، إضافة إلى كون شاد بلداً عربياً تبلغ نسبة المسلمين من أهله ضعف نسبة المسلمين في أهل أوغندا.

ثم تحدثنا في موضوع قطع الكهرباء عن هذا المركز العظيم، وأنه ينبغي لنا أن نعمل كل في جهته على إعادة الكهرباء بصرف المبالغ المتأخرة كما نعمل الآن في ترميم المسجد، وقد رأيت اليوم لافتة عليها كتابة بالعربية: ترميم جامع الملك فيصل تمويل وزارة المالية والاقتصادية الوطني بالمملكة العربية السعودية.

مأدبة شادية:

أخبرني الإخوة أن البرنامج يشتمل على عشاء خارج الفندق، وذكروا أنه في بيت أحد وجهاء المدينة.

غادرنا الفندق في السابعة والنصف على سيارتينا المعهودتين، فوصلنا إلى بيت مضيفنا، وهو دارة (فيلا) واسعة دخلت السيارات داخلها، ووجدناه قد أعد المائدة في الهواء الطلق على بسط مفروشة، واسمه (عبد الله خليفة)، سلم علينا الرجل وأكثر السلام والتحية والشكر على دخول بيته، ولم نعرف ما إذا كان عربياً أو شادياً مستعرباً، فهكذا القوم لا تعرفهم إلا إذا

عرفك بهم معرف، لأن لغتهم العربية واحدة في فصاحتها واستعمالها وحدها، اللهم إلا إذا كانت شمس إفريقية أبقت على بياض في وجه العربي، وقليلاً ما تفعل ذلك، وقد أخبرونا أنه عربي، وقال بعضهم: إنه من أصل ليبي، ولكنه مقيم في شاد، ويلقبونه بالحاج.

وقد حضر المأدبة عدد من علية القوم منهم:

الاسم	الصفة
١-الطاهر قاسى	المستشار برئاسة الجمهورية
٢-السيد/محمد صالح آدم	المستشار الخاص لرئيس الجمهورية
٣-السيد/د.أبكر عبد الحميد	مدير عام وزارة التربية الوطنية
٤-السيد/عثمان جده	وزير الخدمة العامة سابقاً
٥-سعادة السيد/محمد صالح النظيف	مدير عام وزارة الاتصالات
٦-السيد/محمد عبد الكريم	مدير إدارة الشؤون الدينية
٧-سماحة الشيخ/حسين حسن أبكر	رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٨-فضيلة الشيخ/جبريل موسى محمد	نائب رئيس المجلس
٩-السيد/عبد القادر محمد خضر	الأمين العام للمجلس
١٠-السيد/تيجاني علي حسين	بروتوكول وزارة الخارجية – المراسم
١١-السيد/أحمد محمد حسب الله	بروتوكول وزارة الخارجية – المراسم
١٢-الأستاذ/منصور بن صالح شلهوب	وزارة الخارجية السعودية
١٣-الأخ/عبد الرحمن الزهراني	وزارة الخارجية السعودية
١٤-فضيلة الشيخ/سعد حسين الواعر	مستشار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

وقد تفرقوا في أنحاء المكان المتسع، وكان حاراً رطباً بعد المطر الذي نزل، فأحضروا لي مروحة كهربائية صارت تروح علي وعلى من بجانبي خاصة وذلك لقلة المراوح عندهم، بل لقلة الكهرباء عندهم حتى صارت تعد عندهم من الكماليات، مع أنها الآن تعتبر من الضروريات في سائر أنحاء العالم، وبخاصة في البلدان الحارة التي تخفف من حرها، وتحفظ الأغذية والأشربة من التغير.

ومع ذلك كان صغار الجراد البري وهو الذي نسميه في بلادنا القبص وليس بالجراد المعتاد، وإنما هو من فصيلته، وغيره من الحشرات الطائرة تتساقط علينا تتبع النور في الظلام كما يكون عليه الحال عندنا في فصل الربيع عندما يسقط المطر، وتركد الريح، ولم ينفع في ذلك ترويح المروحة لأنها لا يرتفع هواؤها عالياً.

وقد صار الجراد هذا وغيره من الحشرات الصغيرة يدخل بين الإنسان وثيابه، فيكون مما يلي بدنه إذ يدخل مع الكم والجيب، وأذكر أن واحدة دخلت في داخل (شماغي) الذي على رأسي وبقيت فيه إلى الغد، وقد أخرجتها منه حية بعد أربع وعشرين ساعة.

وهذا كله يؤكد الجو الصحراوي الخصب السائد في هذه المنطقة من شاد.

وفي هذا الحوش شجرة أنبه (مانقو) مثمرة، فهي تجود في هذه المنطقة، ونسيت أن أقول إن تحية إدارة الفندق أو لنقل ضيافتها الخاصة لنا كانت طبقاً من الفاكهة فيه الأنبه (المانقو) هذا والموز الشادي الجيد الذي ذكروا أنه يأتيهم من جنوب البلاد، وقطع من البطيخ الأصفر الشمام وليس بالجيد عندهم، وقد جربته في غير الفندق وهو صلب، وكذلك قطع من البطيخ الأخضر الذي هو الحبحب عندنا، وليس في جودة البطيخ الذي عندنا، وتفاحة واحدة مستوردة، وجاء الطعام عندما فرشوا الخوان وهو السفرة إلا أنه موضوع على الأرض كما نفعل نحن تماماً بعد أن أحضروا إبريقاً وإناء يصب فيه الماء يغسل الغاسل يده فيه وهو جالس ويدور به شخص من أهل البيت أو أتباعهم على الجالسين.

وجاؤوا بصحن واسع كبير يحمله اثنان فيه خروف كامل مصلي، والصلي غير الشيّ، فشي اللحم وضعه على النار مباشرة، وأما صليه فإنه أن يكون قريباً جداً من النار فينضج من دون أن يباشرها، ولذلك كان لحمه لذيذاً ناضجاً، وقد وضعوا على سفرة أخرى تحلق عليها جماعة من المدعوين خروفاً آخر في صحن آخر مثل الذي عندنا، وكنت أظن الخروف ساذجاً أي وحده لم يخالطه شيء، ولكن مضيفنا الوجيه أحمد خليفة جاء ومعه سكين كبيرة شق بها بطن الخروف، فأسفر عن حشوة لذيذة قد غرقت في الدسم وهي من الأرز الذي لم أعرفه أول الأمر لكونه منتفخ الحبات كبيرها، ولكن القوم فيما يظهر ينقعونه في ماء أو نحوه، ولذلك ظننته حمصاً أو ذرة صغيرة منتفخة ومعه قليل من اللوز، ولكنه من ألذ ما أكلت من حشوات طعام اللحم.



التحلق على صحون أخرى بعد الخروف في مأدبة الحاج عبد الله خليفة

وأكلت منه كثيراً سواء من لحم الخروف أو من حشوته، وكذلك أكل الذي كانوا بجانبي ظاناً أن هذا اللحم هو المائدة كلها ولا طعام بعده.

وقد قست ذلك في ذهني على عدد من البلدان التي يوجد فيها اللحم بكثرة، وأقربها عهداً عندي مأدبة عشاء في بلدة إيلانغ في جمهورية منغوليا، وتبعد ٤٥ كيلومتراً عن عاصمتها (أولان باتور)، فقد كانت المأدبة خروفاً وحده لم يخالطه مخالط من طعام آخر من خبز أو أرز سواء أكان معه أو على السفرة، وإنما جاؤوا بعد ذلك بمرق الخروف ساذجاً لم يخالطه مخالط أيضاً فوزعوه في أوانٍ على الحاضرين.

وقد وصفت ذلك في كتابي الذي عنوانه: ((في شمال شرق آسيا)).

وقد حملني على اعتقاد ذلك أن المأدبة التي قدمها مضيفنا هنا الأخ عبد الله خليفة قد ضمت خروفين مع حشوة فيهما مكلفة، ولكنه رفع الخروفين بصحنيهما وأتى بصحن آخر بعد ذلك.

ولما أبديت للإخوة ما ظننته من كون الخروف لا مزيد عليه قالوا: إن من عادتنا أن يقدم اللحم في أول الطعام على اعتبار أنه الرئيسي فيه، فقلت هذا كما يقدم الإيطاليون صحن (المكرونة) في أول الطعام، وكما كنا نقدم نحن صحن التمر في أول المأدبة، وإن كنا تركنا أو ترك أكثرنا هذه العادة الجيدة، حيث استعاضوا عن التمر النافع بحلويات لا تزيد على كونها سكريات اصطناعية ونشأ لا يحتاج إليه من يأكل غيره من النشويات.

كان الصحن الثاني كبيراً فيه عدة أوانٍ مليئة بالأطعمة من ألذها الذي أكثرت منه لحم مسلوق مع باميا قد طبخت حتى اختلطت به من دون أن تكون فيها لزوجة ظاهرة، فربما يكونون قد عالجوها أو تكون الباميا عندهم أقل لزوجة من الباميا التي عندنا.

وإناء آخر فيه لحم مسلوق مع خضرات أخر، وأنواع من السلطة.

وفي النهاية غسل القوم أيديهم من إبريق يحمله حامل ويسقط ما يغسل يديه به في إناء كالصحن المقعر عليه غطاء فيه خروق ينفذ منها الماء.

وهذه كانت عادتنا في القديم من غير تغيير قبل أن يتم تعميم ماء الأنابيب في بلادنا، ويصبح الناس يغسلون أيديهم من أحواض غسيل الأيدي التي تكون بجانب الحمامات.

ثم عدنا إلى أماكن جلوسنا التي لم نغادرها إلا عندما قمنا لغسل

الأيدي، فأحضر مضيفنا الفاكهة، وكلها مستورد من العنب والتفاح والبرتقال وهذا من كرمه، وإلا فإنه كان يمكنه أن يقدم من الفاكهة المحلية، ويعتذر إذا أراد من كون الفاكهة هي الموجودة عندهم.

كان المجلس مجلساً علمياً لأن الحاضرين كانوا من علية القوم، ويتحدثون بما أريد أن أسمعه من بعض الأمور المتعلقة بماضي هذه البلاد وحاضرها، وإن كان ماضيها البعيد أكثر غموضاً - بطبيعة الحال - من ماضيها القريب.

ومن الحاضرين الأخ الدكتور أبو بكر تعلم في فرنسا على منحة من رابطة العالم الإسلامي، وكان موضوع رسالته عن الهجرات العربية إلى شاد إلا أنه مكتوب بالفرنسية، ولذلك يصعب علي الانتفاع به.

كما دعوا إليها الأخ منصور الشلهوب ورفيقه الموظف في وزارة الخارجية السعودية، وقد تطرق الحديث معهم عن سعر اللحم في بلادهم، فذكروا أنه يباع جزافاً ولا يوزن أبداً، وهذه عادة كانت موجودة عندنا أذكر مما يتعلق بها نادرة يحكيها أهل بلدتنا (بريدة) عن رجل أجنبي يقولون: إنه درويش مر بهم حاجاً، واستقر بعد رجوعه من الحج فيها فترة، فسألوه عما إذا كان سيقيم عندهم فقال: كيف أسكن بلدة يبيعون أفخر طعام الإنسان وهو اللحم جزافاً، ويبيعون فيها علف الحيوان وزناً، وكنا نبيع القت وهو البرسيم بميزان كبير من الخشب انقرض استعماله الآن.

يوم السبت: ١٤١٣/١٢/١هـ ـ ١٩٩٣/٥/٢٢م.

إلى أم التيمان:

هذا اليوم من الأيام التي تطلعت إليها بشغف منذ أمس، وذلك أن القوم جزاهم الله خيراً قد وضعوا في برنامج زيارتي لشاد زيارة مدينة اسمها (أم التيمان) والتيمان: جمع توم الذي هو المولودان في بطن واحدة، وهذا اسم عربي واضح، ولا عجب في ذلك لأنها واقعة في منطقة يسكنها عرب أقحاح يقال لهم (السلامات) واحدهم: سلامي، وذكروا أنه ربما كان سبب التسمية أن أول من سكنها شيخ من أهل الدين فيها توأم، وهذا أمر ظني لا نتيقن منه.



الطائرة التي كان من المقرر أن نسافر بها إلى (أم التيمان) في شاد

وتعتبر (أم التيمان) عاصمة منطقة السلامات التي سميت باسم هؤلاء العرب، وقد ذكروا أنها منطقة خضراء مطيرة، وأن بقربها حديقة للحيوان الوحشي طليقاً يمكن للمرء أن يتفرج برؤيته، وأنهم سوف يخصصون لي ولمرافقي منهم طائرة نذهب بها في الصباح، ونعود في المساء وأن رئاسة

الجمهورية قد أخبرت محافظ المنطقة بإعداد برامجنا هناك، وتبعد (أم التيمان) عن العاصمة (إنجمينا) بثمانمائة كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من العاصمة.

وكل هذه أوصاف مغرية لمثلي، ومعنى (أم التيمان) ذات التيمان، وهذا اصطلاح موجود بكثرة في لغتنا العامية، وعندهم أيضاً من أسماء القرى والأماكن: (أم دم)، و(أم حجر)، بل إن مدينة (أبشه) المشهورة في شاد أصلها (أبو عايشة) ثم خففت على مر السنين.

فرحة لم تتم:

غادرنا الفندق في السابعة مع الإخوة المرافقين قاصدين المطار، وكانت الشوارع شبيهة بالخالية.

وكان الجو صاحياً، إلا أن ذلك لا يدل على كون المطر لن ينزل لأن العادة أن يتكاثف السحاب عندما ترتفع الشمس.

جلسنا في قاعة كبار الزوار في المطار ننتظران تجهز الطائرة وشربنا الشاي فيها وكان الجو صحراوياً مقبولاً لا يحتاج معه إلى مكيف، والتقطنا صورة تذكارية فيه تطل عليها صورة العقيد إدريس دبى، رئيس الجمهورية وهو شاب عمره (٣٥).

وقد أمضينا الوقت في حديث مفيد مع هؤلاء الكرام الذين في المطار ومنهم الوزير عثمان جده وزير الأشغال، واسم والده محمد البشير، إلا أنه على اسم جده فصار لا يعرف إلا بذلك احتراماً للأسرة من أن تنطق باسم الجد في مناداة الحفيد في المنزل ثم صار اسما له لا يعرف إلا به، قالوا: ومثل ذلك من سمي على خاله يسمونه (خاله) ومن سمي على عمه يسمونه (أمه) أو (عمه)، وكل ذلك إذا كان عمه أو خاله كبير القدر.

ولاحظت أن الإخوة الشاديين إذا تحدثوا فيما بينهم لم يتحدثوا إلا بالعربية مثلما كانوا يتحدثون معي، وهذا أمر ظاهر عرفته منذ أن وصلت إلى بلادهم إلا أن الشيء الذي تأكد عندي الآن قرب لهجتهم من لهجة أهل نجد، فقد بحثت ذلك معهم وذكرت لهم ألفاظاً عامية من لغة أهل نجد لا

تستعمل في حواضر الحجاز ولا في مصر على سبيل المثال فعرفوها، وذكروا أنها تستعمل عندهم.

كانت الطائرة واقفة أمام باب القاعة، ونحن نشاهد أحد المختصين يفحصها الفحص المعتاد ثم انصرف عنها ونادانا للركوب، وقبل الركوب التقطنا صوراً مع بعض المرافقين، ومنهم الوزير (عثمان جده)، ثم ركبنا الطائرة ونحن ثمانية والطيار وحده ليس معه مساعد وهو أخ (شادي) وهؤلاء الإخوة المرافقون في الطائرة هم:

الأخ/ الطاهر قاسى	المستشار برئاسة الجمهورية
والوزير/ عثمان جده	
والشيخ/ حسين حسن أبكر	رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
عبد القادر محمد خضر	الأمين العام للمجلس
تيجاني علي حسين	بروتوكول وزارة الخارجية – المراسم
أحمد محمد حسب الله	بروتوكول وزارة الخارجية – المراسم

سارت الطائرة من ساحة وقوف الطائرات وهو صغيرة ذات محركين اثنين، وقد ملأنا مقاعدها ونحن ثمانية كما قلت، ثم انطلقت إلى حيث مكان الإقلاع وسمعنا الهاتف فالتفت إلينا الطيار وقال: جاء من (أم التيمان) خبر يقول: إنه يتعذر نزول الطائرة فيها لأن مطارها طيني ممهد غير مزفلت، وكان نزل عليه أمس مطر غزير أفسده، وكانوا يؤملون أن يصلحوا منه في الصباح ما يمكن الطائرة من النزول غير أن المطر نزل غزيراً في الصباح.

وهنا نزلنا من الطائرة آسفين، وعدنا إلى قاعة كبار الزوار فاتصل بهم الإخوة المرافقون المسؤولون عن برنامج الزيارة، ومنهم الأخ الطاهر القاسي مستشار رئيس الجمهورية فكان الجواب الانتظار قليلاً، ثم جاء الخبر بأنه لا يمكن السفر وأنهم حددوا عوضاً عنه السفر غداً إلى خارج العاصمة بطريق البر إلى منطقة سياحية على نهر (شاري) تبعد (٨٠) كيلومتراً من العاصمة.

الغرنوق هو الرهو:

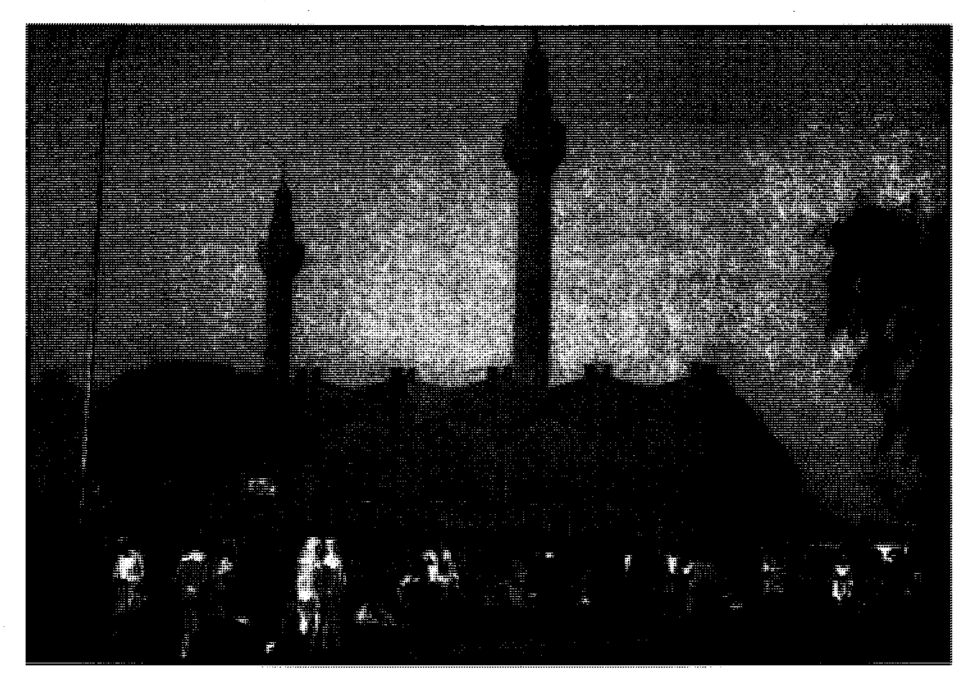
عدنا إلى الفندق لقضاء فترة من الراحة، ثم رسم برنامج جديد لهذا اليوم، فمررنا بأشجار من الأشجار الكبيرة قد جللتها أعداد كبيرة من طيور بيض نسميها (الغرانيق) واحدها غرنوق.

فذكروا أنهم يسمون هذه الطيور (الرَّهْو)، وأن الغرنوق هو طائر آخر من طيور الماء أكبر من هذه وأقل بياضاً.

ثم أروني إياه بعد ذلك وهو الذي نسميه في بلادنا بالرهو، وهو من طيور الماء ذات اللون الرمادي.

إلى جامع الملك فيصل:

ويصح أن نقول إلى (مركز الملك فيصل) لأن جامع الملك فيصل تحيط به مرافق وأبنية ملحقة به، بنيت عند بنائه مثل عدة مدارس ومنازل للإمام والمؤذن، وقاعة محاضرات ضخمة حديثة التجهيز، ومستوصف طبي، ومكتبة واسعة.



جامع الملك فيصل في إنجمينا

إضافة إلى الباحات والأفنية المكشوفة المحيطة به.

والقصد من زيارتي لجامع الملك فيصل هو: الجولة في مركز الملك فيصل والاطلاع على المدارس التي أنشئت في بنايته وتجديد العهد به، وذلك أمر ليس لمجرد الاطلاع، وإنما هو من أجل تقدير المساعدات التي ستقدمها رابطة العالم الإسلامي لتلك المؤسسات.

كان الجلوس في أول الأمر في مقر إدارة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في شاد حيث قدمت لهم من رابطة العالم الإسلامي مائة ألف ريال من أصل خمسمائة ألف ريال، كنا قد وعدناهم بها، وبأنني سوف أوقع من حكومة (شاد) محضراً بها.

وسوف يأتي ذكر هذا المحضر وتفصيل الأمور المذكورة فيه عندما نوقع عليه بإذن الله.

مستوصف مركز الملك فيصل:

كان أول المؤسسات الملحقة بجامع الملك فيصل (مستوصف الملك فيصل)، وهو مستوصف كبير بالنسبة إلى المستوصفات في هذه البلاد إذ يراجعه ما بين مائة إلى مائة وخمسين مراجعاً يومياً، رأينا بعضهم من النسوة معهن أولادهن.

وترسل المملكة الأدوية اللازمة له، وإن كنت قد استشكلت كونهم يخزنون هذه الأدوية دون ثلاجات أو غرف مبردة، وإنما يكون خزنها في غرفة معتادة، وقال الأخ الطبيب في المستوصف الدكتور عبد الله إسحاق: إننا نخزنها هنا، ولا خوف من تلفها، وليس لدينا إمكانات لغير ذلك.

والدكتور عبد الله إسحاق شادي تعلم في مصر، وتخرج من الخرطوم في عام ١٩٨٦م طبيباً عاماً.

إدارة جامع الملك فيصل:

رأينا الترميم في المركز قائماً على قدم وساق تقوم المملكة السعودية بذلك على نفقتها، ويشمل العمل الآن العمل في تجديد المجاري التي تحيط

بالمركز؛ لأن بعضها قد سد وتوقف جريان المياه فيه، كما يشمل أعمال التبييض والدهان وإصلاح النوافذ والأبواب.



مع الشيخ حسين أبو بكر لدى لافتة جامعة الملك فيصل في المباني الملحقة بالجامع (تحت الترميم)

وجميع العاملين فيه مرسلون من المملكة.

وعلى مقر الإدارة لافتة مكتوبة بالعربية تحتها الفرنسية: « إدارة جامع الملك فيصل ».

ومما يجدر ذكره أنني اتصلت بوزارة المالية في الرياض قبل سفري إلى شاد بيوم أسألهم عما لديهم حول جامع الملك فيصل هذا فأخبروني أنهم يقومون الآن بترميمه من الملايين الثلاثة التي كنت قد اقترحتها على الهيئة العليا للدعوة الإسلامية عندما كنت أعمل في وظيفة الأمين العام للدعوة الإسلامية وأمين الهيئة العليا، واقترحت أن تخصص المملكة ثلاثة ملايين دولار لعمارة حوانيت تبنى في (أنجامينا)، وتكون وقفاً على جامع الملك فيصل تصرف من ريعها المصاريف المتكررة التي يحتاج إليها الجامع، وقد

وافقت الهيئة العليا للدعوة الإسلامية على ذلك، وهي مؤلفة من خمسة وزراء رئيسهم الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران، وقد وافق الملك على ذلك، وذلك في عهد الملك خالد ابن عبد العزيز، إلا أن الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - كان آنذاك ولياً للعهد فوض إليه الملك خالد البت في الأوراق والمعاملات التي تتعلق بشؤون الدولة فوافق على ذلك، ورصد المبلغ عند وزارة المالية من ذلك الحين، أي منذ أكثر من عشر سنوات.

والآن ذكرت الوزارة أنها ترمم المركز، وهو جامع الملك فيصل وما ألحق به من أبنية وإنشاءات من المبلغ المذكور، وأنها بصدد بناء حوانيت من باقي المبلغ، وإذا لم يكف نظرت في زيادته.

الخزانة الخالية من الكتب:

دخلنا قاعة خزانة الكتب، فوجدناها فارغة إلا من عش العنكبوت الذي شملها، ووجدنا خزائنها فاغرة أفواهها قد بخل عليها الإخوة حتى برد أبوابها إليها، أو بتعبير أكثر شاعرية: قد بخلوا حتى بإسدال جفنيها على عينيها عندما ماتت.

مع أنها والحق يقال لم تكن حية حتى تموت، فقد جهزتها المملكة بالأثاث المناسب مثلها مثل غيرها مما في هذا المركز، ولكن الحرب الأهلية قد منعتها من تجهيزها بالأهم من ذلك وهو الكتب.

وقلت للشيخ حسين حسن أبكر رئيس المجلس الإسلامي الذي يشرف الآن على المركز، ويعمل فيه: أمعنى هذا أنه لم يصلكم أي كتاب للمكتبة؟ فقال: نعم، إنما وصلتنا كتب من ليبيا ومن جهة أخرى ذكرها وهي قليلة، وأما المملكة فلم يصلنا منها شيء، وقد وعدنا الآن أحد الإخوة في جدة بأنه سيرسل لنا كتباً كثيرة، ولكنه لم يشحنها حتى الآن.

فسألته عما إذا كانوا كتبوا لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، أو لرئاسة الإفتاء والدعوة في الرياض، وهما الجهتان اللتان ترسلان الكتب لخارج المملكة يطلبون منهما إرسال الكتب لمكتبة الملك فيصل؟ فنفى ذلك.

وأسفت لهذا الجهد الذي ضاع على مدى سنين في إعداد هذه (المكتبة)، وهي خزانة الكتب التي لم ينتفع بها، ولم أدر أألوم بلادنا التي بنتها وجهزتها بالأثاث، ولم ترسل إليها الكتب بسبب الحرب الأهلية، أم ألوم الإخوة الشاديين الذين لم يستطيعوا الحصول لها على كتب.

من الصحيح الواضح أن أحوالهم المالية سواء منهم الحكومة وعامة الشعب لا تمكنهم من شراء الكتب التي تحتاج إلى أموال غير كثيرة، ولكن كونها ليس فيها كتاب واحد، ولم يلحوا في طلب ذلك من القادرين عليه أمر مؤسف.

مكتب القضاء:

ثم انتقلنا لرؤية مكتب كبير ضمن المبنى الملحق بجامع الملك فيصل ذكروا أنه هو قسم القضاء، وأنه يفصل في القضايا بمقتضى الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، وأن الحكومة تجيز قضاءه وتنفذه.

وهذا المبنى هو تحت الترميم في الوقت الحاضر وهو متسع وجيد، ورأينا العمال يعملون فيه، وأكثرهم من جنوب آسيا الشرقي من الفطس القصار الذين يعملون أكثر مما يعمل الطوال الكبار، لا يثنيهم عن العمل إلا انقضاء النهار، مع أنهم أقل حاجة للمال من أهل هذه البلاد الذين لا يعملون إلا فيما ألفوه من الأعمال، وهي قليلة غير سهلة المنال.

يا ضيعة الأوقات:

منعنا الترميم الجاري في المسجد وإغلاق الطريق القريب الذي يصل بنا إلى المسجد من داخل فنائه، فحملنا ذلك على الدوران حول الجامع، وكان هذا أمراً مفيداً، وقد رأيت العمال نزعوا بلاطاً تالفاً مما حول الجامع يريدون إبداله ببلاط جديد وهذا أمر جيد.

ولكن الأمر غير الجيد بل المحزن لي هو أنني رأيت طوائف من الشبان ومن متوسطي الأعمار ممن يمكنهم أن يعملوا فيستفيدوا ويفيدوا بلادهم وهم نائمون بالعشرات في ظلال الأشجار الكبيرة المحيطة بالجامع، مع العلم بأن الجامع واقع في وسط المدينة التجاري المهم، إذ تقع إلى الجنوب منه

مباشرة أسواق تجارية ذات حوانيت تتقدمها أقواس عربية موحدة في هذا الشارع.



السوق في إنجمينا

وأناس نائمون بكثرة تحت ظلال الأشجار وأكثرهم يبدو مستغرقاً في نومه، وكأنما كان قد فرغ من العمل، مع أن الوقت ضحى، وأن البيع والشراء في السوق على أشده، ولكن هؤلاء النيام لا علاقة لهم بذلك.

وليس هذا هو الدليل على عدم العمل، وإنما هنالك طوائف من الشباب والرجال قد استندوا إلى الحيطان وهم في كامل وعيهم، ولكن ليس لهم عمل إلا الحملقة في الناس، لأنهم فارغون من العمل.

وعجبت عندئذٍ من شكوى بعض الدول الفقيرة من الفقر وسؤال المال من الأغنياء العاملين.

فقلت في نفسي: لماذا لم يعملوا حتى يكونوا مثلهم؟

ولا شك أن هذا السؤال ساذج، أو لا يخلو من السذاجة، فميادين العمل

هنا ضيقة أو معدومة، لأنه لا توجد مصانع ولا معامل ولا مؤسسات يعمل فيها العاطلون عن العمل، ولكن السؤال يبقى كما هو بصيغة أخرى: لماذا لا توجد هذه الدول العمل لأبنائها؟



ساحة جامع الملك فيصل مع جزء من السوق والمنطقة المحيطة به

(التقطتها من سطح الجامع)

وهذا سؤال أيضاً لا يخلو من السذاجة لأن إيجاد العمل يلزم له المال والخبرة الفنية، وحسن الإدارة، والإخلاص في العمل، وشيء مهم آخر وهو الاستقرار والاطمئنان إلى المستقبل، والعدل بين الناس الذي يجعل كل واحد منهم ينصرف إلى عمله آمناً على نفسه وماله ضامناً لمستقبله.

ويبقى السؤال الأخير: إذاً ما هو الحل؟ والحل يكمن في البدء بمباشرة هذه الأمور اللازمة لإيجاد العمل المثمر، وإن من سار على الدرب وصل.

فهل هم الآن سائرون على الدرب؟

لقد قلت في باطني وأنا أرى هؤلاء الشبان النائمين أو المنبطحين تحت

ظلال الأشجار، وكأنما كفوا همّ الدنيا والآخرة: يا ضيعة الأوقات، على حد قول الشاعر:

فيا ضيعة الأعمار تمضي سبهللا   على غير ما علم وفي غير طائل

وشيء محزن آخر:

وهو أن الشارع الذي يقع إلى الجنوب من المسجد، وهو شارع تقع الحوانيت التجارية المزدهرة جنوبه، ويقع جامع الملك فيصل شماله، هو في غاية السوء من القذارة، فقد تظافرت بقايا الأمطار التي هطلت عليه أمس مع مياه آسنة متسربة من إحدى البالوعات مع طينه الذي لم أر فيه أثراً للزفت، وإن كان الزفت موجوداً على امتداد هذا الشارع على أن تجعله مثلاً أردأ في عدم النظافة، بل في الإهمال بوجه عام، وتسير السيارات فيه ولا بأس بها من الكثرة مع الدواب، فتحرك هذه المياه الآسنة فتزيدها نتناً، وتزيد منظرها قبحاً.

والأدهى من ذلك أن النفايات والقذارة تمتلئ بها جوانب الشارع، وتحفل بها أرصفته، حتى أرصفة الجامع لا تخلو من النفايات من الخرق البالية والأوراق الممزقة وأوراق الأشجار، ولا عهد له بغسل أو تنظيف.

وقلت هنا ما قلته عندما وصلت أول مرة: الفقر من الله ولكن القذارة ليست من الله.

داخل الجامع:

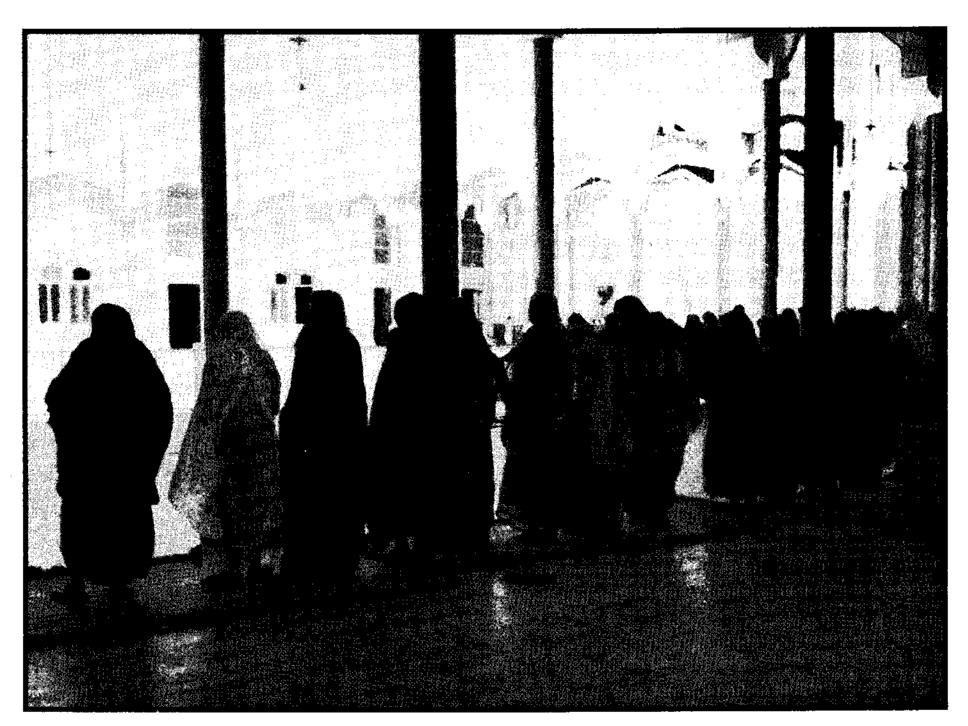
دخلنا المسجد الجامع وقد أوشك أذان الظهر ولم يؤذن بعد، فرأيت طوائف من الناس في المسجد ما بين قارئ للقرآن ومصلٍ، وهؤلاء عددهم قليل بالنسبة للنائمين فيه، وإن كان هؤلاء أكثرهم من كبار السن الذين سيصلون فيه عندما تحين الصلاة.

ورأيت في داخل المسجد من عدم العناية ما أفزعني، فلا أرى أي أثر للتنظيف في باحات المسجد ولا حيطانه، حتى إن أركانه الداخلية قد ركبها عش العنكبوت ولم تصل إليها أي مكنسة، وذلك لكونها مرتفعة، لأن سقف الجامع عالٍ، ولا تصل الأيدي إلى تنظيفها بالمكنسة، وحتى سجاده

الثمين رأيت الذي يلي مدخل الجامع من جهة الغرب منه قد تآكلت أطرافه من وطء الداخلين الذين ربما كان بعضهم لم ينشف رجليه، ولا من أحد تبرع فرفع ذيل السجاد الثمين الذي هو من أغلى السجاد عن مدخل الباب.

وشيء مفرح:

والشيء المفرح في هذا المجال أن المسجد الجامع لم يشهد أي تخريب إبان الحرب الأهلية التي استمرت في العاصمة (إنجمينا) لمدة تسعة أشهر، فلم يصبه إلا صاروخ واحد أصاب حائطه ولم يتضرر منه ضرراً يذكر، مع أن مثل هذا الجامع من الأبنية القوية التي يتحصن بها المتحاربون عادة، فيحاول خصومهم أن يدكوها عليهم.



نسوة يصلين في جامع الملك فيصل في إنجمينا

والأمر الثاني أنه رغم كون كل المحلات العامة المهمة التي سلمت من التخريب قد نهبت أثناء الحرب والفوضى إلا ما في المسجد، فبقي سجاده الثمين الذي تكفي الواحدة منه لسد فقر أسرة فقيرة لم يمس بسوء، لم يسرقه سارق، ولم يتلفه متلف، بل كان الجميع يحترمونه، ويحترمون

الجامع، رغم كون الجامع قد ظل لسنوات كاليتيم الذي ليس له من يكفله أو يرعاه.

وهذا ما نفّس عني بعض ما أصابني من منظر الشبان النائمين تحت أشجار النيم في وقت العمل، ومن الأوساخ والأقذار السائدة حول الجامع مثل غيره من ميادين العاصمة، وزادني ارتياحاً أن رأيت صفاً من الإخوة المصلين أكثرهم من كبار السن قد جلسوا في الصف الأول يروحون عن وجوههم بمراوح يدوية من الخوص أظنه خوص الدوم، أو خوص النارجيل، وهي تشبه المراوح اليدوية التي كنا نستعملها قبل تعميم الكهرباء عندنا، إلا أن بعضها ذات شكل مستطيل عريض الأعلى وهو البعيد عن مقبض اليد.

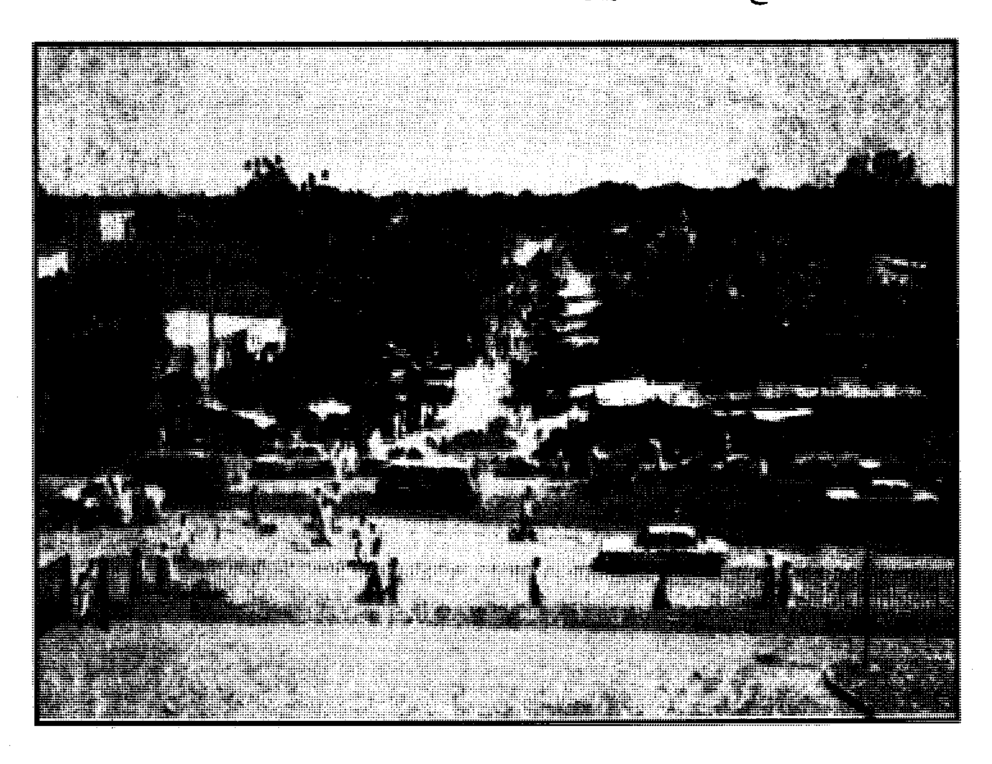
وشيء مفرح آخر:

وهو أن المؤذن أذن للظهر ونحن في المسجد أذاناً فصيحاً بل نقياً شجياً، فصار الناس يتقاطرون على الجامع، وقال الشيخ حسين أبكر: إننا إذا انتظرناهم تأخرنا فلنصلِ الآن، فصليت بهم إماماً الظهر ركعتين فأكملوا بعدي وجمعت العصر بعدها ركعتين، ثم صعدنا لسطح الجامع فرأيت الداخلين إلى المسجد زرافات أكثر مما يكون دخولهم لمساجدنا يوم الجمعة مع أن اليوم هو السبت، وأن الصلاة هي صلاة الظهر المعتاد، فكانت جموعهم متصلة من باب الجامع يدخلون إليه إلى داخل الأسواق التي هم مقبلون منها، ومنها سوق يسمونه (سوق البصل) لأنه كان يباع فيه البصل، والآن يباع فيه ويباع فيه غيره.

وقد قدرت هؤلاء بعدة آلاف، وقال الإخوة المرافقون من أهل الجامع العاملين فيه: إن صلاة الظهر في الأيام المعتادة يحضرها مصلون يصل عددهم إلى أربعة آلاف، وأما الآلاف الثلاثة فإنها تعتبر قليلة، وهذا هو المعتاد في كل يوم، أما يوم الجمعة فقد ذكرت من قبل أن عدد المصلين الذين يحضرونها في جامع الملك فيصل بثلاثين ألف مصلٍ لأن المسجد يمتلئ على سعته، وتمتلئ أفنيته والساحات والأرصفة العريضة خارجه.

ولما أبديت عجبي وإعجابي بذلك قال إخواننا وفيهم الأخ حسب الله موظف المراسم الذي يرافقني: إن الشاديين يحرصون على حضور صلاة

الجماعة، وقلّ من يفرط فيها، وإن من يفعل ذلك منهم فإنه ينزل قدره عند الناس، بل يصبح من المحتقرين.



شارع في إنجمينا

(التقطتها من سطح جامع الملك فيصل)

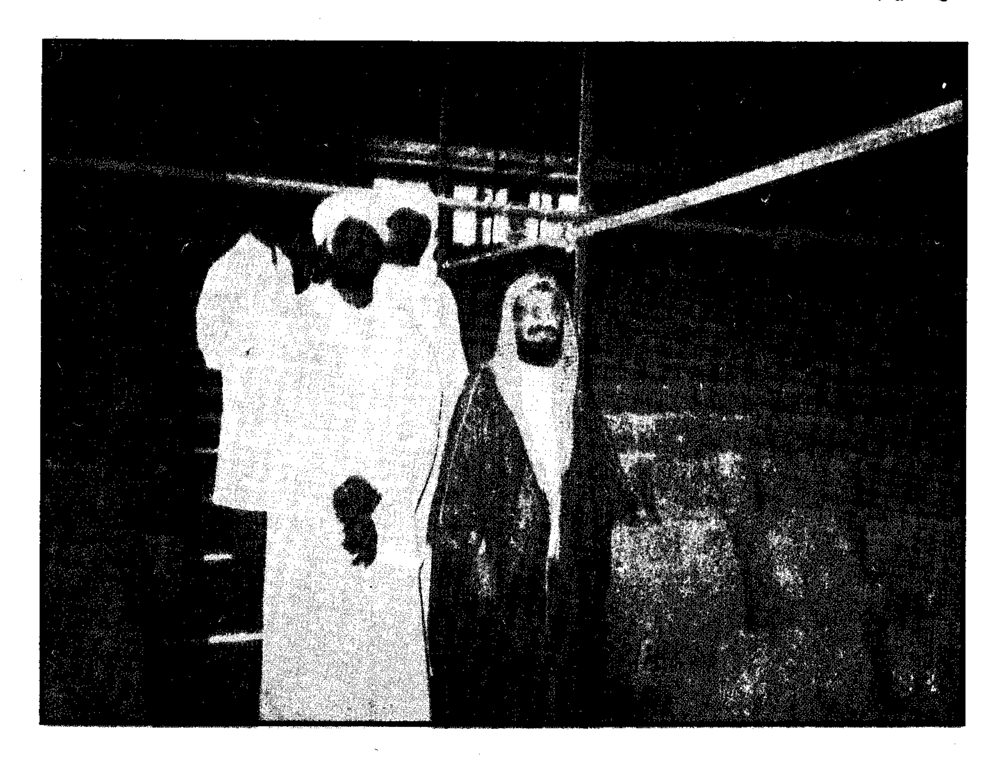
ومن سطح الجامع الواسع التقطت صوراً واضحة لمنارتيه، وللشوارع والمنازل المحيطة به، وهي منازل جيدة تتناثر فيها أشجار الظل من النيم ونحوه، وأشجار الفاكهة التي هي الأنبه (المانقو).

قاعة المحاضرات:

وهذه قاعة ضخمة مجهزة تجهيزاً عصرياً كاملاً حتى إنها هي القاعة الوحيدة في (شاد) التي فيها ترجمة فورية، ولا يوجد في البلاد كلها قاعة كذلك، كما أنها هي القاعة الثانية فيها من حيث السعة، والأولى هي قاعة مبنى البرلمان، ولكنها ليست قاعة لإلقاء المحاضرات.

والقاعة مكيفة تكييفاً مركزياً حديثاً إلا أن الكهرباء قد قطعت

عنها وبعض أسلاكها قد تلفت، وحتى بعض كراسيها تحتاج إلى إعادة تركيب.



قاعة المحاضرات الملحقة بجامع الملك فيصل في إنجامينا (تحت الترميم) على يمين المؤلف الشيخ حسين حسن أبكر

وكذلك المسرح الواسع الموجود في مقدمتها يحتاج إلى ترميم، وما عدا ذلك فإنها بحالة جيدة إلا من حيث النظافة فإنها على حالة سيئة تنسجم مع حالة المرافق في المركز وفي الشوارع العامة حيث تكاد تنعدم في معظمها النظافة، فتجد القمائم والنفايات مكومة أو متراكمة كيفما وقعت.

ثم مررنا بعد ذلك بمكتب ذكروا أنه مكتب الأمانة العامة للمجلس الإسلامي.

وقد افتتحت هذه الأبنية كلها في عام ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

معهد القرآن الكريم:

انحدرنا من سطح الجامع مع درج مهمل قذر لا أشك في أنه لم يكنس

منذ بني، أو على الأقل منذ عشر سنين فضلاً عن أن يكون قد غسل أو مسح أو اعتني به.

وقد لمت الشيخ حسين أبكر المسؤول الآن عن المركز أمام الناس لأنه رئيس المجلس الإسلامي المشرف على المركز، فقال: نحن ليست لدينا إمكانات لكنس الجامع أو تنظيفه، لأننا لا نجد مالاً حتى لشراء المكانس.

فقلت له: يا أخي أنا أعتقد أنك لو تكلمت في جموع المصلين يوم الجمعة، أو حتى بعد صلاة الظهر في مثل هذا اليوم، وأخبرتهم أن المسجد يحتاج إلى مكانس، فإنهم سوف يستجيبون لذلك لأنه لا يستسيغ مسلم غيور على هذا الجامع العظيم أن يراه بهذه الحالة من الاتساخ والإهمال.

وعندكم طلبة في ملحقات الجامع يزيد عددهم على الألفين فلو خصصتم يوماً لنظافة الجامع من كل شهر، وأمرتم التلاميذ بكنسه فإنهم لن يتأخروا عن ذلك، ويمكنكم أن تعرضوا مبلغاً رمزياً على من لا يريد أن يشارك يجمع ويشتري به مكانس.

حتى المشايخ والموظفون عندكم وهم كثر في هذا المركز يمكنهم أن ينظفوا الجامع وحده، ولا أظن أن أحداً منهم يجد غضاضة في نفسه إذا قام بكنس هذا البيت العظيم من بيوت الله، ومن لا يريد منهم ذلك يمكنه أن يفتدي نفسه بقليل من المال ولو بربع دولار، أو بثمن دولار تدفع لغيره ممن لا يرى بأساً في أن يقوم بتنظيف الجامع.

رأينا معهد القرآن الكريم تتصدره لوحة بخط عربي جميل تقول: (معهد القرآن الكريم لعلوم القرآن الكريم، قراءات، تجويد).

وذكروا أن مستواه مستوى الدراسة الثانوية، وأن الحكومة تعترف بالشهادات التي يصدرها لمن يتمون دراستهم فيه.

ويقع المعهد في زاوية رواق الجامع الداخلي التي قد ركبها القش وغيره من النفايات الخفيفة، وليس فيها أي أثر للتنظيف.

والمركز الذي يشمل المسجد وملحقاته واسع بالغ السعة وهو مفخرة للملك فيصل رحمه الله الذي أمر ببنائه على هذه الصفة.

جامعة الملك فيصل :

انتقلنا بعد ذلك إلى غرفة واسعة كتبوا عليها أنها إدارة جامعة الملك فيصل.

و (جامعة الملك فيصل) هي جامعة خيرية أهلية قائمة على التبرعات لا تقدم لها الحكومة أية مساعدات مالية انطلاقاً من كونها حكومة علمانية خلفت حكومة الاستعمار الفرنسي التي هي علمانية أيضاً، ولكن الإخوة الشاديين كان بإمكانهم أن يغيروا صفة الحكومة إذا أرادوا، إلا أنهم لا يريدون ذلك بسبب وجود الأقلية المسيحية في جنوب البلاد التي لا تريد أن تكون الحكومة حكومة إسلامية رغم كون الأكثرية من السكان هم من المسلمين.

ولكن الجنوب وراءه المنصرون ومن شايعهم ولف لفهم، ووراء الجميع حكومة فرنسا التي تمد حكومة شادية بالمعونات الاقتصادية ومنها جل الأموال اللازمة للتعليم العام والتعليم الفرنسي.



الاجتماع مع الدعاة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في أحد الملحقات بجامع الملك فيصل

لذلك تخشى الحكومة بل تتيقن أنها لو ساعدت هذه الجامعة الإسلامية أو أية جهات مسلمة أخرى لطالب المسيحيون الجنوبيون منها أن تعاملهم بالمثل، وهي لا تجد من الدول الإسلامية كلها ما يعوضها عن المعونة المالية التي تقدمها لها الحكومة الفرنسية فيما لو خرجت عن إرادة فرنسا في هذا الصدد.

ومع ذلك فإن الرئيس الحالي (إدريس دبي) وإخوانه يقدمون المعونة المعنوية والتأييد السياسي لهذه الجامعة، فقد أرسلوا على سبيل المثال وفداً إلى المملكة باسم الحكومة الشادية لطلب المعونة لهذه الجامعة كما أرسلوا إلى غيرها من البلدان العربية.

وهم يصرحون بأن المعونة المطلوبة هي لهذه المؤسسة الأهلية التي لا تتلقى العون من الحكومة مثلها في ذلك مثل المؤسسات الدينية المسيحية التي تعاونها هيئات التنصير العالمية.

وفي إدارة الجامعة خزائن صغيرة فيها بعض الكتب التي وصلت إليهم من ليبيا، وبعضها ذكروا أنهم اشتروه، ولكن الجميع محدود العدد لا يصل إلى أن يكون مكتبة لطالب من طلبة القسم الثانوي في بلادنا من حيث المقدار.

وكنت عندما أردت السفر إلى شاد طلبت من المدير المسؤول عندنا في رابطة العالم الإسلامي أن يخبرني بما عنده من الكتب والمصاحف وتسجيلات القرآن الكريم التي يمكن أن يشحنها لشاد فأجاب وهو (مدير العلاقات الثقافية) في الرابطة أنه يمكنه أن يشحن أعداداً لا بأس بها يمكن أن تصل إلى خمسين صندوقاً من الورق المقوى (الكرتون)، غير أن المشكل أنه لم يجد أية شركة تشحن مثل هذه الكتب إلى (شاد) إلا شركة (أير أفريك) لأنها التي تنزل طائرتها القادمة من جدة في (شاد)، وقد طلبت أجرة نقل الكيلو الواحد من الكتب اثني عشر ريالاً سعودياً وهذا مبلغ كبير، إذْ معناه أن المصحف الكبير أو المجلد الكبير يحتاج إيصاله إلى هذه البلاد إلى اثني عشر ريالاً، وهو مساوٍ لثمنه في المتوسط.

وقد اتفقنا مع الخطوط المصرية أن تشحن الكيلو الواحد من الكتب

والمصاحف إلى (أكرا) عاصمة غانا و (أبيجان) عاصمة ساحل العاج بستة ريالات فقط، على حين أن المسافة إليهما أكثر من ضعف المسافة إلى شاد، مما يدل على غلاء سعر الشركة الإفريقية المشهورة بغلاء أسعارها حتى في أسعار التذاكر الداخلية بين الدول الإفريقية.

وقد أخبرتهم أننا بمجرد أن نصل إلى هناك ونجد الوسيلة لنقل الكتب والمصاحف فإننا سنرسل إليهم مقادير لا بأس لها من حيث الحجم والكثرة.

لا سيما بعد أن عرفت منهم أن الخطوط السودانية تنزل في أنجامينا مع أنها تقلع من جدة، ويمكن أن يتفق معها حول هذا الأمر.

وتشغل إدارة جامع الملك فيصل هذه الغرفة مقراً لها مؤقتاً، وإن كان تابعاً للجامع، وهو بيت إمام الجامع إلى أن ينتهي العمل في ترميم المركز نفسه، ومنه مقرها المستمر.

أرض الوقف الإسلامي.

انطلقنا من منطقة الجامع في وسط المدينة القديم مع بعض الأسواق التي ليس فيها إسفلت، ومع شوارع فيها إسفلت، ولكن الأوراق والنفايات متروكة فيها لا تجد من يبعدها بل من يحركها، بل الأدهى من ذلك أنها لا تجد من يستنكر وجودها.

فسلكنا شارعاً واسعاً ذا اتجاهين يسمى (شارع الأربعين) حالته جيدة بالنسبة إلى الشوارع الأخرى، وإن لم تكن كذلك بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه.

ودخلنا من هذا الشارع إلى أرض خالية تقع أمام سوق تجاري عام وهو أشبه بالميدان الواسع لأنها واقعة على فضاء مكشوف ربما يصبح ميداناً.

قال القوم: إن الحكومة قد منحت هذه الأرض مجاناً على غلاء ثمنها وكثرة الراغبين في شرائها لكي تقيم عليها الحكومة السعودية الحوانيت التي وعدت بأن تكون وقفاً على جامع الملك فيصل.

وكنت عندما بحثت الأمر مع سفير المملكة السابق في شاد الأستاذ عباس فائق غزاوي قد علمت أن الرئيس السابق (فليكس مالوم) الذي كان

يحكم البلاد آنذاك قد استعد لنزع ملكية حوانيت مقابلة للجامع ليبنى عليها الوقف بناء حديثاً يكون أسفله حوانيت وأعلاه شققاً سكنية وقفية، غير أن ذلك يتطلب الآن أموالاً طائلة تدفع للتعويض على أصحاب الحوانيت القائمة، لذلك رأت الحكومة منح هذه الأرض الحكومية للجامع.



الزيت مع باعة متجولين في السوق

وقد بالغ الشيخ حسين حسن أبكر في غلاء هذه الأرض ونفاستها وكثرة ما تساويه من ثمن، وقال: إن الحوانيت إذا بنيت فيها فإنها سوف تدر غلة تكفي لحاجات الجامع وما يتبعه من مرافق بدون شك.

ترجلنا في هذه الأرض والتقطنا بعض الصور، ورأيت من أكوام القمامة ما لم أستطع الصبر على السكوت عنه، فقلت للمرافقين ومنهم الشيخ حسين أبكر: لماذا لا ترفع البلدية هذه الأوساخ والقاذورات من هذا السوق المهم الذي رأيته حافلاً بالناس وبالسيارات الواقفة؟

فقال: إنها ليست لديها سيارة ترفعها بها، وقال أحدهم: إن البلدية لا تملك إلا سيارتين أو ثلاثاً لنقل القمامة تستعملها في تنظيف الأماكن المهمة

في المدينة.

فقلت لهم: لنفرض أن البلدية لا تملك أية سيارة، فلم لم تلزم أهل السوق بإبعاد القمامة، وبأن يجتمعوا فيما بينهم ويجمعوا من النقود ما يكفي لذلك، قالوا: وإذا لم يوافقوا على ذلك؟

قلت: إذا لم يوافقوا على ذلك أن تسحب البلدية رخصة فتح المحل التجاري الذي لا يسهم في تنظيف هذا المكان الذي لا يجوز بقاؤه هكذا قد تكدست فيه النفايات حتى صارت أكواماً مكومة وقد تغيرت ألوانها من طول المكث.

قلت: وهذا حل أخير كآخر الدواء الذي هو الكي: ويتلخص في أن البلدية تستطيع أن تلغي من ذهن المسؤولين فيها فكرة إبعاد القمامة بالسيارات، وتجند لذلك بعض الدواب من الحمير والخيل فهي لا تحتاج إلى وقود غالٍ، وإنما هي تأكل من هذه الحشائش والأعلاف المتوفرة عندكم، على أن توظف بعض الشباب العاطلين الذين رأيتهم نائمين في ظلال الأشجار في وسط النهار، ولا شك أن بعضهم وبخاصة من غير المتعلمين سيقبلون هذا العمل، وبهذا تنقلون هذه القمامة المتراكمة وتريحوا العباد والبلاد منها، فسكتوا غير مقتنعين.

وأرض جامعة الملك فيصل:

تركنا أرض الوقف الإسلامي الواقعة على شارع الأربعين وفي ميدان ليس فيه من صفات الميادين التي تكون في المدن إلا السعة والامتداد قاصدين رؤية أرض أخرى منحتها الحكومة لجامعة الملك فيصل لأن مرافق مركز الملك فيصل ضاقت بها، فسلكنا أزقة جانبية غير مسفلتة، بل هي في حالة سيئة قد اختلطت فيها أرواث الحيوان ببقايا الطين الذي كونه المطر النازل أمس، ورأيت في بعضها بقرات وماعزاً مربوطاً في الأماكن المتسعة من الشارع.

وعلى هذه الشوارع بيوت من الطين قد فرش أهلها حصراً عند أبوابها وجلسوا عليها يستمتعون بالأصيل ذي الهواء العليل، رغم روائح الشارع الذي أذهب المطر غباره، وإن لم يُقِلْ عثاره.

ومن الغريب أن ملابس الرجال والنساء لم تتأثر بحالة هذه الشوارع والميادين السيئة المظهر، فهي نظيفة غاية النظافة، وقلّ أن يصادفك رجل منهم أو امرأة ليس عليه ملابس نظيفة مغسولة أو جديدة وهذا من العجب.

وإنما الملابس المهملة أو غير النظيفة في بعض الأحيان هي التي تكون على بعض الأطفال من أبناء الفقراء.

ولا يعدم المرء أن يرى من بين الجالسين على الفرش التي فرشوها عند البيوت من (يكوع) منهم، و(التكويعة) هي الهيئة التي يمدد فيها الإنسان جسمه على الأرض كأنه يريد أن يضطجع على الأرض دون أن يفعل ذلك إنما أسند جسمه على كوعه، وهو الذي يصل الساعد بالزند من اليد.

وتقع الأرض التي ذكروا أن الحكومة أعطتهم إياها ليبنوا عليها إن استطاعوا مباني لجامعة الملك فيصل في فضاء واسع من الأرض من ضاحية في شرق المدينة اسم محلتها (أمرقيبه) قال أحدهم: ربما كان أصل الاسم (أم رقيبة): تصغير رقبة.



عند أكوام الحطب في إنجامينا

وفي جانب من هذا الفضاء الواسع الذي فيه الأرض أكوام ضخمة جداً من الأخشاب التي أعدت لتكون حطباً جزلاً يباع للوقود، لأن معظم الطبخ هنا يتم بالحطب والفحم.

وقد عجبت من كثرة أكوام الحطب وعظمها، والتقطت هذه الصورة عند أحدها.

ذكروا أنهم ينوون أن يبنوا فوق هذه الأرض (كلية الشريعة) و (كلية التربية)، فدعوت لهم بالتوفيق وأوضحت أن الرابطة ستسهم بشيء من نفقات البناء بعد أن يبدؤوا به، لأن الرابطة لا تساعد المشروعات التي لم يبدأ بها على اعتبار أنها قد جربت أن بعض المشروعات يعجز أهلها عن البدء بها فتذهب المعونة في غير ما صرفت لأجله.

وعندما أوقفنا سيارتينا، وإحداهما مرسيدس سوداء جديدة جذب المنظر لها طائفة بل طوائف من الصبيان فأسرعوا إلينا يستوضحون الأمر، ويستجلون الخبر، يدفعهم الفضول والفراغ إلى ذلك، وفيهم طائفة ممن لا تسر مناظر ثيابهم ولا إهابهم، فأسرعت انتهز الفرصة وألتقط صورة بل صوراً لهم من قرب لكي تبين في الصورة تقاسيم الوجوه والألوان، وكأنما ذلك لم يعجب أحد الإخوة المرافقين وله الحق في ذلك، فأسرع يصب جام غضبه عليهم يطردهم عن الالتفاف علينا، ولكنهم لا ينصاعون لأمره، بل صار جمعهم يزيد، والمرء شغوف بما نهي عنه: لأن اللوم إغراء كما قال أبو نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء　　　وداوني بالتي كانت هي الداء

وعندما رأيت كثرة هؤلاء الأطفال تبادر إلى ذهني ما كنت قرأته أكثر من مرة وهو أن الأطفال يكثرون عادة في البلاد التي تكون قد شهدت حروباً، وقتلت من أهلها أعداد من باب التعويض غير المقصود من الناس عن القتلى، ومن ذلك كثرة أطفال الإخوة الفلسطينيين، وكثرة أطفال الكمبوديين كما رأيتهم في بلادهم، وذكرت ذلك في كتاب: ((مشاهدات في لاوس وكمبوديا)).

وهذه الأرض صالحة لبناء كلية عليها، ووجودها بدون ثمن فرصة

يجب أن تتهز، نسأل الله تعالى أن يوفق القائمين على الجامعة إلى إقامة المبنى.



صورة مع الأطفال في إنجمينا

ثم عدنا إلى شارع الأربعين (المزفلت)، وهو ذو اتجاهين تفصل بينهما جزيرة في وسطه تنتصب فيها أعمدة النور على أبعاد مناسبة، فكأننا عدنا إلى شوارع القرن العشرين بعد أزقة القرن الثامن عشر، وإن كانت بعض البيوت الواقعة على شارع الأربعين مما يلي خارج المدينة دون ذلك؛ ووجود قناة للمياه المستعملة الخارجة من البيوت، وإن كان الماء فيها قليلاً، ولكن زادها المطر الذي نزل أمس سوءاً.

وحتى أسوار الأفنية وهي الأحواش في هذا الشارع بعضها بألواح الحديد الرقيق (الصفيح) وبعضها بالحصر، وذلك لغلاء الإسمنت وصعوبة ضرب اللبن - جمع لبنة - منه بسبب عدم وجود مصنع للإسمنت في البلاد.

وقد أخبرني الإخوة أنه يجري العمل الآن على الإعداد لإقامة أول مصنع للإسمنت في البلاد.

يوم الأحد: ١٤١٣/١٢/٢هـ ـ ١٩٩٣/٥/٢٣م.

كان الإفطار اليوم في المكان المعتاد من مقهاة الحديقة في فندق (نوفوتيل) التي معناها الحرفي في اللغات اللاتنية: (الفندق الجديد)، ولا أدري معناها بالفرنسية بالذات، وكان الهواء ساكناً مما أتاح للذبابات الصحراوية أن تسرح وتمرح من دون أن يعوقها عائق.

وقد بكرت لهذا المكان كما بكر العمال في شقائهم بتنظيف بركة السباحة للسابحين الذين كانوا كثراً ظهر أمس، وكانوا كلهم من البيض ماعدا أسرة واحدة مؤلفة من نحو خمسة أشخاص فهم من السود، ولا أدري من أي بلد يكونون.

وقد طلبت شيئاً من خدمة الغرف بهاتف الغرفة فجاء شاب يحمله جنوبي الملامح إلا أنه عربي اللسان والجنان، قال بعربية واضحة: أنا مسلم واسمي إبراهيم، فسألته عن سر فصاحته بالعربية وكلهم يعرفها، ولكن هذا يتكلم بها كما يتكلم بها المثقفون منهم، فقال: أدرس من الساعة كذا إلى الساعة كذا في مركز الملك فيصل، وأعمل في الفندق من الساعة كذا إلى كذا.

وهكذا يمكن للمجتهدين أن يحصلوا على علوم الدين من دون أن يكونوا من العاطلين.

إلى الصحراء الشادية:

كنت أريد أن أكتبها (إلى ريف شاد) غير أن الريف صار يدل على الأراضي المزروعة خارج المدن وعلى الأراضي الخضراء على وجه العموم، والطريق هنا أكثره صحراوي، فوصف هذه الأرض بأنها صحراء هو صحيح، ولكنه لا يدل على صحراء قاحلة كصحرائنا العربية، بل هي حافلة بالمرعى والأشجار الكبيرة، فهي ببلاد المراعي التي تسمى بالسافانا أشبه من الصحراء، وإن كانت صحراء الآن لكونها لم تخضر بعد لأن موسم المطر لم يستمر، ولم يفارقها المظهر الصحراوي، كما أنها بناسها ذوي الطبيعة الصحراوية من الأعراب والمستعربين تجعلها من بلاد

الصحراويين.

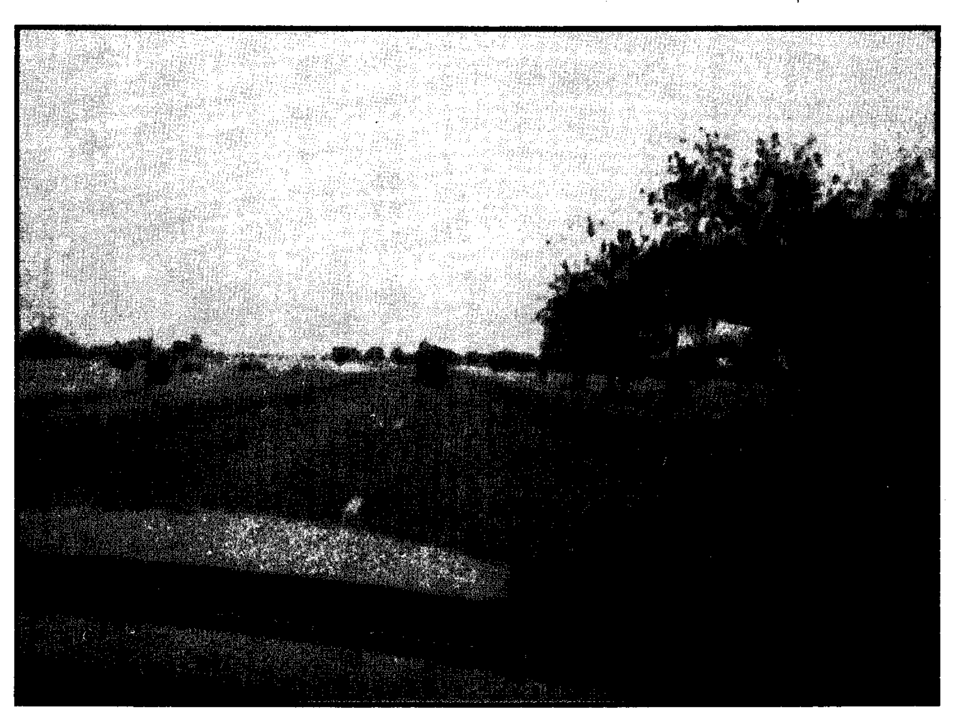
ولنعرض عليك أيها القارئ الكريم ما شاهدناه فيها بالتفصيل.

قرية دوقيا:

والهدف الذي سنذهب إليه هو منتزه حكومي فيه فندق وأماكن للاستراحة قرب قرية للسكان الأصليين في البلاد من قبيلة (كوتوكو) واقعة على ضفة نهر (شاري) اسمها (دوقيا)، وهو اسم محلي ليس بعربي.

وتبعد (دوقيا) عن فندقنا في العاصمة أنجامينا (٧٩) كيلومتراً.

انطلقنا إليها في العاشرة من هذا الصباح مع سيارتين ما لبثت أن لحقت بهما سيارتان أخريتان، لأن الإخوة المرافقين كثروا، وقد أحضروا أدوات الغداء معهم من إنجمينا.



الطريق الجيد بين إنجمينا ودوقيا

أما المرافقون فهم الذين كانوا ركبوا معنا في الطائرة الخاصة أمس، ونزلوا دون أن تطير الطائرة فيهم الوزير الأستاذ عثمان جده والأخ (الطاهر

القاسي) والشيخ حسين حسن أبكر والأخ التيجاني علي حسين من المراسم، أو قالوا رئيس المراسم في وزارة الخارجية وعبد الله محمد خضر الأمين العام للمجلس، والأستاذ أحمد محمد حسب الله الموظف المرافق من وزارة الخارجية، والعسكريان المخصصان للحراسة.

وقد ركبت في سيارة الجيب العسكرية اليابانية، وهي جديدة مكيفة الهواء، وذلك من أجل الخروج من الطريق الإسفلتي إذا رأيت ما يستدعي ذلك، وقد رأيته بالفعل، وخرجنا من الطريق كما سيأتي مما لا تستطيع السيارة الصغيرة المرسيدس أن تفعله كما تفعله سيارة الجيب.

وتقع (دوقيا) في جهة الشمال الغربي من العاصمة، وهي واقعة في مديرية باقرمي.

مررنا في ضاحية المدينة من دون أن نقصد بأرض خالية أشار إليها الشيخ حسين أبكر رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بأنها أرض المعوقين، وقال: إنها أرض خصصت لذلك على أمل أن تبنى هيئة الإغاثة الإسلامية عليها أو غيرها داراً للمعوقين.

ثم فارقنا ضواحي المدينة، فرأينا أن أشجار النيم الخضر لا تزال موجودة تكحل وجه هذه الصحراء في أيامها الغبراء.

وكان أحد الإخوة الشاديين الذين لم يصحبونا اليوم قد قال: إن غرس هذه الأشجار أشجار النيم في بلادنا مكيدة فرنسية، تريد فرنسا أن تشغل البلاد بها حتى لا يغرس الناس أشجاراً مثمرة، قال ذلك بسذاجة بل ببلاهة، ولكنها قولة سمعتها ومثلها من إخوة آخرين في مكان آخر من إفريقية المسلمة كان قد ابتلي بالاستعمار، ولكنه استعمار آخر هو الاستعمار الإنكليزي، وذلك المكان هو مدينة (صوكتو) عاصمة الخلافة النيجيرية التي كانت قائمة في زمن المجاهد الشيخ (عثمان دان فودي) رحمه الله، واستمرت بعده دولة إسلامية حقيقية حتى أسقطها الاستعمار الإنكليزي، ولكن المسلمين النيجيريين في نيجيريا تمسكوا بها مظهراً فبقي خلفاؤه هناك حتى الآن.

وقد عجبت من كثرة أشجار النيم هناك، والتفافها حتى تكاد تكون

وحدها هي الأشجار الخضر فيها، فقال أحد الإخوة من طلبة العلم: إن الاستعمار الإنكليزي هو الذي غرسها عندنا، وأوحى للناس بأنه لا يوجد شجر مزدهر هنا غيرها لكونها لا ينتفع بها.

ولا شك أن الفرنسيين والإنكليز هم الذين عملوا على إكثارها وانتشارها لتعم الخضرة في البلاد، وذلك أمر جيد وهم يشكرون عليه، وإذا كان الأهالي يرون أنهم إذا غرسوا غيرها كان أنفع لبلادهم فإنه يمكنهم أن يقتلعوها، ويغرسوا غيرها ما يشاؤون، أو أن يصبروا عليها ويغرسوا بجانبها ما يرونه أكثر فائدة منها حتى إذا نجح غرسه وكثر ظله، اقتلعوا ما حوله من أشجار النيم، والاقتلاع أهون من الغرس كما هو معروف.

وشجرة النيم مشهورة في الهند، وقيل: إن أصلها من هناك وليس لها ثمر، ولكن فيها دواء لعدة أمراض يعرف ذلك عنها الهنود والإفريقيون.

أبعدنا عن المدينة قليلاً في جو صحراوي خالٍ فكثرت أشجار الطلح فيما بعد عن الطريق كبيرة وارفة رأيت عدة شجرات منها تحتها أناس جالسون كما يجلس قومنا تحت أشجار الطلح الكبيرة في بلادنا، ولكنها دون ضخامة أشجار النيم، وظلها أقل اتساعاً وكثافة من النيم.

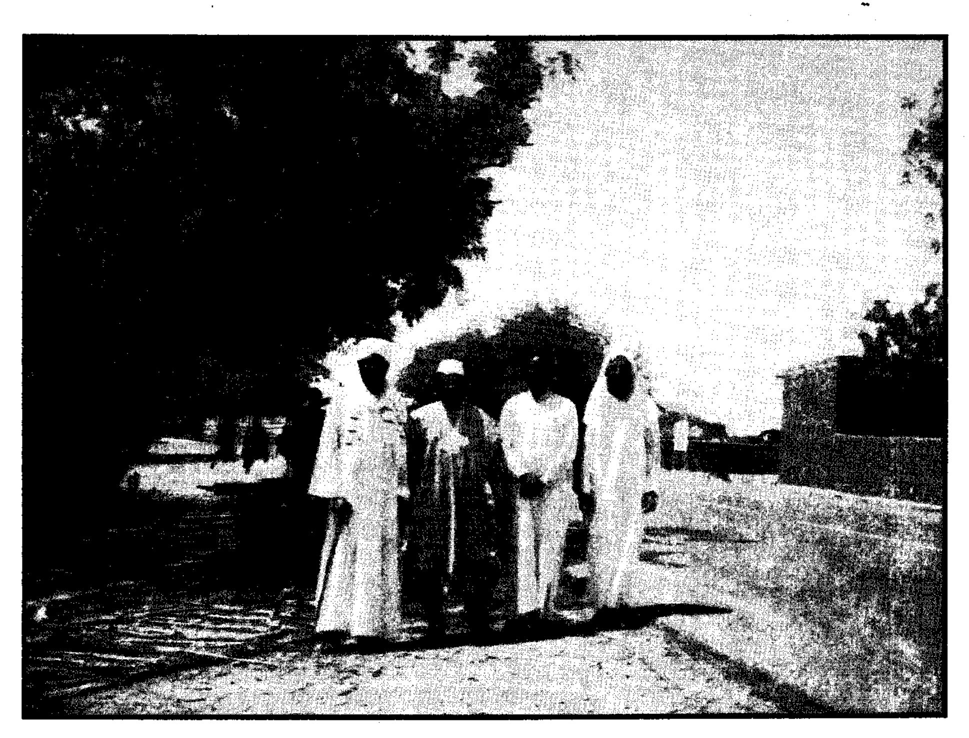
والطريق إسفلتي جيد للسيارات الذاهبة والمقبلة مفصول بينهما بخط من الصباغ.

ولاحظت أن بعض أشجار الطلح قد سقط ورقه، فربما يكون الأهالي قد خبطوه، والخبْط - بإسكان الباء - عندنا هو من أجل الحصول على الخبَط - بفتح الباء - وهو ما يتناثر من أوراق الأشجار وعيدانها الدقيقة جداً يجمع ويجعل علفاً للدواب في أوقات الأزمات وقلة المرعى، ولكن المرعى في هذه البلاد الشادية وافر، ولا أظنهم يحتاجون إليه من أجل العلف، وإنما قد يحتاجون إليه لأغراض أخرى.

وقد لاحظت أن أعشاب الأرض كلها يابسة، ولكنها موجودة بكثرة تستطيع أن تعيش عليها الماشية إذا حصلت على كفايتها من الماء معها.

ومررنا بحوانيت من القش مقامة على هذا الطريق الإسفلتي الجيد، وهي صغيرة غير حافلة بالسلع، بل إن السلع التي يفكر الإنسان بوجودها

هنا هي محدودة.



وقفة في الطريق إلى دوقيا (المؤلف على يمينه الشيخ عثمان جده، فالطاهر القاسي، فحسين أبكر)

وقد وقفت عند أحدها سيارة من سيارات النقل الصغيرة (وانيت)، وقد حملت فوق ظهرها ما لا تكاد تطيق حمله من البضائع والأناسي حتى قدرت عدد الراكبين فوق ظهرها بأنه يبلغ الثلاثين، وهذا شبيه بما كان موجوداً عندنا في القديم قبل الرخاء الاقتصادي الأخير.

مررنا بتجمع لبيوت قليلة من الطين وفيها اثنان أو ثلاثة من بيوت القش، ورأيت فيها شيئاً ذكرني بعهد مضى في بلادنا وهو لبن من الطين بكسر الباء - جمع لبنة - قد ترك في الأرض من أجل أن ييبس حتى تبنى به بيوت الطين، وكان ذلك منظراً شائعاً عندنا في القديم أيضاً، ولكن لا يعرفه أبناؤنا الآن ولا يتصورونه، بل انعدم البناء بالطين وحل محله البناء بالإسمنت.

قرية لا ما يجا :

وهذه القرية وهي لا ما يجا ، فيها بيوت من الطين، ولكن على غير الطريقة التي كنا نعرفها في بلادنا؛ إذْ يبنى البيت من الطين منفرداً على هيئة غرفة مستديرة كاملة الاستدارة، ثم يسقف من القش والأعواد على شكل المخروط، وهذا من بيوتها الواقعة على الطريق، وإلا فإن معظم بيوت القرية بعيدة عن الطريق، وهي مبنية بالطين على الشكل المعتاد، إلا أن سقوفها من الصفيح كما تبدو من البعد.

وقد كتبت عليها اسمها بالفرنسية (لامايجا) ولا أدري ما إذا كانت اللام في أولها للتعريف بالفرنسية أم أنها جزء من حروف اسمها، ولكنني عجبت من كون اللافتة بالفرنسية دون العربية مع أن أكثر الذين يمرون بالطريق يعرفون العربية، ونسبة منهم لا تعرف الفرنسية.

ولا شك في أن هذا بقية من آثار الاستعمار ساعد على بقائه الحالة المالية والسياسية الصعبة التي عانتها البلاد وما زالت تعاني منها حتى الآن.

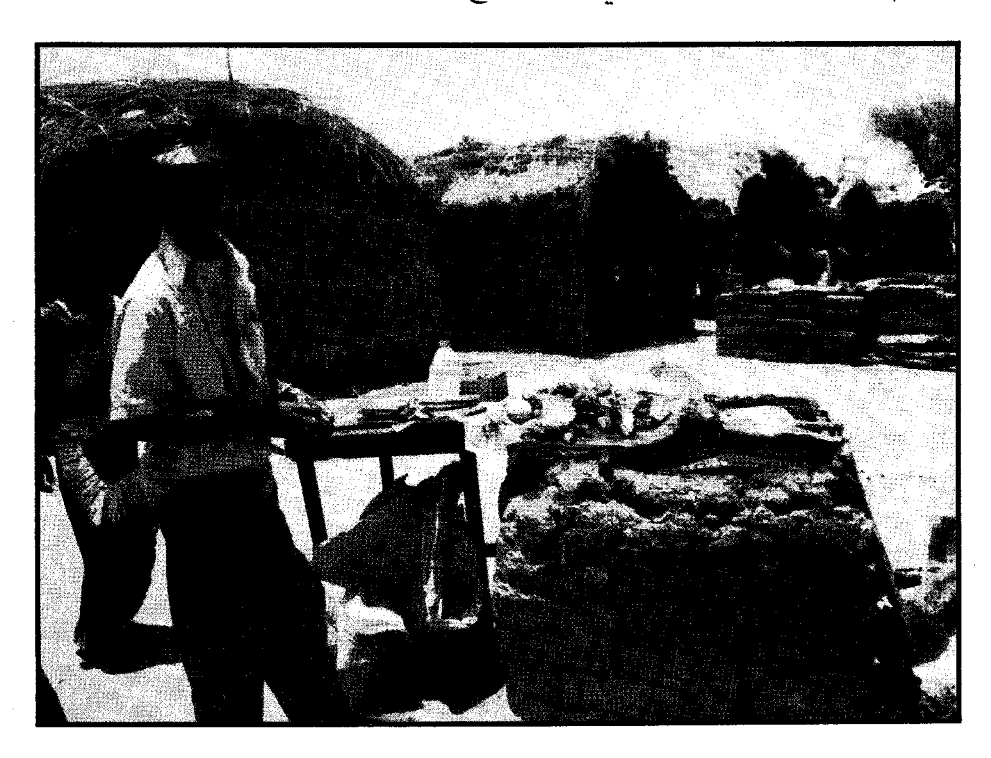
وأمعنّا في الصحراء وما زالت أشجار النيم موجودة، وقال الأخ الوزير عثمان جده: إن أشجار النيم هذه غرستها الحكومة في جهات عديدة من الجهات المحيطة بالعاصمة ما عدا جهة النهر من أجل أن تكون بمثابة الحزام الأخضر للمدينة.

وأقول: إنها فعلت حسناً. فهذه الأشجار خضراء وتبقى نامية بعد أن تعلق بالأرض من دون أن تحتاج إلى سقي.

وقرية فون بليلة :

واسمها مركب من كلمتين إحداهما فرنسية وهي فون بمعنى جسر، وهو جسر كان موجوداً وزال الآن، و (بليلة) وهي عربية وطنية من اسم الحب المبلول كالحمص ونحوه، ولعل أكثرنا يذكر أن (البليلة) في مدن الحجاز تعني الحمص ونحوه إذا كان مبلولاً أو منقوعاً بالماء حتى صار صالحاً للأكل، وكان يبيعه باعة متجولون هناك ينادون عليه برفع أصواتهم: بليلة بليلة، وبعضهم يتظرف فيقول: بلّوا، يا بليلة.

وقفنا عند الجزء الواقع من قرية (بليلة) على الطريق، وفيه مظلات من القش أو الحصير ليس لها أبواب، تحتها أناس يبيعون اللحم، والغريب أن اللحم هو السلعة الوحيدة التي رأيتها تباع فيها.



فرن يبيع الشواء في استراحة من القش

وبعض هذا اللحم يباع نيئاً، وبعضها يباع مشوياً في فرن رأيناه يعمل ويقف عنده المسافرون فيشترون من الشواء الرخيص ويأكلونه، كما يفعل غيرهم في شراء الشطائر (الساندويتشات)، أو مثل ما نفعل نحن في طرقنا من الإكثار من شراء المشروبات الغازية والمياه المحلاة المحفوظة في الزجاجات.

وشيء آخر معروض بكثرة على الطريق في القرية، وهو أكوام من الحطب الجزل.

ورأيت طائفة من الأخوات المسلمات الجالسات بالقرب من الطريق عند إحدى الأشجار، فالتقطت لهن صورة.

شجر العُشَر:

وهو شجر صحراوي ضبطه في الفصحى بضم العين وفتح الشين، والعامة عندنا يقول فيه (عْشَر) بإسكان العين، وهو دائم الخضرة ولا يأكله شيء من الدواب أو الماشية، لذلك يظل مثل مال البخيل موفراً لا ينقص منه شيء.

وعندما رأيت كثرته هنا كما رأيت كثرته عند مدارج الطائرات في المطار سألت الإخوة عما يعرفون عنه، فذكروا أنهم يعرفون أنه لا يأكله شيء من الدواب، وإنما للناس انتفاع في أشياء منه، ومن ذلك أن ورقه يسخن فوق النار ثم يوضع على مكان الألم في الجسم كالظهر ونحوه بمثابة (اللصقة)، ومنها أن لبنه، وهو ذو لبن إذا قطعت ورقته نقطت منها نقطة من سائل أبيض، هو لبن العشر ونحن نعرف عن لبنه أنه سام، مضر بالعين، ولكنهم يقولون هنا: إن لبنه يوضع على مكان لدغة العقرب فيبطل مفعول سمها، فقلنا: هذا من مداواة السم بالسم حتى قال أحدهم: إنه ينفع من لسعة الأفعى أيضاً وذكروا اسم الأفعى (الثعبان) وقالوا: إن النساء اللاتي يختضبن بالحناء عندهم يغطينه بورق العشر فيكون أثبت للون الحناء وأبقى له في الجلد.

وقلت لهم: إننا لا نعرف له وجهاً من وجوه الانتفاع إلا أن فحمه يدخل في صناعة البارود لأنه خفيف مجوف، ولا بد للفحم الذي يدخل في صناعة البارود من أن يكون من شجر مجوف الأعواد مثل العنب والرمان والشفلح والعُشر هذا، فذكروا أنهم لا يعرفونه ولا يعرفون كيفية صنع البارود، أما نحن فإننا نعرفه حق المعرفة، وكان أهلنا في بريدة يصنعونه يتكسبون بذلك، فيستأجرون عمالاً أقوياء يقومون بدقه لأنه يحتاج إلى دق شديد متواصل لمدة طويلة حتى تختلط أجزاؤه الثلاثة التي هي الفحم والكبريت الأصفر، وملح البارود الأبيض، الذي هو في أصل تركيبه نوع من ملح البوتاس أو (البوتاسيوم) كما يلفظ به علمياً.

وشيء آخر نعرفه عن هذا العشر، وهو أن العامة عندنا تزعم أن (العشرة) وهي شجرة العشر هي من منازل الجن، ولذلك يتجنب بعضهم من ذوي الأعصاب الضعيفة النوم تحتها في الليل خوفاً من الجن، وقد وردت في

ذلك أشعار وأقوال للعامة ذكرت بعضها في مادة (ع ش ر) من « معجم الألفاظ العامية ».

وقد سارع الإخوة إلى القول بأن قومهم هنا يعتقدون أيضاً أن العشر من منازل الجن، وأنهم يتحامون النوم عندها في الليل.

ولا أدري أهذا اعتقاد جلبوه معهم عن العرب الأولين الذين هاجروا من نجد أو من أعالي الحجاز إلى هذه البلاد أم أنه كان معروفاً لأهل البلاد الأصلاء قبل أن يصلها العرب كالكانم و(الكوتوكو) والكنوري فنقلوه عنهم.

ومررنا بقطيع كبير من الماعز الأبيض يرعى من تباشير قليلة من رؤوس العشب الأخضر التي أطلّت بعد المطر الذي أصابها منذ ثلاثة أيام، وترعى إلى ذلك من (الرمام) وهو العشب اليابس من بقايا ربيع العام الماضي.

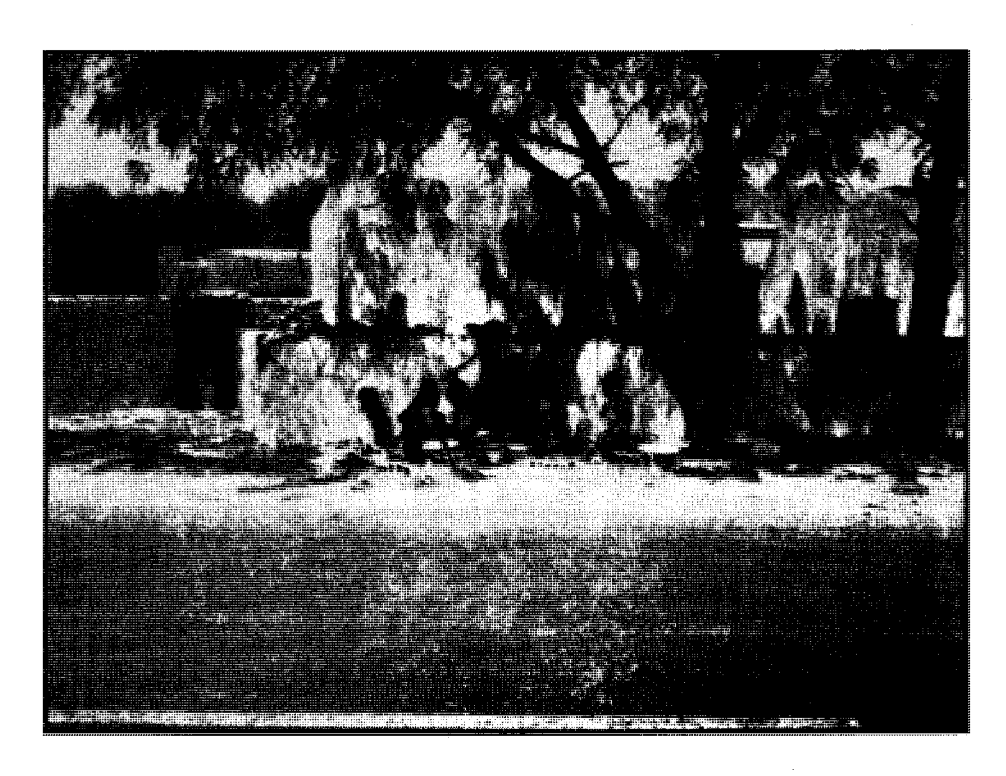
ورأيت أيضاً حميراً قمراً، والأقمر في ألوان الدواب هو الذي لونه بلون السكر غير الناصع البياض، أخذوه من تشبيهه بلون القمراء، وهي ضوء القمر عندما يكون منيراً في الليل.

الصيد الكثير:

رأيت بعض الأجانب من ذوي المظهر الأوروبي قد خرجوا للتنزه بسياراتهم، وبعضهم معهم أولادهم ونساؤهم، وذلك لكون اليوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية، فسألت الإخوة المرافقين عن الصيد في هذه البلاد فأجابوا أنه كثير، وهو مختلف من الأرانب والظباء، ولكن الصيد ممنوع إلا بإذن من الحكومة، ولا تأذن الحكومة بذلك لكل من يرغب في الصيد، محافظة على الثروة الطبيعية.

وقال الشيخ حسين أبكر: إن العجيب أن يعيش الظبي في الأراضي الخالية من الماء، وكيف يعيش، فقلت له: إن الظباء عندنا وعند العرب القدماء هي من الجوازي التي ذكروا أنها سميت بذلك لكونها تجتزئ بالنسيم عن الماء أي تكتفي باستنشاق النسيم عن شرب الماء فيكفيها ذلك، ومنه سميت المرأة (جازية) أو (الجازية) على اسم الظبية واحدة

الجوازي.



في الطريق بين إنجمينا ودوقيا في شاد

وسألتهم عن الضب هنا فلم يعرفوه إلا أنهم قالوا إنه (الورل) إن بعض الناس يأكلون (الورل) هكذا ذكروا اسمه وهو اسم عربي فصيح (الورل) ولكنه غير الضب، فالضب يعيش في البراري الشاسعة وهو من الجوازي أي من حيوان البرية الذي لا يحتاج إلى الماء، وأما (الورل) فإنه يعيش قريباً من القرى والأماكن المأهولة، وهو مكروه عند قومنا لا يأكلونه، وإنما كانوا يحرصون على أكل الضب.

ومررنا ببيوت منفردة للرعاة ولكنها على هيئة كوخ صغير من القش، وتوجد في الأرض مناقع من المياه التي خلفها المطر، وهذا هو ما يريده الرعاة أن يجتمع الماء مع العشب لماشيتهم، وأخبرنا المرافقون أن هذه الأراضي تصبح مغمورة بالمياه أيام الأمطار، وإن كان ذلك لا يمنع الانتفاع بها.

قرية جرمايا:

وصلنا قرية اسمها (جرمايا) افترق الطريق عندها فصرنا نسير مع طريق أضيق من الأول، ولكنه إسفلتي متجه جهة الشمال الغربي.

وقرية (جرمايا) التي رأيناها ذات بيوت قليلة، وليس فيها من الأشجار إلا الطلح، وأما آثار العمارة بالزراعة فإنها غير موجودة، بل تكاد تكون معدومة.

ولم نقف عند هذه القرية، وإنما واصلنا سيرنا الهادئ؛ إذْ كان السائق عسكرياً يتأنى في سيره، وقد أمتعني ذلك وأفادني إذْ أن سير السيارة بسرعة لا يمكن معه أن يستوعب البصر كل ما في الطريق وبخاصة الأمور الصغيرة.

ورأينا بيوتاً متفرقة من القش، وبيتين أو ثلاثة من الطين على هيئة غرف منفردة أيضاً ذكروا أن هذه البيوت (القشية) هي لجماعة من الأعراب الذين يرعون ماشيتهم هنا في زمن الصيف عندما يقل الرعي في الصحراء التي تقع عنهم جهة الشمال، أما إذا أعشبت الصحراء فإنهم يرحلون إليها لطيبها لمواشيهم.

ونوهوا بأن العرب هنا هم من البقّارة أي رعاة البقر، وليسوا من (الأبالة) كما يسمونهم، وهم أهل الإبل.

ولكن الأهالي هنا من القرويين، أو لنقل الصحراويين هم من رعاة الأغنام، وقد رأينا ذلك ظاهراً في كثرة الغنم، ومن رخص لحومها فقد رأيت بعد مفارقة قرية (جرمايا) رعية كثيرة العدد من الغنم أقدرها بخمسمائة رأس، ومعها راعيتها وهي امرأة شابة، وغير بعيد منها عشة تحتها عدد من النساء يستظلن بها عن الشمس.

وقد استرعى انتباهي بقع سود غريبة في الأرض كأنها الرماد الأسود أو الطين اللازب وهو الذي أسودّ من كثرة مكث الماء عليه، فسألتهم عما إذا كان ذلك ناشئاً عن إحراق الأعشاب والأشجار إعداداً للأرض للزراعة كما يفعل كثير من الزراع في البلدان الكثيرة الأعشاب والأشجار التي تنمو طفيلية، ويضر تركها بالزرع، فنفوا ذلك وقالوا: إنها أرض طبيعية هكذا

طبيعتها سوداء.

ورأينا غير بعيد من الطريق أبقاراً ضخمة مع رعاتها وإبلاً حمراً حسنة المنظر رأيتها تأكل من أوراق أشجار الطلح الكبيرة، فعرفت سبب وجود بعض أشجار الطلح التي ليست عليها أوراق.



جرار الفخار التي تحمل فيها السوائل في شاد

وهذه الإبل الحمر هي من أنفس الإبل عند العرب كما في الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ يوم خيبر: (والله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم) والنعم: الإبل، وقيل هي النوق.

ولما رأيتها سمينة حسنة المنظر سألتهم عن لحم الإبل أيأكلونه فذكروا أنهم كلهم يأكلونه أكثر مما يأكلون لحم البقر، فقلت لهم:

هكذا الحال كان عندنا.

قرية ساقور:

وهذه قرية ليست كبيرة اسمها (ساقور) لم يعرفوا معناه، وقال الوزير: إن هذه المنطقة منطقة عربية من الطبيعي أن تكون الأسماء فيها أسماء عربية، ولذلك من الجائز أن يكون لاسمها علاقة بالصقور: جمع صقر.

وقد استغربت عدم وجود أي شيء مزروع في هذه المنطقة حتى ولا شجرة خضراء واحدة، قالوا: إن الزراعة تكون بقرب البحر، يريدون بذلك النهر: نهر شاري.

وهذه القرية مثل قرية أخرى رأيناها بعدها ذات بيوت من القش سيئة المظهر، بل ربما دلت على عدم الاستقرار، أي أن أهلها الذين أقاموها ليسوا من المستقرين في الأرض، وإنما هم من المرتحلين، هكذا يبدو أمرها.

الفريق الشادي:

كنت قد طلبت من مضيفي الكرام أن يروني بعض الأعراب الذين قد نصادفهم في الطريق، وليس المراد بذلك الذين يردون منهم للمدن فأولئك رأيت بعضهم، وإنما المراد الأعراب في مرعاهم لأرى بيوتهم وكيف يعيشون.

ولذلك عندما أقبلنا مع الطريق الإسفلتي صاحوا: الفريق، الفريق، ولم أفهم جلية الأمر في أوله لأنني كنت نسيت موضوع الأعراب، فقالوا: إننا نقصد فريق البدو، فقلت: هكذا الأمر عندنا إذ نسمي بيوت البدو المقيمين في الصحراء بـ (الفريق)، ومن ذلك ورد المثل العامي: ((مثل كلاب الفريق تتهاوش مع بعضها ولكنها تنبح الكلب الغريب))، ويضرب للقوم يختصمون فيما بينهم، ولكن ذلك لا يمنعهم من الاجتماع على الخصم الغريب.

تركنا الطريق الإسفلتي الذي كان مرفوعاً عن الأرض المجاورة، ونزلنا وأنا مشفق من ألا تستطيع السيارة ذلك، ولكنها سيارة جيب عسكرية قوية، والأصعب من ذلك في نظري هو مرورها بين الأشجار الصحراوية التي قطع بعضها وتركت جذوعه باقية لتعاود النبات، والأشجار

الصغيرة اليابسة القريبة من الأرض.



الأعرابي عند بيته مع الضابط المرافق لي

ولكن السيارة مرت بصعوبة حتى وقفنا عند بيتين من أبيات الأعراب، قد ربط عندهما حصان في جذع شجرة من الأشجار، وعند أحد البيتين امرأة أعرابية بيضاء بياضها قد خالطته صفرة مثل اللاتي رأيتهن يبعن اللبن عند سوق البقر في (إنجمينا)، وحولها أطفال ثلاثة أو أربعة لا أعتقد أنها أم لهم لأنها أصغر من ذلك، وهؤلاء الأطفال عراة تماماً مثلما كان عليه الحال بالنسبة لأولاد الأعراب في البرية الذين لا يلبسون الثياب في الصيف.

لم نر أول الأمر غير المرأة فسلمنا من بعيد، فخرج إلينا من البيت الآخر رجل في حدود الخمسين أسمر، ولكن سمرته لا تصل به إلى حد السواد.

ثم انضم شابان أظنهما من أبنائه أو أقربائه فسألته عن اسمه فقال: محمد بن إبراهيم آل راشد، حنا راشدية، من الراشد. قلت له: والواحد منكم ماذا تقولون له؟ فقال: نقول له راشدي.

وسألته عن الراشد هؤلاء أكثيرون هم؟ فكأنه استغرب السؤال وقال: راشد من هنا إلى أبشا، يريد أنهم لكثرتهم موجودون في هذه المنطقة الواسعة.

وقلت لهم: أأنتم تقيمون في هذه المنطقة بصفة مستمرة؟ فقال: نقيم في الصيف وفي الخريف نروح للشمال.

كان الرجل لا يبدو منطلقاً في الكلام، لكونه لم يفهم المقصود منه، ولكن أصغر الشابين كان أكثر انطلاقاً منه، وكان يفهم ما أقول إذْ كان يبدو أن الرجل لم يفهم بعض الكلمات لفرط الدهشة مع أنهم كلهم يفهمونها إذْ ليس في لغتي ما هو غريب عليهم، ولا في لغتهم ما هو غريب عليَّ.

وأشبه الناس بنبرات الصوت عندهم هم أهل موريتانيا، إلا أن هؤلاء أفصح، بمعنى أن الكلمات الدخيلة أو التي تنطق بلفظ بعيد عما تنطق به في نجد أقل منها في اللهجة الموريتانية التي تسمى بالحسّانية.

قلت لهم: إذا كنتم تقولون: إن (الراشد) كثير فإنه لابد أن تكون لهم فروع كثيرة، فمن أي فرع من فروعهم أنتم؟ فذكر أنهم (أولاد زايد) فرع من الراشد.

اللبن الذي ودوه للسوق:

وهنا قلت لهم ما كنا نقوله للأعراب الذين نصادفهم في الصحراء في وقت الربيع: عندك لبن يا ابن العم؟ فقال: اللبن ودّوه السوق؟

أي أنهم ذهبوا به ليبيعوه في السوق، وهذا أمر لا يقوله قومنا الأعراب، لأنهم يرون أنه لا يليق بهم أن يبيعوا اللبن، ولكن هؤلاء تعودوا على ذلك، وقد مر ذكر الأعرابيات اللاتي يبعن لبن الإبل في السوق.

وقال الفتى ما لم يقله الكهل: تفضلوا، ادخلوا البيت، اللّه يحييكم، فشكرناه، وذكرنا له أننا على عجل، وإنما رأينا أبياتهم فأردنا أن نراهم فنسلم عليهم، وسألونا أنتم منين؟ فأخبرهم الرفقة بذلك.

وكانت المرأة تراقب ذلك وتستمع للحديث الذي يجري عن بعد، وقال

أحد الإخوة لها: الرَّجَّال يحب يأخذ لك صورة مع الأطفال، فأسرعت تدخل إلى البيت وتدخل أطفالها معها، لكونها كبائعات اللبن لم تفهم المقصود من أخذ الصورة، وربما كانت فهمت أن أخذها لأمر لا تريده، مع العلم بأن أهلها حاضرون، ولم يبدوا ممانعة في ذلك، وإن كانوا لم يذكروا الموافقة عليه.



مع الأعراب قرب بيتهم في الصحراء

بيوت السَّعَف:

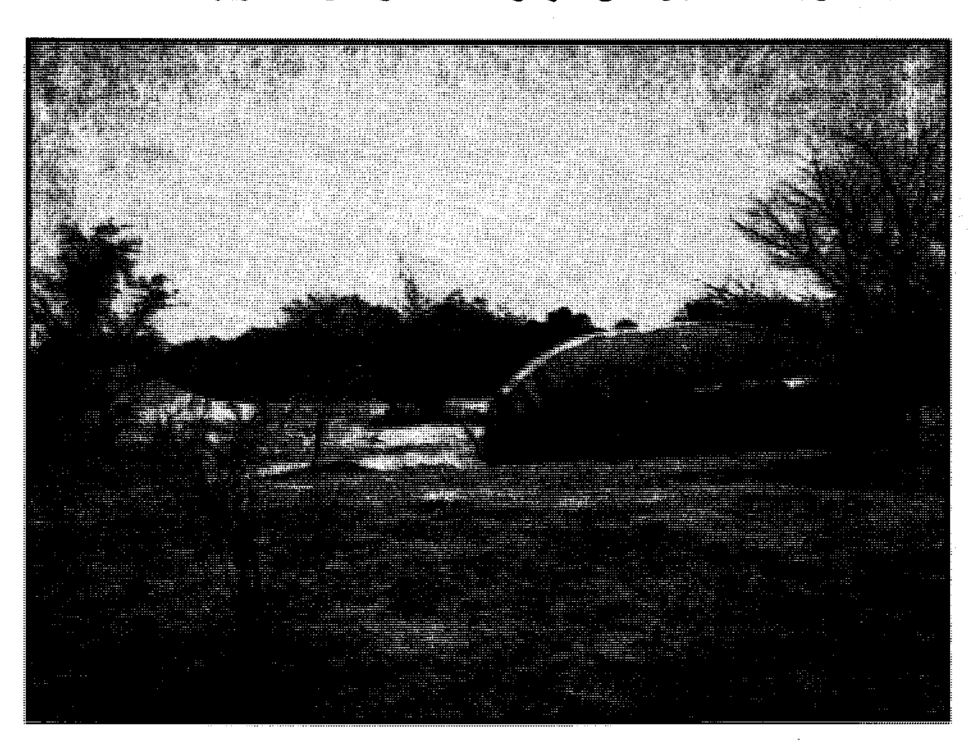
وتأملت بيته فإذا به ليس من الشعر، وإنما هو من القش والخوص، فقلت للرجل: بيتكم وش هو؟ فقال: من السعف، ما هو من الشعر، وقال: الإخوة إن أشجار السعف موجودة قرب البحر يريدون النهر وهو نهر شاري القريب، وظني أنهم بنوا بيوتهم من السعف من أجل ألا ينقلوها معهم، ومن أجل أن يكون مكانها بمثابة المعروف بأنهم كانوا فيه، ورأيت رحل بعير عندهم فسألته عن اسمه فقال: شْداد، بإسكان الشين كما نلفظ باسمه.

وسألته عن هذه الشجرة التي ربط فيها الحصان فقال: شجرة حراز

ولم أعرف شجر الحراز عندنا، وربما لا تكون موجودة في بلادنا لأنني لم أذكر أنني رأيتها من قبل.

قلت وأنا أشير إلى الحصان: ولد الفرس وش اسمه عندكم؟ فقال: (فلو)! وهذا هو المعروف عند بني قومنا.

هذا وكنت أتأملهم فأجد أنهم سمر شديدو السمرة، ولكن تقاطيعهم لا تزال عربية إلا أنها ذات طابع يبعدها عن التقاسيم المعتادة في وجوه الأعراب، وبخاصة وجوه الأعراب من أهل الشمال، وأشبه الناس بهم هم أهل تهامة المحاذية لمنطقة المدينة المنورة، وقد التقطت لهم صوراً أسرع إليها الشابان، وأباها الكهل حتى شرحوا له المقصود من التصوير.



بيت الأعراب من آل راشد في شاد

قرية وادي الدوم:

تركنا أعراب (آل راشد) عائدين إلى الطريق الإزفلتي، ورأينا أكوام الحطب بمقادير غير كبيرة معروضة على الطريق للبيع، وعجبت من كون

الأشجار لم تنقرض من المنطقة بسبب كثرة قطعها للحطب، ولكن البلاد بلاد شجر ملتف، وأمطار موسمية كثيرة، ولاحظت شيئاً ظاهراً في أشجارها المقطوعة، وهو أنهم لا يقطعونها باقتلاع جذورها، وإنما يرفعون موضع القطع منها قليلاً عن الأرض، فربما كانوا قصدوا من ذلك أن تنمو ثانية، وربما كانوا فعلوا ذلك لكونه أسهل عليهم في القطع من استئصال الشجرة من جذعها.

وصلنا قرية اسمها قرية (وادي الدوم)، وهو اسم على مسمى، إذ يكثر الدوم في الوادي الذي تقع على ضفته، وهو أول ما نراه من أشجار الدوم هذه منذ أن خرجنا من (إنجمينا) وهو فيها كثير.

والدوم - إن لم تكن تعرفه - هو أشجار ضخمة تشبه أشجار النارجيل القريب من النخل على البعد، إلا أنها تخالفها في شكل عسبها: جمع عسيب، وفي كون الشجرة تتفرع فروعاً عديدة من ساقها كثيراً ما تكون مرتفعة قد نبتت أفقياً ثم أبعدت عن الساق، وصارت تنمو رأسياً ولكنها تظل عوجاء غير مستقيمة.

والقرية ذات بيوت من الطين وأكواخ من القش، وكلها متفرقة غير متلاصقة، ويبدو البيت من بيوتها على هيئة غرفة واحدة.

ورأيت عدداً من القرويين جالسين وأناساً منهم تحت ظلال الأشجار الكبيرة، فذكرت بلادنا التي تقل فيها الأشجار الكبيرة ذات الظل الكافي، فيكتفي الأعرابي عن ذلك بأن ينصب عصاه ويضع فوقها شملته وهي عباءته الرثة الخلقة، ويجلس تحتها يستظل بذلك من حر الشمس.

هذا وقد كثرت أشجار الطلح بعد أن بعدنا عن المدينة، وصار بعض الأشجار نضراً مرتفعاً عن الأرض يجلله ورقه الأخضر.

مدرسة القش:

وقفنا عند قرية كبيرة نسبياً، وإلا فإن قراهم هنا كلها أو أكثرها صغير، وذلك أنها للرعاة في الغالب.

وقال الإخوة المرافقون: سوف نريكم مدرسة القرية التي يلتحق بها

الأولاد منها ومن الأماكن القريبة، وسوف ترون أنها مبنية من القش والأعواد.

ولم نر مدرسة على البعد، وإنما رأينا مجموعة من الأخصاص المبنية من القش والأعواد.

ووقفنا عند فصل من فصول الدراسة الذي لم يقتصر منظره على كونه من القش وإنما تهدم جانب منه، ومع ذلك رأيت مقاعد للدارسين خشبية جيدة، كما انتقلنا إلى فصل آخر من القش أيضاً فيه سبورة جيدة المنظر أمام مقاعد خشبية جيدة أيضاً، وليس في المدرسة أطفال لأن الوقت الآن هو وقت عطلة لجميع المدارس كما عرفنا ذلك من عدة مصادر.

وقد حملهم على البناء بالقش والأعواد كونها موجودة عندهم بخلاف الطين الذي لا يوجد الصالح للبناء منه في أرض المدرسة، وإنما يحتاج إلى نقله من مكان بعيد.

وقد رأيتهم خصصوا مكاناً واسعاً بين الفصول ليكون ملعباً للتلاميذ في حصة الرياضة أو أثناء العطلة بين الحصص.

ولم أر في القرية أيضاً أي أثر للزراعة، كما لم أر فيها أشجاراً مغروسة ولا آباراً يجلب منها الماء، وفسر القوم لي ذلك بكون النهر غير بعيد، لذلك يمكنهم أن يحضروا ماء الشرب منه، وذكروا أنه لا يبعد عن هذه القرية إلا بحوالي كيلومتر واحد.

وتسمى القرية (أنغادينا) وبناء هذه الكلمة قريب من بناء كلمة إنجمينا في اسم العاصمة، وإن لم يكن مماثلاً له، وقد ذكروا أن للكلمة معنيين عندهم، أحدهما: أتكأنا من الاتكاء، وهو أن يسند المرء جسمه إلى شيء يريحه به، والثاني: ابتدأنا من الابتداء لا يدرون أي المعنيين أراد أهل القرية أن يسموها به.

ومع أن القرية مؤلفة - كما قلت - من بيوت متفرقة من الطين والقش فإن فيها عدة حوانيت من العشش - جمع عشة - من بينها ثلاثة هي ٣ أفران لشيّ اللحم، وبيعه شواء طازجاً جاهزاً للآكلين.

ومن بين الشواء أعضاء كاملة من الذبيحة مشوية دون تقطيع أو

تكسير، رأيت منها يد خروف مشوية، فسألت البائع عن ثمنها فقال: مائة وخمسة عشر ريالاً شادياً، ويساوي ذلك ٦٥٠ فرنكاً إفريقياً غربياً التي تعادل حوالي ٩ ريالات سعودية، مع أنها تزن نحو كيلوين ونصف.

وقد سبق الحديث عن رخص أسعار اللحم في البلاد، وأنهم لا يبيعونه بالوزن وإنما جزافاً من دون وزن، ووجود اللحم بهذه الكثرة وكونه المأكول الوحيد الذي رأيته يباع بهذه الكثرة على قارعة الطريق يدل على ذلك.

هذه دوقيا:

وصلنا إلى غابات ملتفة خضر وارفة الظلال، والسيارات والأناسي تسير في ظلها فقال القوم:

هذه دوقيا.

ودخلنا مع مدخل عليه خشبة معترضة تمنع الداخلين ولكنها مرفوعة الآن وقد كتبوا عليها باللغة العربية: (ممنوع التنزه في هذه المنطقة) يريدون أنها خاصة بضيوف الحكومة، ونزلاء فندق فيها، وكأنما تذكروا هنا فقط أن الجمهور يعرف العربية فكتبوا إعلانهم بها.

فسرنا مع طريق وسط الغابة المظلمة حتى وقفنا عند ضفة نهر شاري لأن هذه الحديقة هي جزء من منتزه (دوقيا).

وتلك الأشجار مختلفة الأنواع من أكثرها ظهوراً أشجار الأنبه (المانقو) الضخمة، وأشجار أخرى لم أر لها مثيلاً في المدينة مما يدل على أن المنطقة يمكن أن تنمو فيها أعداد من الأشجار النافعة المتنوعة إذا وجدت العناية الكافية.

وأسرعت إلى ضفة النهر المرتفعة أنزل منها قليلاً ومعي الأخ (الطاهر قاسي)، ولكن الضابط الذي ذكروا أنه مكلف بحراستي سارع وانضم إلينا وهو الملازم (حافظ بن مندي) ورتبته في الجيش ملازم أول طيار.

وقال الأخ الطاهر قاسي والضابط يسمع: إن هذا الضابط هو من حرس الرئيس أرسله لحراستك، فقلت: شكراً لفخامة الرئيس، وأسأل الله تعالى أن يحرسني بعنايته.

وذكرني إسراعه باللحاق بي وملازمتي زيارة رسمية كنت قمت بها للفلبين على رأس وفد رسمي مؤلف من ثلاثة أشخاص أحدهم من وزارة الخارجية، والثاني من رابطة العالم الإسلامي، وذلك قبل أن ألتحق بالعمل في الرابطة.

وكانت الزيارة بناء على دعوة من رئيس جمهورية الفلبين ماركوس، لذلك وضع لحراستنا فرقة من حرسه الجمهوري على رأسها ضابط كبير، فكان يلازمني أينما ذهبت حتى إذا انتقلت من غرفتي إلى غرفة زميلي تبعني حتى أدخل الغرفة، وكانوا حجزوا له غرفة في فندق مانيلا الذي أسكن فيه بجانب غرفتي.

وقد التقطت صوراً لهذه الضفة الشادية وهي الشرقية، وإن كانت شرقيتها فيها ميل إلى جهة الشمال، وللضفة الأخرى المقابلة وهي الضفة الكاميرونية التي هي مسلمة مثل الضفة الشادية ذلك بأن أهل هذه المنطقة من (الكاميرون) مسلمون، ويتحدثون العربية أيضاً مثل الشاديين، بخلاف جمهرة سكان الكاميرون وخاصة منهم أهل الجنوب الذي عاصمته (أدوالا)، فإن أكثرهم مسيحيون، وإن كانوا أو كان أكثرهم غير ملتزمين بالمسيحية.

وقد قال أحد الإخوة الحاضرين: إن عمق الأرض التي يقطنها المسلمون الكاميرونيون تمتد من ضفة هذا النهر التي ترونها إلى مسافة ٤٠٠ كيلومتر.

ولا شك في أن هذا بعد تقريبي لأن الأديان لا يمكن أن يكون لها حد تقف عنده، اللهم إلا إذا كان في البلاد عازل جغرافي قوي كالجبال العالمية، والأنهار الكبيرة والبحار العريضة.

ذكريات من الكاميرون:

وذكريات الكاميرون قسمان: أحدهما كان إلى جنوب الكاميرون المسيحي، وإن كان المسلمون موجودين فيه، يتمثل ذلك بمناظر ثيابهم وهيئاتهم وبمساجدهم الكثيرة حتى في مدينة دوالا عاصمة الجنوب، وحديث هذا القسم ورد في كتاب: ((نظرة في وسط إفريقية)) وهو كتاب

مطبوع.

وأما القسم الثاني فهو هذا الجزء الشمالي المسلم من الكاميرون والذكريات عنه أقدم عهداً من الذكريات عن الجنوب.

فقد كان ذلك منذ سبع عشرة سنة وبالتحديد في عام ١٣٩٦هـ عندما زرت (شاد) الزيارة الأولى وهي الزيارة الوحيدة قبل هذه، فكرم صديقنا السفير السعودي آنذاك في شاد الأستاذ عباس فائق غزاوي بأن رتب رحلة لي إلى ذلك الجزء من الكاميرون الذي نراه من الضفة الشرقية لنهر شاري، وأمر بتجهيز سيارته وهي (دبلوماسية) وأرسل معي موظفاً كبيراً من موظفي السفارة، فقطعنا نهر شاري بسيارتنا على ظهر عبارة كانت تنقل السيارات والأناسي بين ضفتي النهر الشادية والكاميرونية، ثم انطلقنا بسيارتنا داخل الكاميرون، فزرنا (مروي) وتوقفنا فيها، وأعجبني الأمر في سوق هناك إذ جميع الذين فيه من شاديين وكاميرونيين وهم أكثر من الشاديين بطبيعة الحال لا يتفاهمون فيما بينهم إلا باللغة العربية، ولم أكن عرفت آنذاك أن العربية منتشرة في هذه المنطقة، وإن كانت لهجة خاصة منها.

ثم أمعنا مع الطريق الإسفلتي داخل أرض الكاميرون وتغدينا آنذاك في منطقة سياحية من منطقة (قروى) الكاميرونية، وكان غداؤنا في مطعم على رأس تلة جبلية هناك أظن اسمه (واز).

والغريب أننا لم نصادف آنذاك من سألنا عن جوازاتنا ولا عن سيارتنا التي تحمل لوحة (دبلوماسية)، وقد توغلنا في أرض الكاميرون إلى مسافة ١٤٧ كيلومتراً، ولم نجد من سألنا ذلك حتى عندما عدنا إلى شاد.

والشيء الذي تمنيته آنذاك أن القسم الشمالي من الكاميرون وكان مستعمرة بريطانية لم يتحد مع الجنوب الذي كانت فرنسا تستعمره، وذلك لكون الشمال فيه أغلبية مسلمة، أو تكاد تكون كذلك.

وكان رئيس البلاد آنذاك مسلماً هو الرئيسي (أحمدو اهيجو) الذي كنت قابلته في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما أدى فريضة الحج، وتحدثت معه طويلاً آنذاك.

ويومها تخيلت أن الكاميرون الشمالي لو كان دولة مستقلة وحده

لانضم إلى الجامعة العربية، لأن العربية هي أكثر اللغات استعمالاً بين أهله، مثلما أن (شاد) لو لم يلحق به الجنوب المسيحي ذو الثقافة الفرنسية لأعلن نفسه منذ سنين دولة عربية مسلمة.

وقد حدث عكس ما تمنيته، إذ احتال (بول بيا) ومن معه على الرئيس (أحمدو اهيجو) حتى ترك الرئاسة وتولاها المسيحي (بول بيا) الذي بدأ عهده بمكافحة نفوذ المسلمين على الحكومة الكاميرونية الاتحادية، فعزل من عزل من كبار الموظفين المسلمين، وحاكم من حاكم، وعاقب من عاقب حتى اضمحل نفوذ المسلمين من تلك الحكومة أو كاد.

عود إلى الحديث عن دوقيا:

نعود إلى الحديث عن منتزه دوقيا، فنقول: إن إخواننا تخيروا مكاناً ظليلاً بين أشجار وارفة الظلال، ففرشوا فيه سجادة كبيرة وضعوا في أطرافها وسائد ما لبث بعضهم أن (كوعوا) أي اتكاؤوا عليها في جلسة تمدد واسترخاء.

المرارة والذبيحة:

تحدثنا لبعض الوقت، بينما كان جماعة من العمال جاؤوا معنا في سيارة شحن صغيرة من (إنجمينا) يسعون في إعداد الغداء، وكان الجو مناسباً والأحاديث مفيدة لأنها مع قوم مثقفين مطلعين على الأمور.

ثم ما لبث العمال أن طرحوا السفرة وجاؤوا معها بإبريق الماء الذي يغسل منه المرء يده استعداداً للأكل وهو جالس على السجادة.

وكان أول ما قدموه لحماً من بطن الخروف من الكرش والكبد والرئة، وقالوا: هذا نسميه (المرارة)، ويقدم في أول الطعام، ولا بد من ذلك لمن يريد أن يثبت لضيوفه أنه قد ذبح لهم ذبيحة خاصة بهم، ولم يشتر اللحم من السوق.

وقد أسموا حشو بطن الذبيحة هذه بالمرارة، لأنهم كانوا ينقطون من (مرارة) الذبيحة عليها نقطاً إمعاناً في التدليل على أن الذبيحة قد ذبحت من أجل الضيف، لأنه إذا كان اللحم قد أحضر من السوق، فإنه لا تكون فيه

مرارة لكون الجزار يرميها بعيداً عن اللحم لئلا يصيبه شيء من طعمها المر.

إلا أنهم بدؤوا يحضرون (الحشوة) من دون أن يضعوا عليها شيئاً من المرارة لئلا يعكر ذلك طعمها، مع أن الذي نعرفه عن بني قومنا أنهم كانوا يزعمون أن المرارة مفيدة للصحة، فكان بعضهم يبلعها كلها من دون مضغ ومن دون أن تنفتح في فمه ابتغاء لنفعها الصحي، فكان يعبس وجهه ويزوي حاجبيه، ويغمض عينيه وهو يبلعها.

وقلت لهم: إنما هو موجود عندكم من تقديم حشو الذبيحة عندنا قبل الذبيحة الرئيسية لإثبات أنها ذبحت من أجل الضيف لا نعلمه موجوداً عندنا، ولكن كان بنو قومنا في السابق يحضرون رأس الذبيحة مع اللحم لإثبات أنها ذبحت للضيف أو الضيوف خاصة.

وقد أحضروا مع هذا اللحم الذي يصح أن نسميه ببطن الذبيحة خبزاً جيداً وبطاطس مقلية، وخضرات مطبوخة وسلطة، وأحضروا أيضاً بصلاً نيئاً يأكلونه مع اللحم وإن كانوا لا يكثرون منه، وهذا أمر مهم جربته بنفسي وهو أن أكل البصل النيئ مع اللحم الدسم يساعد على هضمه، أو لنقل إنه يمنع عسر الهضم لمن يأكله.

رحم الله ابن بطوطة:

ذكرت ابن بطوطة صاحب الرحلة المشهورة في كثير من المواطن، وربما كان ذلك بجامع الصنعة، لأنني كما نعتني بعضهم رحّالة، وطالما سألني الصحفيون في الأحاديث التي يجرونها معي عن شعوري تجاه ابن بطوطة، وهل قرأت رحلته قبل أن أبدأ الترحال في العالم أم بعد ذلك؟ وهل تأثرت به في الكتابة في الرحلات، فكنت أجيبهم بأنني كنت قد قرأت رحلة ابن بطوطة قراءة معتادة، وهي القراءة العابرة عندي قبل أن أبدأ في الرحلات، وذلك لكوني شغلت وظيفة (قيّم مكتبة جامع بريدة) منذ خمسين سنة إلا قليلاً وبالتحديد في عام ١٣٦٤هـ فكنت أقرأ كل ما كان فيها من الكتب الأدبية والتاريخية لأنها غير كثيرة ومنها رحلة ابن بطوطة.

ولكنني أنسيت ما فيها قبل زمن من ابتداء رحلاتي، وعندما بدأت أكتب في الرحلات لم يكن في ذهني شيء عن ابن بطوطة ورحلته إلا أنني

عاودت قراءة رحلة ابن بطوطة بعد أن زرت بلاداً كان قد زارها وتكلم عما رآه فيها للمقارنة بين ما رأيته وما رآه ومعرفة تأثير الزمن في ذلك.

ولذلك صرت أستعيد أشياء مما حدث لابن بطوطة مثلها، ومن ذلك ما حدث اليوم، فقد أردت الوضوء فأخذت إبريق الماء معي وأبعدت قليلاً الرفاق فتبعني الملازم الطيار (حافظ بن مندى) فقلت في نفسي: إن هذا غير لائق لا سيما أن المكان ليس فيه أحد، وإن كان تحت أشجار كثيفة يمكن أن يختبئ تحتها مختبئ فلما وقفت وقف، وعرفت أنه فعل ذلك قياماً بواجبه في الحراسة جزاه الله خيراً مثلما فعل شخص ذكره ابن بطوطة، وذلك أنه كان - كما قال - منحدراً في نهر النيل الذي يراد به (نيل السودان) في كتبنا العربية القديمة، وهو نهر النيجر في الوقت الحاضر وليس نيل مصر، وإن كان ابن بطوطة قد ذكر ما يدل على أنه يعتقد أنه هو نيل مصر يذهب من تلك المنطقة من بلاد السودان الغربي إلى مصر.

قال ابن بطوطة: أردت أن أبول على ضفة النيل، فلحق بي أحد المرافقين، فعجبت من سوء أدبه، ولكنني عندما ذكرت ذلك لفلان - لرجل ذكره - قال: إنه أراد أن يحرسك من التمساح، لأنه يوجد في النيل !

وقبل ابن بطوطة كان الشريف الإدريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق قد زعم بأن نيل مصر تأتي شعبة منه إلى بلاد السودان الغربي الذي هو مالي وما حوله ويريد بالشعبة نهر النيجر.

وهكذا ذكرت أن الأخ الملازم حافظ مندى إنما تبعني ليس بدافع من سوء التقدير، ولا أقول من سوء الأدب، وإنما بدافع من عكس ذلك جزاه الله خيراً إذ اعتبر أن واجبه يقتضي ألا يدعني أغيب عن نظره، قياماً بواجب الحراسة !.

القرود فوق الشجرة:

وهي الشجرة التي كنا جالسين تحتها وهي كبيرة ضخمة لم تستطع أشعة الشمس أن تخترقها لتراكب غصونها، وتراكم ظلال أفنانها، وبينما كنا جالسين تحتها وإذا بثمار من ثمارها الصغيرة لا أعرفها، ولم يعرف القوم لها اسماً تسقط علينا من دون سبب من ريح أو نحوها، أو من تحريك

غصن من أغصان الشجرة الكبيرة، ثم عرفنا أن السبب في ذلك هو وجود قرود صغيرة تشبه النسانيس - جمع نسناس - إلا أنها أكبر منها في الحجم وأن لونها أشهب.

ثم كثرت رؤية هذه القرود الصغيرة وهي تقفز على الأشجار ترتفع بسرعة حتى تختفي في أعاليها الكثيفة، ولا يمكن تصويرها لأن الغابة مظلمة، وعندما رأيت اثنين منهما ينزلان من الشجرة تبعتهما حتى خرجا إلى شجر أقل كثافة ومعي مصورتي، فكانا إذا وقفت للتصوير صعدا للشجرة كأنما يخافان من أن يكون بيدي بندق تطلق عليهما، أو مثلما كانت الطيور التي نصطادها في البرية تطير إذا وقف الصائد استعداداً لإطلاق النار عليها.

ورأينا السياح من الأجانب وكلهم أو أكثرهم من الفرنسيين، وقد زارنا مدير المنتزه عندما أخبره أحدهم بوجودي فسلم وأحفى السلام.

وفد من الكوتوكو:

وزارنا وفد من قرية مجاورة واقعة على نهر شاري هذا من خمسة أشخاص على رأسهم الإمام، إمام القرية واسمه حسن أبَكر، بفتح الباء وأصلها أبو بكر، سألته عما إذا كانت توجد لديهم مدرسة دينية فأجاب بأنه لا توجد مدرسة، وإنما يعلم الإمام الأطفال أمور دينهم في بيته، ولاحظت أن لغتهم العربية واضحة مثل غيرهم، وأنهم كلهم يعرفون العربية، فسألته قائلاً: أنت تعرف العربية؟ فاستغرب هذا السؤال وقال: كل الناس هنا يتكلمون العربية فقلت له: ألك لغة أخرى؟ فقال: لنا لهجة، ولكنها ضيقة فمثلاً لنا لغة هي الموجودة في كسري، ولأهل (مارا) لغة أخرى لا نعرفها ولا يعرفون لغتنا، فلا نستطيع أن نتفاهم معهم إلا بالعربية مع أننا كلنا من قبيلة (كوتوكو).

وهنا قلت له: أنت إمام فهل لك راتب؟ فنفى ذلك، وقال: ليس لي راتب على إمامة المسجد ولا على تعليم الأطفال.

وجماعات (كوتوكو) هم من الجماعات الأصيلة القديمة السكنى في هذه المنطقة قبل أن يصلها العرب، ولا يزالون في أماكنهم فمنطقة (دوقيا)

هذه تعتبر من مناطقهم، وكذلك (دوقيا) الكاميرونية التي ذكر أنها على الضفة المقابلة من نهر (شاري) وهي الضفة الغربية.



مع اثنين من الكوتوكو في منتزه دوقيا

وتتضح إقامتهم الطويلة في إفريقية أو لنقل عراقتهم في الإقامة في هذه المنطقة، بصفاء ألوانهم في السواد، بمعنى أنها ذات لون أسود فاحم السواد، نقي مما يخالطه من صفرة أو كدرة فضلاً عن أي شيء من البياض.

والقوم إخوة مسلمون عريقون في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، ومتمسكون به، يبين ذلك على وجوههم وحركاتهم وخشوعهم عندما تذكر أمور الدين.

سألتهم عن علاقتهم بإخوانهم الذين يقطنون على الضفة الكاميرونية وهي تتبع دولة أخرى، فذكروا أنها علاقة معتادة ليس فيها أي قيود أو أية إجراءات، فهم يقطعون النهر جيئة وذهاباً كما كان آباؤهم الأقدمون يفعلون، من دون أن يعترضهم معترض أو يطلب منهم أحد إبراز أية أوراق.

قال الإمام وإخوانه يسمعون وكلهم يعرف العربية مثل العرب في هذه

البلاد: إننا نزرع في الضفة الكاميرونية من النهر كما نزرع في ضفتنا الشادية، وذكر الإمام أن والده يقيم الآن في الكاميرون أي في الضفة المقابلة.

فسألته عما يزرعونه فقال: نزرع دخن وذرة، والدخن أنواع، قال: وعندنا غنم كثير لا شك أنكم رأيتم بعضها، وبعضنا يصطاد السمك من نهر (شاري) فنأكله، ولم يقل لنبيعه لبعدهم النسبي عن مركز المدينة وصعوبة نقل الأسماك طازجة إلى هناك، مع قربها من العاصمة، مع أن في سكان العاصمة أناساً يعيشون على صيد السمك من النهر لكثرة السمك فيه، وكذلك هناك أناس يعيشون على صيد الأسماك من بحيرة شاد التي لا تبعد من هنا كثيراً، ولكنهم يملحونه ويجففونه ويبيعونه في العاصمة وغيرها.

سألت عن المرعى للغنم، فقال: هو - كما ترى - كثير وواسع، فسألته عن الربيع والجدب وهل يتعاقبان عليهم؟ فقال: لا نعرف الجدب، فالمطر يأتي بانتظام والعشب والمرعى موجود.

السلطان بحر:

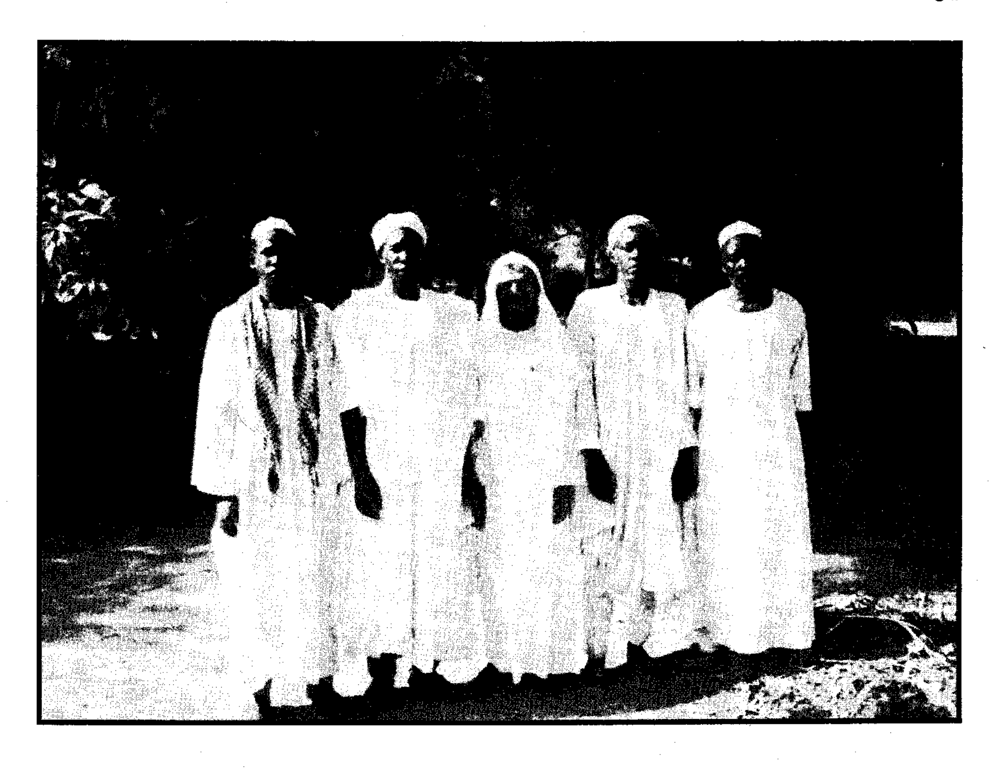
وكنت سمعت أنه كان لهم سلطان في زمن من الأزمان، فسألته عما إذا كان لهم سلطان الآن؟

فقال: نعم، سلطان قبيلتنا اسمه (بحر إبراهيم) أقول: يريدون بالبحر هنا: النهر لا بالبحر الملح كما سبق، لأنه ليس بقربهم بحر ملح، ولا يعرف أوائلهم مثل ذلك البحر.

وقال لي الإخوة المرافقون وهم من علية القوم، وفيهم الوزير في الحكومة عثمان جده: إن سلطانهم (بحر إبراهيم) له سلطة حقيقية على القبيلة، وتدفع له الدولة راتباً على ذلك، لأنه الذي يفصل بينهم في المنازعات، ويسير أمورهم بموجب الأعراف التي اصطلحوا عليها منذ القديم، وإن كان راتباً رمزياً فإنه دلالة على اعترافها به.

وقال الإمام: إن السلطان بحر إبراهيم هو من (كوتوكو) مثلنا، وقال

أحد الحاضرين: إن بعض الناس يقول: إنه ذو أصل عربي، ولكن لا يوجد ما يؤكد ذلك.



المؤلف بين أربعة من الإخوة الكوتوكو

وهنا قفز نسناس من الشجر فسألت الإمام (حسن أبكر) عن هذه القرود أيصطادونها؟

فقال: الناس يقتلونها، لأنها تفسد الزرع، فذكرت الألوف المؤلفة من القرود العربية التي توجد الآن قرب الطائف، ويراها المسافرون بين مكة والطائف، وهي تأكل ثمار الفاكهة كالرمان والبرشومي وهو التين الشوكي.

وسألت الإخوة عما إذا كان يسكن مع هؤلاء الإخوة من (الكوتوكو) عرب؟ فنفوا ذلك وقالوا: إن العرب لا يقيمون إقامة دائمة معهم، ولكنهم يسكنون غير بعيد منهم، ولا توجد حزازات بين الجميع لأن المرعى موجود بكثرة والخير يكفي الجميع.

ومن الطريف أنه حان وقت الغداء وهو ذبيحة كما قدمت، فطلب

الإخوة المرافقون من الإمام ومن معه من (الكوتوكويين) أن يتناولوا الطعام معنا فامتنعوا عن ذلك وذهبوا.

وهذا من الفروق أيضاً ما بينهم وبين الأعراب عندنا الذين كانوا لا يمانعون في إجابة الداعي إلى الطعام إذا دعاهم إليه، بل إنهم يتعرضون لذلك ويعرضون به إذا لم يدعوا إليه.

وقبل انقطاع الحديث عن (الكوتوكو) أقول: إنني تمشيت في هذه الغابة فلقيت صبياً يافعاً من الكوتوكو، وهم يتميزون كما قلت بلونهم الأسود الصافي، فكلمني بعربية فصيحة فقلت له: أتصلي؟ فاستنكر ذلك وقال: عمري الآن عشر وخمس، يريد خمس عشرة وأنا أصلي من يوم عمري سبع سنين.

وهنا ذكرت ما كرره لي القوم وعرفته عنهم من كونهم يواظبون على أداء الصلاة لا يخل صغيرهم ولا كبيرهم بذلك إلا من ندر منهم.



على ضفة نهر شاري مع الضابط المرافق ...

الغداء الثاني:

جاؤوا بالغداء أو هو العشاء إذْ قدموه في الساعة الرابعة، وهو الوجبة الرئيسية، وفيه خروف مشوي، قد قطعت أوصاله، ومعه مرق وخضار مطبوخة، معها أبازير لذيذة وبطاطس مسلوقة جاؤوا بطائفة من لحم الخروف مطبوخة مع الخضرات، وقد أمعن القوم في الشواء أكلاً، وأمعنت أكلاً في اللحم الصليق، ولم أجد صعوبة في الهضم بعد ذلك، إذْ مع الخضار سلطة فيها الخس والخيار والأبوكاتو قالوا: إنه من الجنوب وغير ذلك، وأما الفاكهة فإنها الأنبه (المانقو) والشمام والموز والمشروبات غازية معتادة.

هذا وقد تلبدت السماء بالغيوم، ولمع البرق، وقصف الرعد، فذكروا أن موسم المطر في هذه المنطقة يستمر من الشهر السادس الذي هو شهر يوليو (حزيران) إلى الثاني عشر الذي هو (ديسمبر).

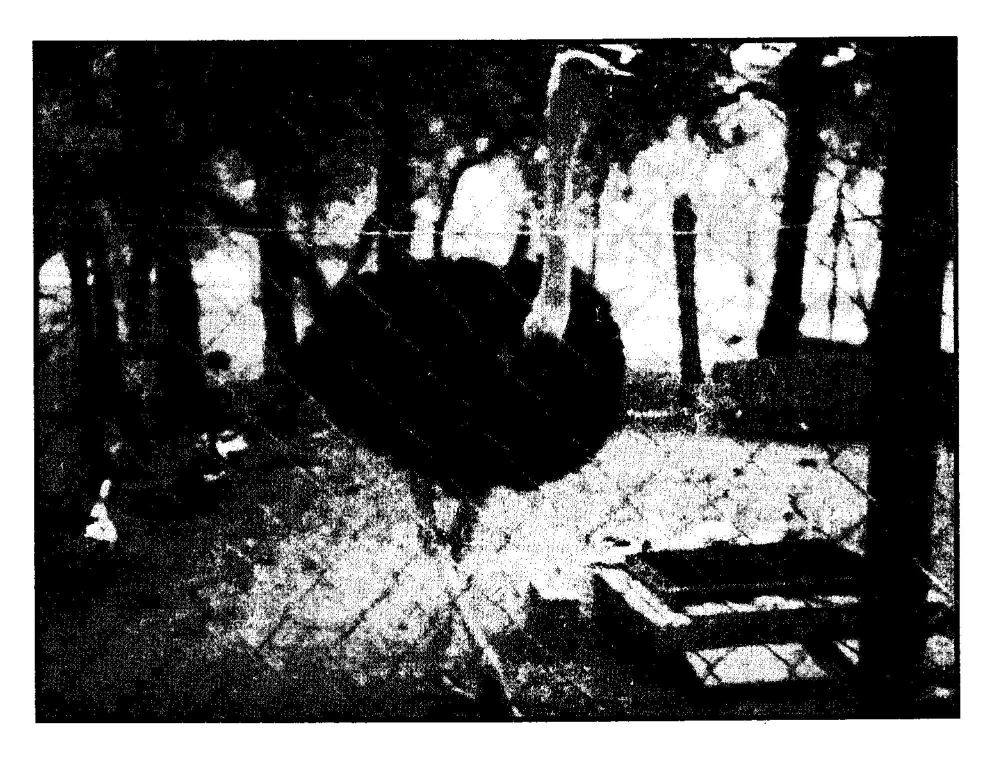
ولم يمنعنا الرعد وتكاثف السحاب من جولة على الأقدام في هذا المنتزه الجميل، فكان السير بين الأشجار الضخمة وقد أظلم الجو فزاد المنتزه إظلاماً، ولكن حديث الإخوة المرافقين الذين كلهم من المثقفين العارفين بأكثر ما أود معرفته قد بدد ذلك كله.

ووصلنا في تجوالنا إلى فندق في المنتزه على طريقة فنادق الغابة حيث نثروا غرفه نثراً بين الأشجار وهي على هيئة أكواخ طينية وطنية، لها سقوف مخروطة الشكل إمعاناً في إظهار شعار المنطقة.

والظاهر أن طلاءها هو الذي جعلها تبدو كأنما بنيت بالطين، وإن كانت قد بنيت من الإسمنت كما صار بعضنا يعمل الآن في بيته الإسمنتي في الرياض بأن يبنيه على هيئة بيوت الطين، ويجعل طلاءه مماثلاً لمنظر البيوت المبنية من الطين.

وحديقة الحيوان:

وفي هذا المنتزه بجانب الفندق منطقة صغيرة للحيوان فيها عدد من الحيوان والطير الذي يستحق المشاهدة، من ذلك نعامة كبيرة ضخمة هي أكبر من النعام المألوف الذي كان موجوداً عندنا، ونراه في حديقة الحيوان الآن في الرياض.



نعامة وأوز في منتزه دوقيا

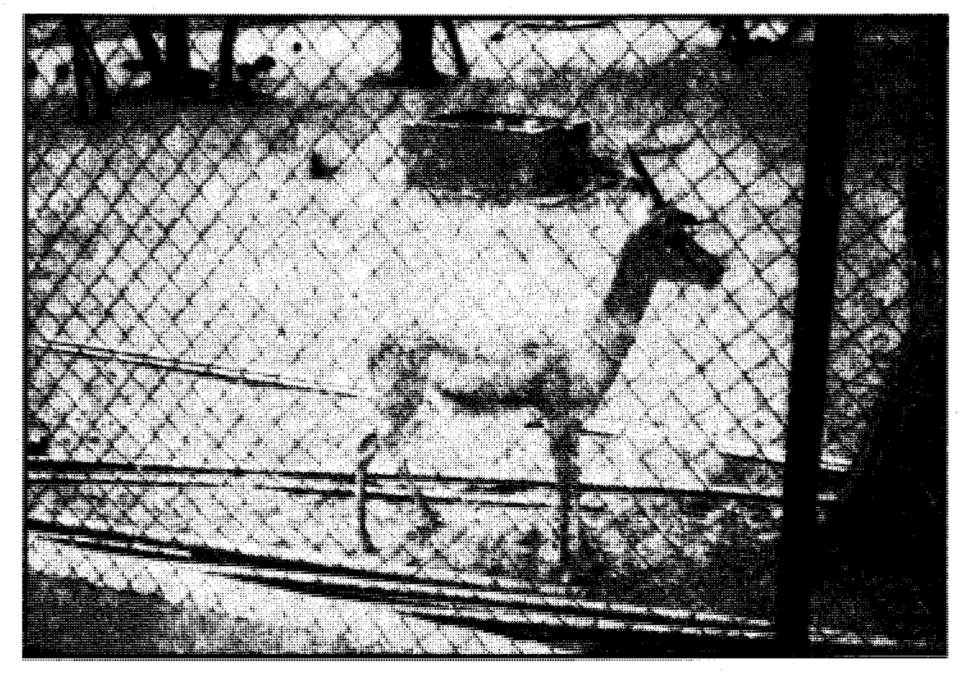
إلا إذا كان النعام الموجود الآن في حديقة الحيوان بالرياض لا يمثل النعام الصحراوي الذي كان موجوداً عندنا بكثرة وانقرض منذ حوالي القرن أو نحوه.

وعندما رأيت هذه النعامة تتهادى في سيرها وكأنها الذلول من الإبل التي ترفع رجلاً واحدة ثم تحطها رافعة الرجل الأخرى، وهي تسير سيراً وئيداً ذكرت قول الشاعر:

ومثل حمامة تدعى بعيراً ... تعاظمها إذا ما قيل: سيري

فإن قيل: احملي، قالت: فإني ... من الطير المربة في الوكور

ومن جميل ما في هذه الحديقة أيضاً ظباء حمر رشيقة كالموجودة عندنا لولا أنها تميل للون الأحمر أكثر من ظبائنا.



غزال جميل في منتزه دوقيا

نزهة في نهر شاري:



في القارب على نهر شاري

ركبنا قارباً كان راسياً في النهر من مرسى طيني ليس فيه من صنع الإنسان شيء إلا ما كان من تسهيل النزول والصعود عنه بحفر درجتين أو ثلاث في الضفة لكونها عالية على صفحة الماء.

وسار القارب في النهر وأنا أجاذب الريح الندية (غترتي) أو عمامتي التي بللها ندى النهر ورطوبة الجو الذي كان ينذر أو يبشر بسقوط المطر، وسرنا نعاكس مجرى النهر فمررنا بالقرية التي يسكنها الإمام (الكوتوكوي) الشيخ حسن أبكر، وهي على ضفة النهر مباشرة بيوتها طينية لم أر فيما رأيته من النهر منها أي عود أخضر، وربما كان ذلك لارتفاع الضفة التي تقع عليها مما حجب عنا رؤية القرية كلها من صفحة النهر.

ورغم قصف الرعد، والندى الموجود في الجو فإن الهواء لم يكن بارداً برداً مؤذياً، وإنما كان حانياً لذيذ الوقع على الجسم.

وهكذا يأتيهم المطر في موسم الحر فيلطف الجو، بل يحيله إلى ربيع حقيقي تنبت فيه الأعشاب ويعم الخصب، ويزدهر المرعى.



مع الرفقة على ضفة نهر شاري

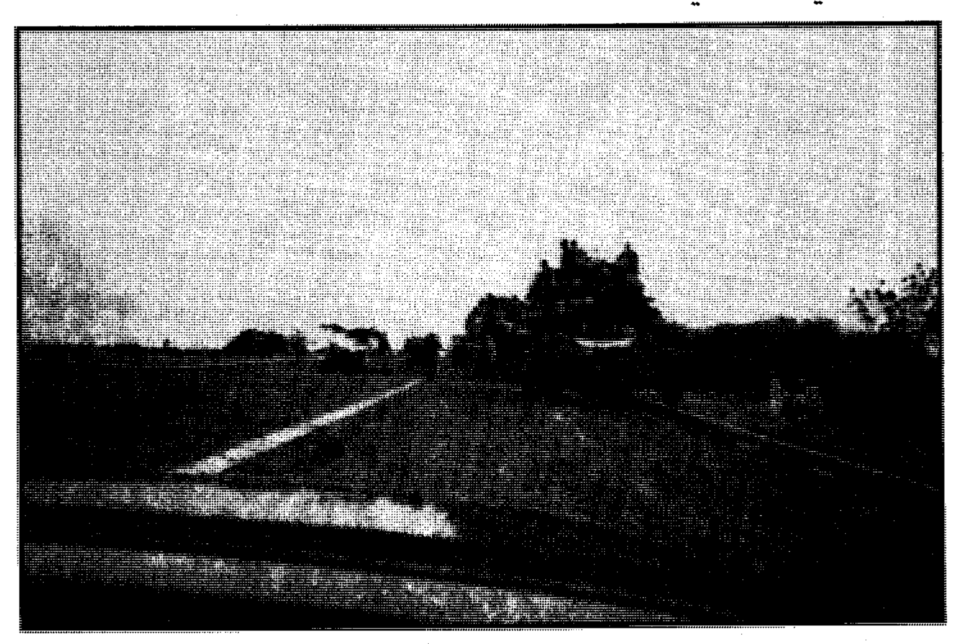
ولم يصبنا رشاش المطر الذي خشيناه، وإنما أصابنا رشاش من النهر الذي يشق القارب صفحته وهو يسير بمحرك فتحمل الريح ما يشقه من الماء حيث يصافح الوجوه والثياب برفق وحنان.

العودة إلى إنجمينا :

بدأنا العودة إلى إنجمينا في الخامسة والربع عصراً، وذلك للخوف من نزول المطر، ولأننا حصلنا على ما نريد من الاطلاع على المنطقة.

وتكرر عجبي من شدة بياض المعزى عندهم، فهو ليس كبياض الماعز عندنا مشوباً بصفرة قليلة، بل هو بياض ناصع، ولم يؤثر هذا الجو الإفريقي الذي يصبغ أجساد العباد بالسواد على المعزى بمثل ذلك.

وقد استرعى انتباهي كثرة سيارات النقل التي أحالوها إلى سيارات للركوب مع نقل الأمتعة فكنت ترى العشرات من الراكبين في السيارة الواحدة وقد أخرجوا أيديهم أو أرجلهم من جانبي السيارة ومن خلفها كما كان الناس عندنا يفعلون عندما عرفنا السيارات لأول مرة قبل الازدهار الاقتصادي الأخير أي منذ ٤٠ سنة.



شاحنات تنقل الركاب من إنجمينا إلى أماكن بعيدة

كنا نسير في الطريق راجعين والجو مظلم والمطر يهطل خفيفاً، ولكن الأرض فيها مناقع من مطر جادها قبل ساعة.

ووصلنا إلى موضع ليس فيه مطر، ولكن السماء مدلهمة بالسحاب، فكانت الرمال السافية تقطع الطريق الإسفلتي كأنها تريد أن تعترض طريق السيارات التي تسلكها مثلما هو عندنا الآن في الأماكن البعيدة من العمران.

منازل الرعاة:

كنت عجبت من حال المنازل التي مررنا بها في الذهاب وهي على هيئة أكواخ من الطين المسقف بالقش أو الصفيح، وبعضها من القش فقط، وتصورت أن أهلها من الفقراء المعدمين، لأن مظهرها يوحي بذلك، ولكنني عندما عدت الآن مع الطريق نفسه عرفت أنني كنت مخطئاً إذ رأيت عند أبواب تلك البيوت الزرية رعايا من الغنم الجيدة المظهر، وأكثرها من الماعز الأبيض الكبير الحجم، فعرفت أنها من منازل الرعاة الذين يملكون الماشية، وأنهم بنوها كذلك في الصحراء أشبه ما تكون ببيوت الأعراب البداة عندنا من الشعر، غير أنهم هنا لا يتخذون البيوت من الشعر وإنما يبنونها من الشجر لوفرته، وسهولة البناء به، ثم العودة إليه إذا احتاجوا لذلك وهم لا يحتاجون إلى الرحيل من أجل جدب هذه الأرض، وإنما يذهب بعض أهل الإبل والخيل إلى الشمال من أجل المرعى الجيد من أعشاب الربيع.

وأما هذه المناطق كما رأيتها فإنها تضم ثروة حيوانية ضخمة يمكن بدون شك أن تتضاعف مع قليل من التشجيع والتوعية لولا شيء يفت في العضد، وهو صعوبة تصدير الفائض من هذه الأغنام إلى البلدان البعيدة كدول الخليج العربية، وعدم وجود ثلاجات وآلات حفظ اللحوم والحيوان المذبوح.

لذلك يقتصر تصدير الماشية في الوقت الحاضر على البلدان المجاورة القريبة كنيجيريا وجمهورية إفريقيا الوسطى.

ولاحظت من حيث جلوسهم حول بيوتهم القروية أو الصحراوية هذه أن الرجال يجلسون على حصر بجانب باب البيت، وأما النساء فإنهن يجلسن

وحدهن أبعد عن البيت قليلاً، والبيت يكون وحده منفرداً ليس له جيران ملاصقون.

وأما الغنم من الضأن والماعز فإنها تربض أو تقف قريباً منه، وقد ساعدهم على ذلك كون بيوتهم منفردة كما قلت، فتكون بقربها مساحات شاسعة واسعة من الفراغ تكفي لذلك كله.

ولا شك في أن الدافع إلى جلوسهم خارج البيوت هو صغرها واعتدال الجو خارجها.

ومن الجميل في لباس نسائهم أردية زعفرانية اللون تلف الواحدة منهن أكثر جسمها بالرداء، وتضع طرفاً منه على رأسها. فهي بهذا تشبه السودانيات المحافظات، ولكن الرداء مختلف بين أهل البلدين.

وتغلب الرشاقة على نسائهم، فأكثرهن تميل أجسامهن إلى النحول مثل الشبان من الرجال، وأما متوسطو العمر من الرجال فإن أجسامهم معتدلة، ولا يكاد يوجد الترهل فيها، وهو السمن الكثير المسترخي.



الشاحنات محملة بالبضائع والركاب في شاد

ورأيت من عادتهم في ركوب السيارات إذا كان الراكبون من الجنسين أنهم يدعون للنساء حوض السيارة وهو أسفل ظهرها يجلسن فيه دون الرجال، ويركب الرجال على أطراف حوض السيارة وقد يكون أكثرهم واقفين وبعضهم يجلس على أطراف حوض السيارة كما يجلس الإنسان على خشبة معترضة، مع أن السيارة تسير والهيئة هذه خطرة، ولكن لا بديل لها عندهم، ومع ذلك يكثرون من حمل الأشخاص والأمتعة على السيارات هذه حتى تعجب لكونها تستطيع أن تسير بحملها الثقيل.

وهؤلاء الراكبون يكونون في الغالب ذاهبين إلى القرى أو البادية القريبة، وأما المسافرون إلى البلدان البعيدة مثل منطقة (ابشا) في الشرق فإنهم يسافرون على سيارات من سيارات النقل الكبيرة تكون مليئة الحوض بالأمتعة والسلع، ويركب الركاب بالعشرات فوقها إن لم يكن عددهم على بعض السيارات الضخمة يصل إلى المائة أو يزيد.

يوم الإثنين: ١٤١٣/١٢/٣هـ

مقابلة رئيس الجمهورية:

ذهبت اليوم ومعي الأخ (الطاهر قاسى) مستشار رئيس الجمهورية إلى مقر الرئاسة، فدخلنا مع المقر الذي هو جميل حديث البناء، يدخل إليه مع بوابة خارجية، وكان الموعد قد حدد من قبل، ومع ذلك لم نتحرك من الفندق حتى جاء الخبر من الرئاسة بأنهم ينتظروننا كما قال الأخ (قاسى) وذلك في الساعة العاشرة ضحى كما هو مقرر في البرنامج الذي وضعوه قبل وصولي.

ويقع المقر على شاطئ نهر (شاري) إلا أنه يفصله فراغ وبيوت تابعة للرئاسة عن مكتب رئيس الجمهورية بحيث لا يرى الداخل شاطئ النهر إذا دخل من البوابة.

سرنا في الفناء المكشوف الذي يتقدم المبنى بين صفين من الأشجار المنسقة، وقال أحد الإخوة: إن هذا المبنى معتنى به، وقلت له: لو لقيت أحياء إنجمينا كلها ربع هذه العناية لصارت جميلة.

وذلك أن المبنى وحدائقه غاية في الجمال وبخاصة عند مقارنتها بالأماكن من المدينة التي لا تلقى العناية من البلدية.

وليس معنى هذا أن يطلب من البلدية أن تجعل جميع أنحاء البلدة مثل مبنى الرئاسة، فهذا غير ممكن، ولا بد من أن يكون مبنى الرئاسة في بلدان العالم الثالث متميزاً، وإن كان لا يكون بينه وبين بقية أحياء المدينة مثل هذا الفرق الموجود هنا.

وإلى جانب الأشجار المنسقة على يمين الداخل ويساره، فإن هناك تماثيل صغيرة متعددة لأسود - جمع أسد - تماشي الداخل عن يمينه ويساره.

وقد وقفت سيارتنا عند مدخل المبنى بعد أن قطعت الفناء المكشوف فوجدنا في انتظارنا مستقبلين من المراسم قادونا إلى قاعة متوسطة السعة، جيدة التأثيث مثل سائر المبنى الذي لا يقل عن المباني المماثلة في البلدان المتقدمة في الإدارة، وكان معهم مصورو التلفزة والصحف، فانتظرنا قليلاً

في هذه القاعة.

ثم جاء موظف من المراسم كبير فتقدمنا إلى حيث يجلس الرئيس في قاعة أخرى، وأشار للمرافقين أن ينتظروا في القاعة، وألا يكون معي إلا السيد (الطاهر قاسى).

وجدت الرئيس في صدر قاعة خاصة واقفاً، فرحب بي ترحيباً بالغاً، ولكنه كان متحفظاً محتفظاً بما تقتضيه المراسم في مثل هذه الحالة، حتى إنه كان يتحدث بوساطة مترجم مع أنه يعرف العربية.



رئيس جمهورية شاد إدريس دبي يودع المؤلف مصافحاً عند مدخل قصر الرئاسة

بدأ سؤالي أولاً عن حالي، وعسى أن أكون مرتاحاً فشكرته على عنايته وقلت: إن الإخوة هنا بتوجيه من فخامتكم قد أكرموني غاية الإكرام، واستقبلوني استقبال الأخ العزيز لديهم.

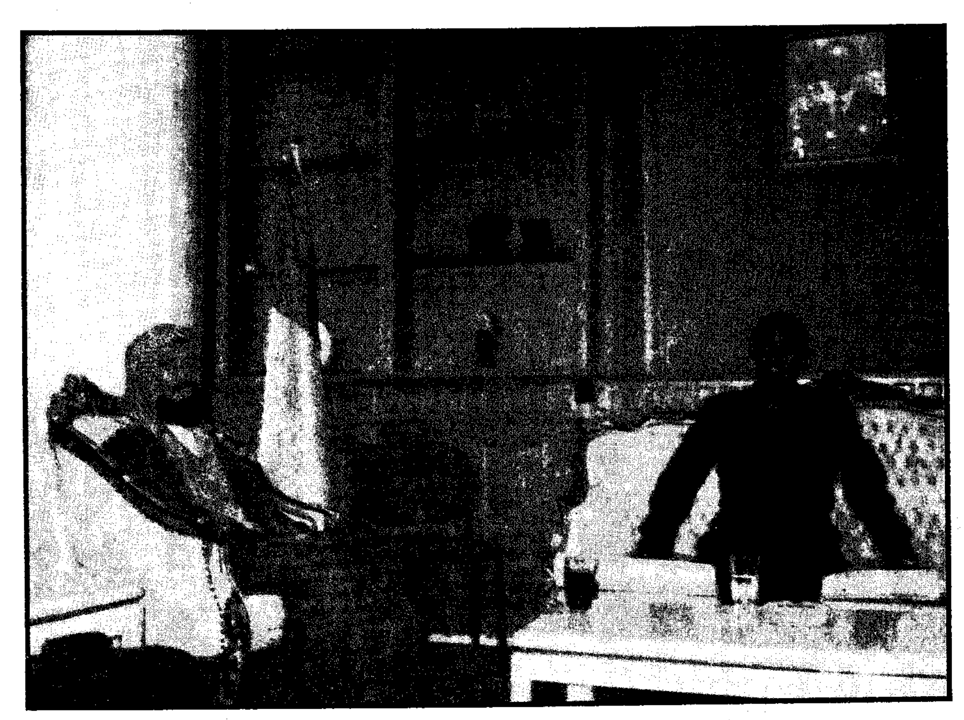
ثم شكرته على ذلك وعلى كرم الضيافة وقلت له: إنني هنا لم أشعر بأي فرق بينما كنت عليه في بلدي وما أنا عليه الآن، إلا أن الإخوة الشاديين

قد أكرموني أكثر مما يكرمون أنفسهم، وذلك بلا شك مرجعه إلى كرمهم وعراقتهم في ذلك، حتى إن اللهجة المحلية هنا لاحظت أنها قريبة من لهجة أهل نجد عندنا.

ثم قلت له: إننا في رابطة العالم الإسلامي نتطلع إلى التعاون مع الجهات الثقافية في شاد فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية والثقافية عملاً بقوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ غير أنه كانت قد حدثت في (شاد) أمور يعرفها فخامتكم وقد وضعتم لها حداً ولله الحمد.

وهي تتلخص في عدم الاستقرار في السابق، والآن بعد أن عقدتم المؤتمر الوطني الذي تدارس فيه الشاديون شؤون بلادهم واتفقوا على السياسة التي ينبغي أن يتبعوها في المستقبل، فإن النفوس قد اطمأنت إلى ذلك ولله الحمد.

وقد سرّنا ما بلغنا عن تشجيع فخامتكم لكل ما يكفل للثقافة الإسلامية في هذه البلاد المسلمة العريقة في إسلامها النماء والازدهار.



رئيس جمهورية شاد يبتسم أثناء حديثه مع المؤلف وبينهما علم شاد

وتكلمت في أشياء أخرى لا أستحضرها الآن لأنه لا يوجد من يضبط كلامي، كما أنني لم أحمل مفكرة أدون فيها رؤوس أقلام لما جرى بيني وبين الرئيس التزاماً بما تقضي به المراسم في مثل هذه الحال.

بعد أن أنهيت كلمتي رد عليها الرئيس بكلمة مبسوطة كان مما جاء فيها قوله:

إن الجميع يدركون الأهمية العظيمة لرابطة العالم الإسلامي، ولذلك تعلق الشعوب الإسلامية آمالها الكبار عليها، ولا بد لذلك من زيادة التعاون ما بين الرابطة وشاد.

وقال: بالنسبة للعلاقات مع بلادكم فإن علاقتنا بها تاريخية، بل قديمة جداً حتى قبل العصر الحديث، ولذلك فإننا نرجو أن تتحقق الأمور التي تساعد على تقوية هذه العلاقات، فمثلاً السفارة السعودية المغلقة الآن نرجو أن تفتح قريباً، فنرى السفير السعودي عندنا، لأنه لا يكفينا أن يكون للملكة العربية السعودية لدينا سفير غير مقيم يكون سفيراً في بلاد أخرى ويزورنا في بعض الأوقات.

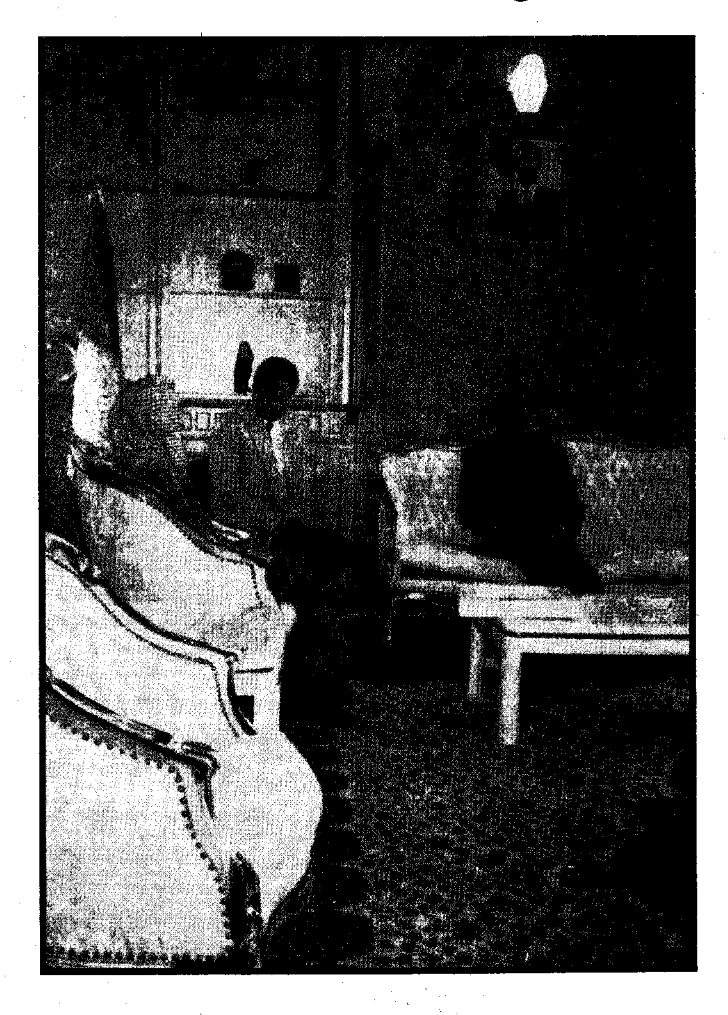
فالسفارة السعودية أغلقت في عام ١٩٨٠م هي وعدد من السفارات إن لم تكن السفارات كلها، وجميع السفارات التي كانت قد أغلقت أعيد افتتاحها إلا السفارة السعودية فنرجو ونكرر الرجاء بإعادة افتتاحها.

وذلك لكون العلاقات بين الشعبين السعودي والشادي قديمة ومهمة أيضاً، وهي ذات وجوه متعددة، فنحن بحاجة إلى التعاون مع المملكة العربية السعودية، وقد أرسلنا عدة مبعوثين إلى المملكة لهذا الغرض، وكان من أهم ما طلبنا من الحكومة السعودية سرعة إعادة فتح السفارة السعودية في بلادنا.

ثم أثنى على المملكة العربية السعودية وقال: شعبنا مؤلف من قسمين مسلمين ومسيحيين، ولا بد لنا من أن نعمل معاً، وإن الشعب الشادي بقسميه: المسلم والمسيحي إذا لم يعملوا عملا مناسباً فربما نكون كالبوسنة في إفريقيا أو غيرها.

ثم قال: نحن لدينا صعوبات ناشئة عن الظروف التي مرت بنا منها

صعوبات مالية وفنية، ونريد التعاون مع المملكة العربية السعودية على مواجهتها لأن العلاقات مع المملكة العربية السعودية كانت قائمة منذ قرون.



رئيس جمهورية شاد والمؤلف والمترجم بينهما في قصر الرئاسة في إنجمينا.

وقال: إن البترول موجود لدينا، ولكن نقله إلى موانئ التصدير يحتاج إلى خبرة ومال.

وقد علقت على كلامه شاكراً له هذا الشرح المفصل، وقلت له: إننا نعمل في رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية، وليست إدارة حكومية سعودية، وإن كانت المملكة العربية السعودية تقدم لها ميزانيتها

لكي تساعد منها الجمعيات الإسلامية، وتتعاون مع المؤسسات الدينية الإسلامية في العالم، ولكننا بصفتنا من رعايا المملكة العربية السعودية سوف نبلغ حكومتنا، وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين ما لقيناه من حفاوة وتكريم في بلدكم الكريم، ومن عناية ورعاية من فخامتكم، وسوف نرفع لخادم الحرمين الشريفين ما تفضلتم به في حديثكم، وبخاصة ما يتعلق بإعادة افتتاح السفارة السعودية في إنجمينا، والذي نعرفه من سياسة حكومتنا أنها حريصة على التعاون مع الحكومات التي يؤلف المسلمون أكثرية بين سكانها مثل بلادكم، ولذلك فإنها بلا شك حريصة على إعادة افتتاح السفارة، وأرجو أن يكون لي شرف تعقب هذا الأمر لدى وزارة الخارجية السعودية.



المؤلف مع رئيس جمهورية شاد (إدريس دبي) في قصر الرئاسة ليس بينهما أحد

وبالنسبة لما تفضل به فخامتكم من أن تاريخ إغلاق السفارة السعودية مع غيرها من السفارات كأن في عام ١٩٨٠م، فإنني أرجو أن يسمح لي وقت

فخامتكم بأن أخبركم أنني أذكر ذلك اليوم بالضبط لارتباطه بعمل شخصي لي، وذلك أن الحكومة الشادية بعد أن تسلم المسلمون زمام السلطة بعد الأحداث التي أعقبت خلع الرئيس السابق (فليكس معلوم) أرسلت عن طريق سفارة (شاد) في المملكة رسالة للحكومة السعودية نخبرها فيها أن الحرب الأهلية التي كانت مستعرة في الشمال قد نتج عنها تدمير كثير من المدارس والمرافق، وهي بحاجة إلى المساعدة على تعميرها، كما أن هناك جهات في (شاد) تحتاج إلى معونة من الحكومة السعودية، وتقترح إرسال وفد سعودي إلى شاد ليقدر حاجاته للمساعدة.

وقد وافقت المملكة على طلب الحكومة الشادية، وألفت وفداً مني قبل أن ألتحق بالعمل في رابطة العالم الإسلامي ومن صديقي الأستاذ عباس فائق غزاوي السفير السعودي السابق في شاد للسفر إلى شاد وتقدير حاجات البلاد إلى المعونة التي يكن أن تمدها به المملكة.

وقد لبثنا فترة ننتظر أن تكون ظروف الأمن مناسبة لزيارة البلاد حتى أخبرتنا السفارة السعودية في (إنجمينا) أن الظروف مناسبة لقدومنا فاتفقت مع زميلي في الوفد السفير الغزاوي الذي كان آنذاك يعمل في وزارة الخارجية في جدة وأنا مقيم في الرياض على أن نحجز معاً للسفر من باريس إلى شاد بأن نجتمع يوم الأحد الساعة الواحدة ظهراً... عند مكتب الاستقبال في فندق مريديان في باريس للسفر يوم الإثنين أي بعد يوم واحد، من باريس إلى (إنجمينا).

ولكن الحرب الأهلية فاجأتنا في يوم الأحد بأنها قد قامت في مساء السبت بعد أن غادرنا المملكة، وأن السفارة السعودية قد أغلقت ضمن ما أغلق من السفارات، وأن الدبلوماسيين لجأوا إلى القاعدة الفرنسية هناك التي تمهد الطريق لترحيلهم، وقد رحلتهم بالفعل، وكان ذلك في التاريخ الذي ذكره فخامتكم.

وهكذا رجعنا من باريس دون أن نستطيع الوصول إلى (إنجمينا).

فضحك فخامته عند ذلك، وقال: هذا يدل على أنك معني بملف شاد منذ وقت طويل، فقلت في نفسي: وبملفات غيره من بلدان المسلمين، ولم أقل

ذلك له، ولكنني قلت له: إن إخواني من الشاديين الذين يرافقونني في هذه الزيارة كانوا فيما يظهر لي لا يحبون لي أن أرى بعض شوارع إنجمينا وميادينها التي ليست على درجة من المظهر مثلما هي الحال في المدن الأوروبية، ولا المدن في بلادنا، ولكنني قلت لهم: إن وضعها الآن يذكرني بالوضع الذي كانت عليه المدن في بلادنا قبل استخراج النفط واستغلاله، إنني أتخيل أن بلادكم وقد اكتشف فيها النفط بمقادير تجارية وإن لم يستغل بعد ستصبح مثلما عليه بلادنا الآن لأنها سوف تنمو وتزدهر بإذن الله.

كان المترجم الوحيد الذي حضر المقابلة مع الأخ (الطاهر قاسى) واسمه (عِدّ النّو بن مكاييل)، ولكنني عندما سلمت الرسالة إلى فخامته فتحها وقرأها بنفسه وهي بالعربية، ثم أخذ يحدثني ويستمع إلي وأنا أتحدث بالعربية من دون الحاجة إلى مترجم.

وقد قدمت إلى فخامته هدية من رابطة العالم هي عباءة عربية مقصبة، وتمر من تمر المدينة المنورة، وحقيبة يدوية بداخلها نسخة من تسجيلات القرآن الكريم على أشرطة كاملة، ومصحف شريف فاخر الطباعة، ومصحف في حجم صغير، وسجادة للصلاة فيها البوصلة التي تحدد القبلة، وعلبة فيها سبحة فاخرة، وعلبة أخرى فيها (ميدالية) من الرابطة.

وقد تقبل الهدية مني شاكراً.

حديث للتلفزة والإذاعة:

كرم فخامة الرئيس العقيد (إدريس ديبي) فخرج معي يودعني من القاعة التي كنا فيها إلى خارجها، ثم مشى معي إلى الرواق ومصورو التلفاز والمصورون الصحفيون يلتقطون الصور التذكارية، وكانوا قد سجلوا دخولي وسلامي على الرئيس، ولكنهم انصرفوا بعد ذلك، فكان الحديث معه طبيعياً، لقد أعجبت بهدوء الرئيس ورصانته وعمق أفكاره ثم حكمته في معالجة الأمور، فرغم كونه مسلماً متديناً، فإنه لم يتفوه بكلمات قد يستعملها أعداء الإسلام حجة لانحيازه إلى جانب دون جانب بأن ينقل عنه ذلك.

كما كان حديثه عن العلاقات مع المملكة العربية السعودية حديثاً

رزيناً هادئاً رغم ما كنت علمت به من قبل من كونه عاتباً على المسؤولين عندنا في وزارة الخارجية لكون حكومته أرسلت أكثر من رسالة حول إعادة فتح السفارة السعودية في إنجمينا ولكنها لم تتلق نتيجة.



رئيس جمهورية شاد يودع المؤلف إلى مدخل قصر الرئاسة بعد انتهاء المقابلة

وبعد أن التقطوا صوراً تذكارية عدنا إلى قاعة الجلوس الفاخرة التي كنا فيها قبل السلام عليه، فوجدت بعض المرافقين ينتظرون، ومنهم الأخ أحمد محمد حسب الله، ووجدت آلات التسجيل جاهزة، فطلب مني الأخ عدّ النو بن مكاييل حديثاً للتلفزة والإذاعة بدأه بقوله: ماذا دار بينكم وبين فخامة رئيس الجمهورية أثناء اللقاء، قلت له: تحدث فخامته عن الروابط العريقة التي كانت تربط بين شاد والمملكة العربية السعودية منذ قرون،

وأنتم تعلمون أن بعض العلماء الشاديين كانوا ذهبوا إلى مكة المكرمة وتلقوا العلم فيها، ومازالت هذه العلاقات الثقافية إلى جانب علاقات أخرى قائمة بين الشعبين.

ثم سأل عن جهود رابطة العالم الإسلامي فقلت له: إن رابطة العالم الإسلامي هي منظمة شعبية عالمية لها علاقات بالجمعيات والمؤسسات الإسلامية على مستوى العالم، وفي مجالسها وهيئاتها ممثلون للشعوب الإسلامية، وليست إدارة حكومية سعودية، ومع ذلك فإن الحكومة السعودية تخصص لها ميزانية مالية تتمكن بها من التعاون مع الجهات الإسلامية تعاوناً ثقافياً جرياً على عادتها في التضامن الإسلامي والتعاون بين الشعوب الإسلامية.



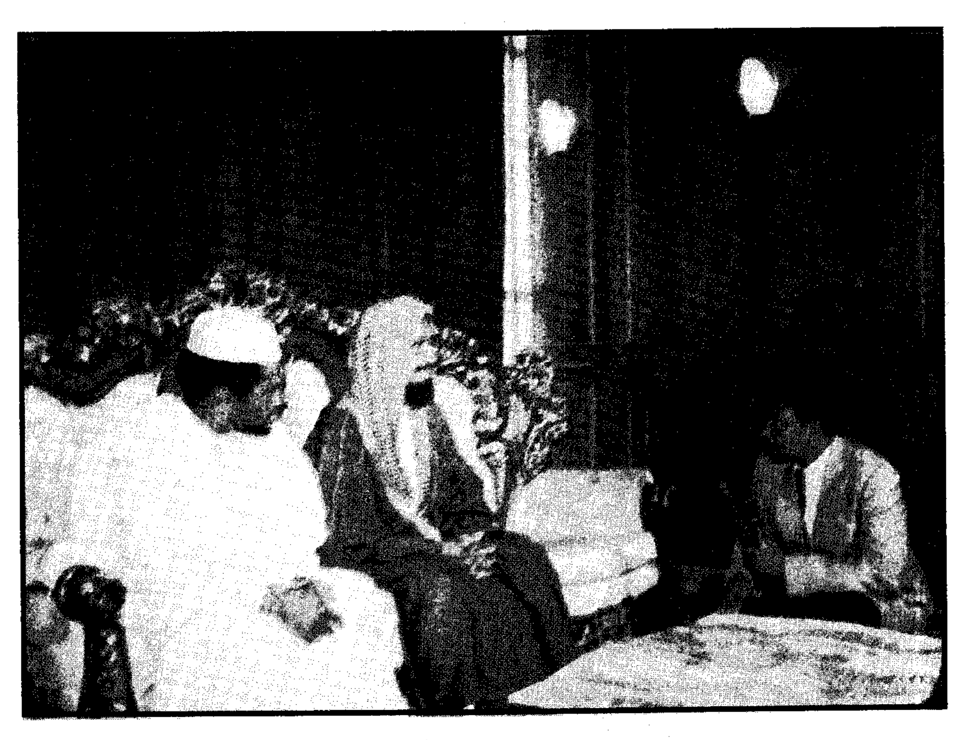
المؤلف يتأمل جلد الحية الكبيرة في سوق المتحف في إنجمينا

وفيما يتعلق بالتعاون مع (شاد) فإن لنا علاقات ثقافية مع الجهات الإسلامية الثقافية في البلاد، وإننا نرجو أن تتوثق العلاقات في المستقبل وأن تشمل جهات أكثر.

ثم قال: ما رأيكم في الوضع في البوسنة والمحنة التي يلاقيها المسلمون هناك؟

فقلت له: إننا نعتقد أن للإخوة المسلمين في البوسنة واجباً إسلامياً على الدول الإسلامية أن تقوم به، وقد قام بعضها بشيء من ذلك بالفعل، وإن كان يحتاج إلى المزيد وواجباً إنسانياً وحضارياً على الدول الكبرى التي أخذت على نفسها حماية الشعوب المعتدى عليها، وكررت أنها تقوم بإحقاق الحق وإشاعة العدل في العالم.

غير أننا نرى الإخوة المسلمين منذ شهور يقتلون ويبعدون عن ديارهم وتنتهك حرماتهم ومع ذلك لم تقم الدول الكبرى بواجبها في حمايتهم مما يدل على أن الإجراءات التي اتخذت من قبلها غير كافية.



المؤلف يتحدث لإذاعة وتلفزة شاد

كان الذي أجرى هذا اللقاء التلفازي الإذاعي هو الأخ (عد النّو) بن مكاييل ، واسمه غريب على بعض الناس، لذا لا بد من تفسيره فالنو: السحاب الممطر، وهي كلمة عربية فصيحة لا تزال مستعملة في عاميتنا

النجدية، وقد شرحتها شرحاً وافياً في ((معجم الألفاظ العامية))، وعد النو مثلما نقول (عدك) على كذا بمعنى كأنك حصلت عليه، فمعنى اسمه أنه كالمطر أو لنقل كالغيث، واسم والده ميكاييل اسم إسلامي هنا، وهو اسم أحد الملائكة، وقد ورد في بعض الآثار أنه الملك الموكل بالمطر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نعود إلى الحديث عن الرئيس العقيد إدريس دبي فنقول: إنه شاب قيل لي إن عمره لم يصل الأربعين، وهو ذو مظهر عربي يشبه الشنقيطي الشاب المعتدل الوزن، وهو متدين أخبرني المقربون منه أنه يصلي كل جمعة مع الناس، وأنهم يشيرون له بأن لا يذهب إلى الجامع خوفاً على حياته فلا يبالي بذلك، ولذلك يختارون له الجامع الذي سيؤدي فيه صلاة الجمعة في آخر لحظة حذراً من أن يتسرب الخبر عن المسجد الذي يذهب إليه.

بل إنه كأكثر الإخوة الشاديين يصلي الصلوات المفروضة جماعة ولا يصليها منفرداً، ففي أكثر الأحيان يصليها في مكان مخصص في قصر الرئاسة لأنه ليس فيه مسجد، وأحياناً في مساجد خارجها مع الناس.

ومواظبة الرئيس على أداء الصلوات جماعة، وحرصه على ذلك هو ما نعرفه عن الإخوة المسلمين في شاد كما قدمت ذلك، وأزيد هنا أن من أوجه الشبه بين قومنا في نجد وبينهم أن التدخين عندهم مكروه إلى درجة أن المدخنين منهم يعتبرون نادرين، وقد لاحظت ذلك فلم أشم من أي رجل من المرافقين رائحة الدخان، إلا من الملازم الطيار (حافظ بن مندى) المخصص لمرافقتي، قالوا: وإذا عرف أن الشخص يدخن نزل قدره عند العامة من الناس.

وذكروا أن تناول المسكرات أمر نادر، وهو منكر يحتقر فاعله وتسقط منزلته عند الناس.

سوق التحف:

في الساعة الخامسة عصراً خرجت مع موظف المراسم الأخ أحمد محمد حسب الله إلى سوق مجاور لفندقنا فندق (نوفوتيل) لرؤية سوق تباع فيه التحف الصغيرة والمصنوعات اليدوية، وقد اطلعت فيه على أشياء محلية جيدة

مثل جلود الحيات، ويسمون الحية الكبيرة ذات الجلد الكبير الطويل (أصَلَه) بفتح الهمزة والصاد، وهذا اسم عربي قديم لم يتغير منه شيء، والكبير منها بأربعين دولاراً أمريكياً.



السوق الذي ينظفه أهله في إنجمينا

وهناك بيض النعام، وهو عندهم أنواع منوعة، أبيض طبيعي وبياض بيض النعام ليس ناصعاً.

وأنواع منه صبغوها بأصبغة مختلفة ونقشوها بنقوش أخرجتها عن طبيعتها، ولكنها أكسبتها معرفة بشيء من فن الرسم والنقش في شاد، وقيمة البيضة الواحدة ست مائة ريال شادي، وهو مقدار اصطلاحي يعادل ثلاثة آلاف فرنك إفريقي غربي وذلك يعني ١٢ دولار أمريكياً.

وللجعاب - جمع جُعْبة بضم الجيم - وهي التي يجعل الرامي فيها سهامه نصيب كبير، وهي من مصنوعاتهم المحلية، كما أن من مصنوعاتهم أيضاً سكاكين وأشياء أخرى من العظام، ولا أدري من عظام أي حيوان هي، والربابة المشهورة عندنا معروضة، ومثلها مما يرغب السياح الغربيون في

اقتنائها تذكاراً لزيارتهم هذه البلاد.

وسجادة محلية على هيئة بساط منقوش بخيوط ملونة، وهو من الصوف الجيد قيمته ٣٠٠ دولار.

وفي السوق كثير من السلع المستوردة من خارج شاد، ولكنها مما يصلح للسياح مثل القلائد والأساور والصناديق الصغيرة وحتى حاملات المصاحف من الخشب.

ولا حاجة إلى القول بأن جميع الباعة في السوق هم من المسلمين لأن هذا هو واقع الحال في هذا السوق وغيره من أسواق العاصمة، وتدل على ذلك هيئاتهم وثيابهم العربية.

وقد دخلت حانوت أحدهم واسمه زكريا، فاقترح المرافق التقاط صورة في حانوته الذي هو من الخشب والصاج ومعنا جلد حية كبيرة.

سوق باب شريف

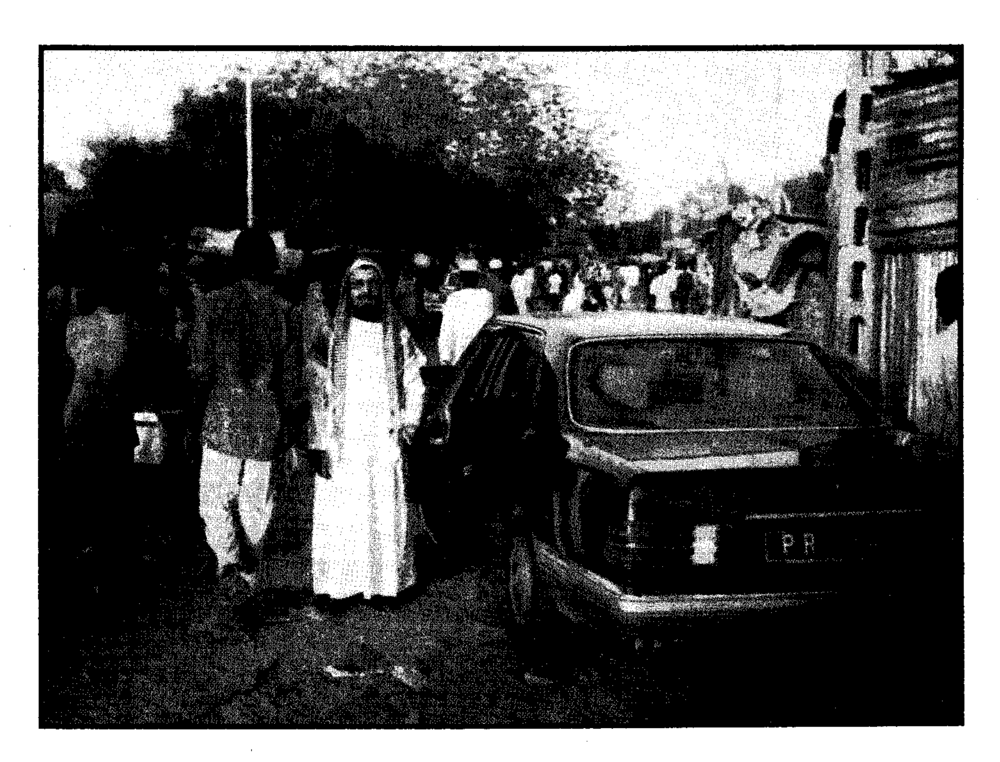
و باب شريف هذا الذي سمي باسمه هو باب شريف الموجود في مدينة جدة، ذكروا أن هذا السوق سمي على اسمه لأن كثيراً من البضائع الموجودة فيه مجلوبة من (باب شريف) في جدة، وربما كان ذلك من باب التشبيه، ولو لم يكن هناك شبه ظاهر بين السوقين.

وكان هذا السوق يسمى في القديم (سوق الخلا) والخلا: نوع من الدخن لأنه كان يجلب إليه يباع فيه، وهو من الدخن الصغير الحب.

أكثر البضائع في هذا السوق على هيئة بضائع صغيرة مع بائعات جالسات على جانب الشارع، ولكن خلفهن حوانيت، وقريب منهن سيارات كبيرة تنزل البضائع في السوق.

أول ما دخلت السوق رأيت البائعة الأولى جالسة أمامها شيء مكور كالبيض تبين أنه (مُقْل) بضم الميم فقاف ساكنة، وهو ثمار شجر الدوم ولكنه مقشر، وذكرني هذا بعهد قديم إذْ كان الحجاج من بني بلدنا يأتون بالمقل هذا عن طريق مكة المكرمة ليلعب به الأطفال ويتعللون بذلك، ولكنهم يحضرونه غير مقشور، فيحتاج تقشيره إلى جهد، وليس فيه غناء

وإن كان يؤكل بعد تقشيره فتوجد فيه نواة كبيرة صلبة.



المؤلف عند سيارة الضيافة في أحد أسواق إنجمينا

وهي إلى جانب حانوت يذيع أغنية سعودية لطلال مداح بصوتٍ عالٍ، بغية جلب الانتباه إليه وقد كتب على الحانوت وهو صغير بالعربية وحدها: (مع تحيات استديو كانم لتسجيل الأغاني الشادية والسودانية).

وأكثر البائعات هنا مسلمات بطبيعة الحال، ولكن رأيت معهن غير المسلمات، يعرف ذلك من مظاهرهن في عدم التستر، كما يظهر ذلك أيضاً من اللون القاتم، أو لنقل إنه البالغ في السواد، ومن التقاسيم الظاهرة في الوجوه التي تشبه وجوه الأفارقة تحت خط الاستواء.

وأما المتسوقات، وأكثرهن من المسلمات فإن فيهن طائفة من ميسورات الحال يتمثل هذا واضحاً في لباسهن وهيئاتهن، وهن على غاية من الجمال والذوق في اللباس، وهو لباس وطني لا أثر لتقليد الإفرنج فيه.

وجميع الأشياء المعروضة للبيع هنا تباع جزافاً بالكومة وليس بالوزن، فلا تجد عند الباعة موازين في مثل هذه الأسواق إلا ما كان من أهل

الحوانيت.



سيارة شحن في سوق إنجمينا المزدحم

ورأيت الدخن معروضاً بكثرة، وفي أنواع متعددة، فسألت عن ثمنه فأروني مكيالاً يتسع لكيلوين اثنين على وجه التقريب ذكروا أن سعره ٤٠ ريالاً شادياً يساوي ذلك مائتي فرنك إفريقي غربي (سيفا)، وهو يعادل ثلاثة ريالات سعودية إلا ربعاً، وهذا سعر ليس رخيصاً بالنظر إلى كون الدخن هو الوجبة الرئيسية لعامة الشعب، وبخاصة في الأرياف، وتنتج البلاد منه مقادير كبيرة.

ولدى بعض البائعات قوارير مختلفة الأحجام من زيت الفول السوداني الذي تنتجه البلاد أيضاً بمقادير جيدة، ويستعمل هنا في الطبخ للإدام ونحوه.

وفي السوق أشياء كثيرة تستحق الذكر، وتصلح أن تصور أيضاً ولكن الزحام كان بالغاً، ومن الصعب أن تطلب من الناس في مثل هذه الحالة أن يكونوا على الوضع الذي تحب أن تصورهم عليه، ولذلك اكتفيت بعدة صور توضح ازدحام الناس في هذا السوق.

وسوق القماش:

ويقع بجانب (سوق باب شريف) أو (سوق الدخن) كما كان يسمى بمعنى هذا الاسم في القديم سوق القماش، ولاحظت أن السوق نظيف، ليس فيه ما يصدم نظرك، فسألت الأخ المرافق (حسب الله) عن السبب في ذلك فذكر أن أهل السوق هم الذين اتفقوا على تنظيفه، فقلت: إن هذا ما كنت أقوله من قبل وهو أن تلزم البلدية أصحاب الحوانيت في السوق بتنظيفه إذا لم تستطع هي أن تفعل ذلك.

ولاحظت أن اللافتات التي فوق المحلات التجارية فيه كلها بالفرنسية مع أن أهل السوق من باعة ومشترين بدون استثناء يعرفون العربية اللهم إلا إذا افترض أن جاء أجنبي إليه، وهذا نادر لا يقاس عليه، ومع ذلك لا وجود للعربية في كتابة اللافتات، فاخترت أحد أصحاب الحوانيت واسمه (يوسف إبراهيم) وقلت له: يا أخي، أنتم تعرفون العربية، والمشترون منكم يعرفونها فلم تكتبون اللافتات على الحوانيت بالفرنسية مع أنها كلها حوانيت للمسلمين؟



مع يوسف إبراهيم في متجره في سوق القماش في إنجمينا

فقال: أيش نسوي بالكتابة، أنا قلت لا بد نكتب عربي فرنسي وإن شاء الله أكتب على (دكاني) هذا.

وعدنا إلى جانب من السوق الأول وهو امتداد له، فرأيت بائع تمر يابس أردت أن أعرف ما إذا كان للتمر عندهم أسماء لأنواع منه متميزة فذكر أنه لا يعرف أي اسم آخر له غير (التمر).

ورأيت كلباً ضالاً، والكلاب قليلة هنا فسألتهم عن ذلك، فقالوا: الناس لا يحبونها، فذكرت ما قاله لي أهل (تنبكتو) في مالي عن سبب عدم وجود الكلاب عندهم وهو أن أحد الصالحين منهم رأى النبي ﷺ في (تنبكتو) بالليل، فصاروا يخرجون الكلاب إكراماً للرسول ﷺ.

هكذا قالوا وقد ذكرت ذلك في كتاب: ((سطور، من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور)) وهو كتاب مطبوع.

مأدبة رئيس الجمهورية:

كرم فخامة رئيس الجمهورية الشادية العقيد (إدريس دبي) فدعاني إلى مأدبة عشاء غير رسمية في بيته دعا إليها عدداً من الوزراء والوجهاء منهم:

السيد/ الطاهر قاسى مستشار رئيس الجمهورية المكلف بالبعثات

السيد/ عثمان جده

السيد/ أحمد حسب الله صبيان وزير الداخلية سابقاً

السيد/ جدى بشارة وزير الأعلام والثقافة سابقاً

السيد/ حبيب دوتم وزير التجارة سابقاً

السيد/ محمد صالح النظيف مدير عام وزارة الاتصالات السلكية واللاسلكية

الشيخ/ حسين حسن أبكر رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

رئيس الحرس الخاص لرئيس الجمهورية الرائد عبد الرحيم بحر

محمد أتنو و(أتنو) هو جد الرئيس.

ولم يحضر الرئيس، وإنما حضر هؤلاء الوزراء، وكل المرافقين لي ومنهم الشيخ حسين حسن أبكر رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والطاهر قاسى، وذكروا أن والد الرئيس يقيم في هذا البيت أيضاً أي في بيت الرئيس ولكنه خارج العاصمة الآن، وكذلك تقيم والدته وأخوه وهو ضابط في الجيش.

وفي البيت هذا زوجته الأولى التي لا تزال في عصمته، ولكنه ينام أحياناً في رئاسة الجمهورية طلباً للأمن.

بدأت المأدبة في السابعة والنصف عشاء، واستمرت حتى الحادية عشرة، ولم أشعر بمرورها لأن الإخوة الحاضرين، وكلهم ذو منزلة رفيعة في البلاد من وزير حالي ووزير سابق فكان الحديث متشبعاً، سألوني أثناءه عن كثير من أحوال المسلمين في البلدان النائية كالصين، وما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، وحتى أستراليا وأقطار جنوب المحيط الهادئ، وسألتهم عما يتعلق بهذه البلاد الشادية الشقيقة من تاريخ ولغة وأدب واستفدت منهم فوائد كثيرة.



في مأدبة العشاء التي أقامها رئيس جمهورية شاد في بيته في إنجمينا

كان مجلسنا في الهواء الطلق من المنزل الذي هو على هيئة دارة (فيلا) ذات فناء واسع تظلله أشجار باسقة منها أشجار النيم وغيرها.

وكان موضع الجلوس دكة مرتفعة من الفناء الواسع على سجاد ثمين فوقه الوسائد والأرائك.

أما المائدة فإنها حافلة بالأطعمة الشادية الأصيلة لم يستغنوا بواحد منها عن الآخر، فمثلاً أحضروا العصيدة وهي ملساء إلا أنها غليظة جداً مثلما تكون عليه عصيدة الذرة التي كنا نأكلها في الشتاء في الصباح المبكر البارد، وقد نسيناها الآن بحيث لا يعرفها أولادنا.

ورأيتهم يضعون عليها مرقاً دسماً غليظاً، وجاؤوا باللحم أنواعاً منوعة ما بين شواء وسليق، وبالسمك أنواعاً أيضاً، وحتى الدجاج كان كثيراً، وهناك نوعان من الأرز.

يوم الثلاثاء: ٤/١٢/١٤١٣هـ ٢٥/٥/١٩٩٣م

نزلت إلى حديقة الفندق لتناول طعام الإفطار في المقصف الموجود فيها فأفزعني أن سمعت أصوات المدافع تطلق من منطقة خيل إلي أنها ليست بعيدة عنا، فتخليت أن هذا ربما يكون لمناسبة من المناسبات، ولكنني تذكرت أن رئيس الجمهوري سيسافر في صباح هذا اليوم إلى جمهورية الغابون، ولو كان الأمر كذلك لكان من المحتمل أن يكون موجوداً لشهود هذا الاحتفال أو على الأقل لا يكون غائباً عنه.

ولكن إطلاق المدافع استمر وتخلله في بعض المرات أصوات إطلاق البنادق، فسألت عمال المقصف عن الأمر، فهزوا أكتافهم قائلين: إنهم لا يعلمون مع أنهم كلهم يعرفون العربية، وهي اللغة الوحيدة التي أسمعهم يتحدثون بها فيما بينهم مثل غيرهم من المواطنين، فقلت لهم: أهناك مشكلة؟

فقالوا: لا.

وكنت قرنت إطلاق المدافع في ذهني بحديث سمعته البارحة عن الحرب التي نشبت في عام ١٩٨٠م في هذه المدينة واستمرت تسعة أشهر، غير أنني رأيت الموظفين وحتى الآكلين في المقصف لا يبين عليهم القلق لهذا الأمر.

ثم علمت بعد ذلك أن إطلاق هذه المدافع هو لتدريب الجنود على ذلك، وهو التدريب الذي يقوم به ضباط فرنسيون، وذكر لي الإخوة أن ساحة التدريب هذه قديمة لذلك لحقت بقربها عمارة المدينة، ولكن ميدان الرماية لم يرحل لأن فيه سواتر يصعب إيجاد بديلات لها إلا إذا أنفقت لذلك نفقة عظيمة.

اللقاء بالدعاة إلى الله:

كانت الساعة العاشرة ضحى موعد اللقاء بالدعاة إلى الله الذين يعملون في هذه البلاد متعاقدين مع مؤسسات في المملكة العربية السعودية من أهمها رابطة العالم الإسلامي التي أتولى فيها وظيفة الأمين العام المساعد، وذلك من حيث عدد الدعاة، إذ يبلغ مجموع الدعاة إلى الله الذين تقوم بلادنا بدفع رواتبهم ٢٤ داعية، منهم عشرة دعاة متعاقدون للعمل مع

الرابطة، وسبعة مع دار الإفتاء والدعوة في الرياض، والبقية مع هيئة الإغاثة الإسلامية وغيرها.

وكان مكان الاجتماع في قاعة صغيرة من أحد الأبنية الملحقة بجامع الملك فيصل، لأن القاعات الرئيسية الواسعة فيه هي واقعة الآن تحت الترميم كما تقدم.

استمرت الجلسة طويلاً تكلمت في أولها عن مهمة الداعية إلى الله، وما ينبغي أن يتحمله من الصبر على عمله لأن ذلك من أشرف الأعمال، ألا وهو عمل الأنبياء والمرسلين والصالحين لأن عملهم هو تعليم الناس الخير، ونهيهم عن الشر وهدايتهم للصواب.

ثم تكلموا طويلاً أيضاً وأخبرتهم أنه ستتاح الفرصة لكل من أراد أن يتكلم لكن بشرط ألا يطيل بحيث يضيق الوقت عن الذين لم يتكلموا.

وقد بسطوا في كلامهم ما يحتاجون إليه، ومن أهم ذلك توفير دراجات نارية لهم أو سيارات يتنقلون بها للخروج إلى القرى والبراري لدعوة الناس إلى الله، لأن أهل تلك النواحي كانوا يطلبون منهم ذلك.

لكن الدعاة لا يستطيعون تلبية طلبهم لصعوبة الوصول إليهم، وقد أخبرتهم أنه ليس بالإمكان تخصيص دراجة أو سيارة لكل واحد منهم لأن بعضهم يقتضي عمله أن يبقى في مكانه كالمدرسين وحتى الذين يتجولون للدعوة في أوقات فراغهم يصعب ضبط هذه الوسائل إذا أعطوا إياها لأنها قد تستعمل في غير ما خصصت له، وإنما العلاج يكمن في توفير سيارة أو عدة دراجات تكون عند الجهة التي تشرف على أعمالهم، فإذا أراد شخص منهم الذهاب للتجول في الدعوة، وفرت له تلك الجهة ذلك حتى يعود ثم استعادت ذلك منه.

وقد احتجوا بأن المنصرين والعاملين في الكنيسة لديهم مثل هذه الوسائل، وأنهم يتنقلون بها حتى في مناطق المسلمين.

وطلبوا أيضاً أن تسعى الرابطة في برنامج لتأهيل الدعاة يريدون بذلك أن يتيسر لهم إكمال دراساتهم العليا كالماجستير والدكتوراه بنفقتها، فقلت لهم إن الرابطة ليس عندها مثل ذلك لكل داعية، لأن دعاتها في أنحاء

العالم آلاف، وبعضهم بل أكثرهم لا يحتاج إلى الشهادات العليا في عمله، بل يكفيه ما هو عليه من علم للقيام بواجبه في الدعوة، والمهم هو العمل، وذلك قد يحصل بدون ذلك، ولو أخذت الرابطة بهذا الاقتراح لترك كثير من الدعاة أعمالهم، وتفرغوا لإكمال دراساتهم العليا، ولكن إذا وجد داعية لديه رغبة قوية، ويملك إمكانات مناسبة لإكمال دراسته فإن الرابطة تعينه على ذلك بأن تخصص له إعانة مالية شهرية رمزية أو تعده بالنظر في توظيفه بعد إكمال دراسته العليا.

وقد طلبوا أيضاً توفير آلات ناسخة وآلات طابعة بالعربية وآلات للتصوير فقلت لهم: إن هذا أمر مهم، وإن الرابطة مستعدة لتوفيره للجهة المسؤولة عن تسيير أمور الدعاة لأنه لا يمكن أن يسلم لفرد من الأفراد منهم دون غيره.

وجولة في مدارس جامعة الملك فيصل:

الطلبة الآن في عطلة دراسية، ولذلك لم أرهم، وكان لابد لي من رؤية مدارسهم والاطلاع على أماكن دراستهم، فكان ذلك، إذ دخلنا أول الأمر في مباني الابتدائي، وكلها فصول دراسية جيدة مما هو ملحق بجامع الملك فيصل هنا، وذكروا أن عدد الذين يدرسون في هذا القسم عندهم هو (١١٥٠) منهم ٩٥٠ من الذكور ٤٠٠ من الإناث.

ثم اطلعنا على ثانوية الملك فيصل، وفيها مع القسم الإعدادي ١٢٥٠ طالب وطالبة حسبما قال لنا مديرها، والفصول واسعة جيدة إلا أنها تفتقر إلى الترميم إذ مضت عليها سنون وهي محرومة من ذلك، بل إنها فيما يظهر من حالها لم تلق العناية اللازمة، ويجري الآن ترميمها كما تقدم.

وفيها مقاعد خشبية جيدة وكافية إلا أن النظافة في هذه الفصول وبخاصة نظافة المقاعد والأبواب والنوافذ والحيطان ليست بذاك.

توقيع الاتفاق.

كان من أهم الأشياء التي عليّ أن أعملها هو توقيع اتفاق بين رابطة العالم الإسلامي والحكومة الشادية يتعلق بمقدار المعونة التي ستقدمها الرابطة لجامعة الملك فيصل وغيرها.

وهي في الحقيقة منحة من الرابطة لا تحتاج إلى توقيع من الطرفين بل يكتفى فيها في العادة بالكتابة من الرابطة إلى الجهة المعنية بأن الرابطة قد التزمت بتخصيصها لهم، ولكن الإخوة في شاد أرادوا أن يسجل ذلك ليكون عنواناً على استمرار التعاون بين الرابطة والجهات الإسلامية فيها بوساطة الحكومة التي تهتم بهذه الأمور الإسلامية، وإن لم تستطع أن تقدم لها الدعم المالي علناً لأمور كثيرة منها شح المال لديها، ومنها الخشية من أن يطالبها المسيحيون بمثل ذلك.

وقد تم في الساعة الرابعة من بعد الظهر التوقيع على ما أسموه بالبروتكول المتعلق بذلك.

مغادرة شاد :

في الساعة السادسة إلا ربعاً غادرت مدينة إنجمينا قاصداً مدينة برازافيل عاصمة الكنقو مع طائرة لشركة أيرافريك.

وكان في التوديع في المطار الإخوة الشاديون الكرام الذين رافقوني طيلة زيارتي لشاد وغيرهم جزاهم الله خيراً.

والحديث عن السفر إلى برازافيل، وتوقيع اتفاقية مع حكومتها لمنح مكتب رابطة العالم الإسلامي الذي سيفتتح فيها الحصانة (الدبلوماسية) ومقابلة المسؤولين فيها من وزيري الخارجية والداخلية إلى رئيس الجمهورية في مكان آخر من كتاب آخر. ولله الحمد.

فهرس المحتويات